



«أردت به بيان شيء
من حكمة الله فى شيء
من أغلاط الناس»
الرافعي

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

الطبعة الثانية

منقحة بزياداتٍ تبلغُ ربعَ الكتاب
فى طبعته الأولى

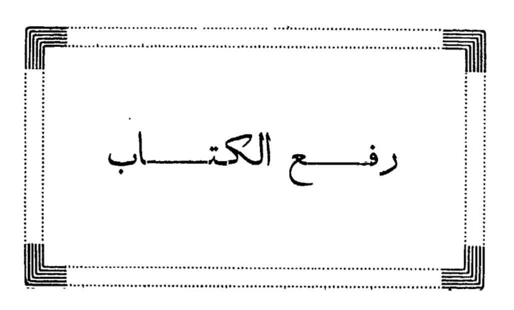
الثمن ١٠ صـ

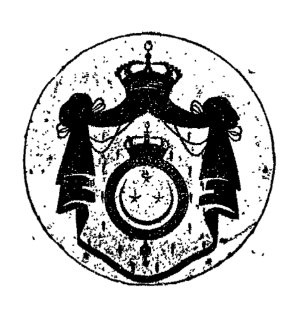
١٣٤٧ - ١٩٢٩

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر



جلالة مولانا الملك فؤاد الاول حرسه الله


رفـــع الكتـــاب



رفع الكتاب

الى تاج الشرق ، نصير العلوم والفنون والآداب ، حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك «فؤاد» حرسه الله

إن وَحْيَ أعمالِكَ العظيمة يامولاى قد أثبت للعالَمِ كلّه أَن التاريخَ حيٌّ فى مواهبك السامية ؛ يُظْهِرُ بها سحرَ معانيه العميقة ، ويُهدِى فيك الى هذه الأُمّة المَجيدةِ قانونَ سُمُوِّها وتَحوُّلِها.

فمن أَعمالك عرفنا أَن خيرَ ملوكِ النيلِ من أَضاف الى خصْب هذه الأرض خِصْبَ إِنسانيتها وخصبَ تاريخها ؛ فعرفَ كيف يحفظ لها الطبعَ المُثْمِرَ، وكيف يُهَيِّئُ لها الشعبَ المثمرَ، وكيف يُخْرِجُ فيها الزمنَ المثمِرَ.

ونحن اذا وصفناك فانما نَصِفُ الحقائقَ الانسانيةَ العاملةَ التي لايُؤْتيها واهِبُها الأَزليُّ إلا أفرادا قلائلَ من عظماء خَلْقِه ؛

يختارهم ليضعَ بهم معنى الخلود فى بعض أعمال الانسانية الكبرى

وكما تتسعُ أمةٌ كاملةٌ فى رُوحيتها بنبيٍّ كريم ، يتسعُ شعبٌ كاملٌ فى ذاتيته بملكٍ عظيم مثلك يامولاى ؛ فما كدتَ تلبسُ التاجَ حتى وضعتَ من مجموع مواهبك العظمى تاجاً آخرَ على مجموع صفات الشعب ، فكنتَ نُمُوًّا فى نفسيته ترتفع به بين كلِّ حينٍ وحينٍ الى موضع فى الحياة أعلى من موضع، وكنتَ بتدبيرك الموفَّقِ السعيدِ كأنك الجاذبيةُ الزمنيةُ بين حاضرِ مصرَ ومستقبلها

فالى سُدّتك العالية أَرفعُ هذا الكتابَ الذى هو كتابُ الايمان والخيرِ والاحسانِ والرحمة؛ فانى رأيتُ كلَّ صفة من هذه الصفات قد اتخذتْ منك مَثلَها الأعلى وأحاطتك بجوٍّ قلبيٍّ من شعبك الذى هو فى الأُمم مَثلُها الاجتماعى ؛ فمنك لأمتك العطفُ والرعايةُ وحسنُ التدبير وقوةُ الأملِ فى عناية الله ؛ ومن الأُمّة لذاتك الكريمة عواطفُ الحبِ والاخلاصِ والشكر والدعاء ؛ والله سبحانه وتعالى يجعل منك ومنها لمصرَ مجدا وتوفيقاً ويُسْرا وعناية

حفظك الله يامولاى لشعبك ومصرك ، وأراك فى وليِّ عهدك بركاتِ عصرك . آمين

الداعى لمولاه

مصطفى صادق الرافعى

الى صاحب « المساكين : »

لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وغوته كما للألمان غوته .

احمد زكى باشا



مؤلفات الكاتب

إعجاز القرآن (١)

تاريخ آداب العرب

تحت راية القرآن

(المعركة بين القديم والجديد)

ديوان الرافعى « ثلاثة أجزاء »

ديوان النظرات

النشيد الوطنى المصرى وتاريخه

(فى الطبعة الثانية)

حديث القمر

رسائل الأحزان

(فى فلسفة الجمال والحب)

السحاب الأحمر

« تكملة رسائل الأحزان »

أوراق الورد

تكملة الرسائل والسحاب

---

(١) شرفه الله تعالى بأمر جلالة مولانا الملك « فؤاد » بطبعه الطبعة الثالثة على نفقة جلالته الخاصة *

﴿ صفحة ﴾

من كمال النبوة وأخلاق سيد الخلق

« كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم يقول فى »
« بعض دعائه: اللهمَّ أحْيِنِى مسكيناً وأمِتْنِى »
« مسكيناً واحشُرنى فى زُمْرَةِ المساكين. »
« فقال له أَنَسُ بنُ مالكٍ رضى الله عنه : »
« يارسولَ الله إنك لتُكْثِرُ من هذا الدعاء »
« قال يا أنسُ : إنَّ رحمةَ اللهِ لاتُفارقهم »
« طَرْفَةَ عين. (١) »

وخُيِّرَ عليه الصلاة والسلام أن يكونَ له مثلُ أُحُدٍ (٢) ذَهَباً فقال: لا يارَبِّ، أجوعُ يوماً فأدعوكَ وأشبَعُ يوماً فأحمَدُك.

---

(١) ذلك بأنهم مادة الأخلاق والعواطف فهم في الانسانية كالجيش يقذف به فى المهالك لأنه وحده مادة النصر. وعلى هذا فمن رحمة الله بالناس أنهم في الناس (٢) جبل بالمدينة.

(صفحة من الغيب)

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعتَه الأولى ، رأيت فيما يرى النائم أنى فى دار الطبع التى اخترتها له وقد سألنى جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها ، فكتبتها ثَمَّةَ ودفعتُها اليه . ثم استيقظت وما برحتْ تدور على لسانى ، وتالله إن خَرَمْتُ (١) منها حرفاً وهذه هي بنصها وكأنها

فاتحة الكتاب من قلم الغيب :

« هذا كتاب المساكين . فمن لم يكن مسكيناً لايقرؤه لأنه »
« لايفهمه (٢) . ومن كان مسكيناً فحسبي به قارئاً والسلام »

« الرافعي »

---

(١) أى مانقصت (٢) قلّ أن يوجد فى أهل الفهم رجل واحد لاتفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين .

(صفحة من الحكمة)

قال الفيلسوف ديوجينيس الكلبي وهو ذاك الذى رآه الاسكندر الأكبر فقال فيه « لولم أكن الاسكندر لوددت ان اكون ديوجينيس » :

ينبغي أن تُقَدَّر ثروة الانسان لا بأمواله ومُسْتَغَلاَّته بل بعدد الاشياء التي يستطيع أن يعيش غيرَ محتاج اليها (١)

---

(١) يريد الفيلسوف أن ماتملكه فى الحقيقة هو ماتملك أن نستغنى عنه لان مانحتاج إليه يصرفنا في وجوهه وأسبابه فهو يملكنا مصلحا إن قل ومفسداً أن كثر ، وعلى أيهما فهو شاغل عن الانصراف الى سواه بالانصراف إليه . وحكمة الفيلسوف تنظر الى القول المأثور : القناعة كنز

ومن بديع قول هذا الحكيم : يكون الاسد حبيسا فى قفصه ولكن الحبس لن يجعله عبدا لمن يطعمه



مقدمة الطبعة الثانية

وضعتُ هذا الكتابَ من إحدى عشرةَ سنةً ولو استوى له أحَدَ عشَرَ قرناً ثم كُتبتْ له يومئذ مقدمةٌ لكان هو هو كما أصفه اليوم، كتابٌ ليس له قبلٌ وليس له بَعد؛ فهو دائرٌ مع النهار والليل على معنىً آخِرُهُ في الانسانية أولُه. معنى إذا قلتَ فيه إنه يجيء مع كل مولود فقد قلتَ إنه لايموتُ مع أحد من الموتى.

ستقرأ في الكتاب وصفَ «الشيخ علي» الذى أسندتُ اليه الكلامَ وجعلتُه فيما أَسْتَوْحيه كالخيط من شعاع السماء تهبطُ عليه تلك المعانى التى خلدَ عليها جمالُ الخلدْ؛ «فالشيخ علي» هذا هو رمزٌ فى كل دهر لثبات الجوهر الانسانيّ على تحوُّل الازمنة فى أشكالها المختلفة؛ ومن ثمَّ تعيشُ مع الانسانيةِ معانى هذا الكتاب فهو من روحها صورةً وحِلْيةً وجاذبيةً؛ ومن عجيب الحكمة أنه مامن نبى أو حكيم أو شاعرٍ يترجمُ إلى لسان الحياة ماهو أسمى من الحياة إلا استمدَّ ذلك من مساكين الحياة خاصةً. هم أبداً

السحابةُ المستَوِيةُ المُخيِلَةُ لمطرِ العواطفِ[1] على جَدْبِ الروح الانسانية في الارض ولعلهم لذلك يتراكون في الحياة من سوادٍ كالغمائم، ويتشقّقون من نارٍ كالبروق، ويُجلجِلون برعودٍ يئنون فيها، ويَتبجَّسون[2] بمطرٍ يبكون به.

وأعجبُ من ذلك أنك لاتجدُ من شيء يُحدِث من ذي نفسِه[3] مثلَ هذا الاثر، إلا أجملَ الجمالِ في أقوى الحبِّ، فكأن أعظمَ البُؤس وأعظمَ الجمال صورتان لحكمة إلهية واحدة وإن اختلف منظرٌ ومنظر؛ والسماء تغبرُّ بلون التراب في رأيِ العَينِ حين لا تحمل الا ماءَ المُزْنِ الصافي

*
* *

يزعمون أننا في عصر العلم وفي دهر القانون ويريدون أن يسلبوا الناسَ إيمانَهم كأن الايمان هو مشكلةُ الانسانية مع أنه لاحلَّ لمشكلتها إلا به، إن مسئلة الغنى والفقرِ وما كان من بابهما لايحلها العلم ولا القانونُ إذ هي من مواد القضاء والقدر في إنشاء الآلام والاحزان وأَضْدادِها التي تُقابلها، ومادام فوق الانسانية من السماء قوةٌ لاتحدُّ، وتحت الانسانية من القبر هُوَّةٌ لاتُسدُّ،

---

(١) الممتلئة التي يؤمل فيها المطر (٢) جلجلة الرعد دويه. وتبجس الماء تفجره واستعماله في المطر هنا مبالغة في انتزاع الوصف (٣) يقال فعل كذا من ذي نفسه ومن ذات نفسه أي طبعاً لاتكلفا

فلا نظامَ الا على تصريف النفس أمراً ونهياً وتأويلِ الحياة معنىً وغاية ، فإن لم يكن الشأنُ في ذلك مقرراً في الغريزة على جهة الإيمان فلن يكون العلم والقانونُ على ظاهر النفس الا ثورةً بما في باطنها ، ولن يبرحَ الناسُ علي ذلك بعضُهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر اليه أو كالمضطرّ اليه وهو هاربٌ منه ، وكلٌّ من كلٍّ في معنى من معاني النفس لا انسانيةَ فيه .

مازاد العلماء على أن خلقوا في ساعدَي الحياة هذه العضلةَ البخاريةَ وذلك العصبَ الكهربائيَّ فمن لم يستطع أن يَتوقّ ضربة الحياة المدنية بعُدَّةٍ من قوة وعَتادٍ من المال طاحتْ به فَدكَّته دكَّ الخسف ووضعته من الناس موضع الحبَّة من الرَّحى الدَّائرةِ فمابينه وبين أن ينهارَ موضعٌ يَستمسكُ عليه ، وانما هذا الموضع هو ايمان المؤمن إذ يعطفُ على الضعَفاء أو يسعِدُ أو يَبرُّ بما كُتبَ عليه أن يرقَّ لهم من ذاتِ نفسه ويَتحَنَّى ويتوجع

ومتى كان العلم والدينُ يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة في مادتها وإنسانيتها لم تجرِ الانسانيةُ الا على ناموس بقاء الأَصلح في الجهتين ، فاذا تخلَّى بها العلمُ وحده فلن تجريَ أبدا الا على ناموس بقاء الأصلح في ظاهرها لايجاد الأَفسد في باطنها

لن يفلحَ الانسانُ للحياة الطيبة ـ مادام بهذا التركيب الذي لن يتغير ـ الا اذا وَازنَ بين بيئتهِ التي هو يُوجهها وبين طباعِه التي

هي تُوَجهه فقيَّداً أَشياءَ فى قيودها وأطلق أشياءَ من قيودها وجمع فى مُتَبوَّأ نفسه حدًّا بحريَّة ودينا بعلم. بَيدَ أن طغيان العلم فى هذه المدنية قد مَرَدَ على طباع (١) الانسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدِّين فاذا هو يزين الشهوات واذا الشهوات تُطَوِّعُ المغامرةَ واذا المغامرةُ تجلب المنازعةَ واذا المنازعةُ تدفع الى الحرص واذا الحرصُ يَتصرَّفُ بالحيلة واذا الحيلةُ تهلك التَّقوى وكان فى تقوى الانسان إيمانُه وكان فى ايمانه رحمتُه وكان فى رحمته الأثيرُ الانسانىُّ الذى تعيش فيه الروح. وعلى ذلك يقع فى الانسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم، فاذا هو منحدرٌ الى السقوط مقبلٌ على المَحْقِ راجع الى الحيوانية بأكثرَ مما يحتمل تركيبه منها أو لا يرى الناسُ أن تفوُّق أمةٍ على أمة لم يعد فى هذه المدنية الا معنى من معانى القدرة على أكلها . . . . ؟

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الانسانَ آلةً من آلاته التى عَمَرَ بها الدنيا فأصبح من لا ايمان له يَتعسَّفُ خسائسَه (٢) لا يدرى أين يؤُمُّ منها وأين يقف، فلا يتسفَّل بقوة انسان ولا بضَراوَة وحْشٍ ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها

---

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ بها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الانسانى الكريم

(٢) يتخبط فيها على غير هدى

وسرعتها وإتقانها .... حتى لارذيلةَ من رذائل هذه المدنية إلا هي مُفَنَّنَةٌ في تركيب على نسَق الأمور المخترعة ، وكأن الآلاتِ العمياءَ مازادت انسانَها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى .... وكأن المدنية الملحدةَ ماعَدَتْ أن جعلت الوحشيةَ تعمل أعمالها الفظيعةَ بتأنق وتمدن ....

نسى الناسُ الايمانَ أو انسلخوا منه فاذا أيديهم تَموج بأسباب الفضائل (١) لاتحكمها ولا تَضْبطُها وما كان الايمان الصحيحُ الا التقوى (٢) ولا كانت هذه التقوى إلا عملاً من أعمال الارادة غايتُه إيجادُ الغرائز العليا فى الانسان بالأسلوب الذى لاتخلَق الغريزةُ العمليةُ فى النفس الابه وعلى النحو الذى لاتصلُحُ فى الحياة الاعليه .

---

(١) ماجت اليد بالشيء إذا اضطربت به كأن أيديهم لاتضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها .

(٢) الاسلام كله في كلمة التقوى كما بيناه مفصلا فى كتابنا (إعجاز القرآن) فانظره . وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد قال (هكسلى) قسيم دارون الشهير — : « إن الدين هو اجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » . وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر . وكل ماسبقه به الفلاسفة والحكماء وكل ماجاء وماسيجيء هو من معانى (التقوى) فى الاسلام لاتضيق الكلمة عن شيء منه

أظهرُ آثار الايمان (١) تحديدُ الغايات الانسانية وتنسيقُها والملاءمةُ بينها ، فان اطلاقَ الغاية لكل انسان على شأنه وسبيله كيف دَرَّتْ معيشتُه (٢) وكيف دارت أهواؤه — يجعل طُرُقَ الناس متداخلةً متعاديةً فيقطع بعضُها على بعض ويقوم سبيلٌ في وجه سبيل ، فلا تُحل عقدةُ الامن حيث تُقْرَضُ أختها ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسةِ المتشابكة الا قاطعاً متقطعاً معاً ، وأنت اذا بحثتَ عن الوحدة التي تحاول ضمَّ الانسانية المتنافرة وردَّها الى مرجع واحد لم تجدها في غير ايمان المؤمنين ، فهو أبداً يقابل في كل نفس ما تطغَى به الحياةُ على أهلها ، ولا عمل له الا أن يحذف الزيادات الضارَّةَ بالانسان من بيئته وبالبيئة من انسانها وهو بهذا حائلٌ في كل مجتمع بين أن تنقلب أسبابُ السمو العقلي فتعودَ من أسباب الدناءة والخسة

وانما محلُّ الايمان من أهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم فهو الامرُ والنهيُ بلغة الدم والعصب ، وهذه الغاياتُ التي تتألف من أجلها الحكومات كأمْن الناس ونظامِهم وحريتهم وسعادتِهم هي أنفسُها محكومةٌ بمسائلَ تأتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم ، فان لم تكن في النفوس

(١) سأتيك فيما تقرأ من الكتاب كلام كثير عن الايمان وفلسفته

(٢) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو .

من الدين أصولٌ تأمرُ وتحكم ، وفى الطباع من اليقين أصولٌ تستجيبُ وتخضع ، رجعت الحكومةُ فى الناس أداةً مسلطةً لا تُغني كبيرَ غَناءٍ في الخير والشر. اذ يحتاج الخير أبداً الى قوتها تحميه ويحتال الشر أبداً على قوتها تستنقذه ، ومتى لم يكن الخيرُ الا بالقوة فاحتياجُه اليها شرٌّ ، ومتى لم يكفّ الشر عن القوة فاحتياله عليها شرٌّ مثله ؛ فاذا تضعضعتْ من الاديان هذه الدعائم الراسيةُ وفَرَطَ من الانسانية هذا الفارطُ الذى ليس فى الارض كِفَاءٌ منه — لم تجد حسنةً فى حكومة من الحكومات الا معها من طبيعتها سيئةٌ ، ولم تجد سيئةً الا هي سيئتان ، فلن تكون الحياةُ حينئذٍ الا تعقيداً أشدَّ التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة

والغنيُّ القادرُ علي مُتَعِ الحياة ولذاتها هو دائماً فى فلسفة العاجز قادرٌ بلا قدرة ، كما أن الفقير الضعيفَ هو دائما عند نفسه عاجزٌ بلا عجز ، ولا أدلَّ علي ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تُشبه أن تكون هي أيضا معنى بلا معنىً .. ... وهي الحظّ .

فلا بد للناس من الحدود التى تَبنى بين كل ضدين من أحوال الانسانية جداراً يعطفُ نفسا على نفس بالرحمة ، ويردُّ قوةً عن قوة بالصبر ، ويكُفُّ عاديةً عن عادية بالتقوى ، ويحقق عواملَ التوازن بين أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة لِيُقِرَّ كلَّ

مُضطرِبٍ فى حَيزٍ إن لم يُمْسِكْهُ فيثبتَ فيه لم يفلِته فيمْدُ وَعلى سواه .

فاذا عملت المدنيةُ على هدم هذه الحدود وتركت قوةَ الايجاب فى طبيعة الحياة بغير قوة سلبيةٍ من الايمان فى طبيعة النفس ، كشفتْ للانسان عيوبَه ببلاغةٍ من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه كما تقول للص : إنك لتسرق وستصبحُ غنيا تمرُّ يَدَكَ فى الذهب تُنفق تستمتعُ على ماتشتهي .... فما يراك قلتَ له لا تكن لصًّا وتَعَفَّفْ بل قلتَ له كن غنيا واستمتِعْ . ويومئذ يغبرُّ البؤسُ ويقشعرُّ الفقر كما نرى لعهدنا فى الامم التى فشا الالحاد فيها ، فليس من بعدُ إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكْبِ الدمع إلى صورته الحمراء فى سفك الدم وكان سؤ الافيعودُ اغتصاباً وكان الأسفلَ فيرجعُ الأعلى وكان يَفْرِضُهُ الحقُّ فاذا هو الحقُّ نفسُه . والله لكأنّ المسكين فى هذه المدنية هو الجزء الاثيمُ الذى طرده الغنىُّ من نفسه وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه ، فاذا هما اعترضا فى مذهب من مذاهب الحياة. نَفَرَ الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه وأطبق عليه البائس بمعانى النقمة واللعنة يقول له ماأنا الا لؤمك أنت .

إن من الشجر شجرةً تنبت فى القَفر تعتصرُ ماءَها من بين رملٍ وحجرٍ وتمتصُّ غذاءها من لؤم الجدب، فاذا حان أن يُزْهِرَ عُودُها

شَوّكَ فلا يكون فى عُقَدِه و نَبْرِه،(١) الاشَوكُ شوكٌ ،فاذا ازدرعُوها فى الخِصْب وخَضَّلها الماء(٢) وساغت لها الطبيعةُ ثم حان أن يزهرَ عودُها مَلَّسَهُ كَرَمُ الأرض(٣) فاذا فى موضع كل شوكةٍ زهرةٌ كأنها كلمة الحمد ، وكذلك مَثَلُ الفقير بين الملحد والمؤمن .

تُرى أيخرجُ الانسان فى هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب ؛ أم هو منحدرٌ من عصر عقله الى عصر معدته ثم إلى (٤)....

وكان على هذه الارض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شِبْهُ الفقر، ومساكينُ مؤمنون لهم من كرم الصبر شِبه الغنى، فهل تنقلب المدنيةُ من الغنى المحض والفقر المحض الى مادة تخلق اللحمَ الحيَّ وأخرى لاتخلق له الا الظُّفْر الحي . . .؟

وكان اختراع الانسان فى المادة الجامدة ؛ افتراه يجيء يومٌ على الناس يكون اعظم اختراع فيه للانسان الاخير أن يعيدَ الى الارض إنسانَها الاول الكريم ؟

مصطفى صادق الرافعي

---

(١) النبر النتوء الذى فى العود (٢) بله الماء
(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه (٤) تحت المعدة الأمعاء ....

مقدمة الطبعة الاولى

هذا كتابٌ حاولت أن أكسوَ الفقرَ من صفحاته مَرْقَعةً جديده . . . فقد والله بليتْ أثوابُ هذا الفقر وإنها لتنسدِلُ على أركانه مِزَقاً متهدِّلةً (١) يمشى بعضُها فى بعض ، وانه لَيَلْفِقُها (٢) بخيوطٍ من الدمع ويمسكها بُرَقعٍ من الاكبادويَشدّها بالقطع المتنافرة من حسرةٍ الى أملٍ وأمل الى خيبةٍ وخيبةٍ الى هم ؛ وأقبحُ من الفقر أَن لا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينةٌ الا من أوجاع الانسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى (٣) الأوّلين

وأنتَ فربما رأيتَ الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مَسْحَةُ الدينار ، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوانُ الجنة والنار . . . ، (٤) وماتشك فى أنه واسع البَسطة عريضُ النعمة طيّبُ المكْسِبَة ، وهو على ذلك رقعةٌ خَلَقٌ (٥) فى أذيال الفقر يجرّرها على أقذار الحياة وأدناسها ولو نطق له الغنى لقال دعنى

---

(١) أى قطع مسترخية (٢) لفق الثوب ضم شقة منه الى شقة (٣) أى الافكار الساقطة مما هو مبعث الجريمة والرذيلة (٤) كناية عن الاعمال التى تؤدى اليهما معا (٥) بالية والكلمة للمؤنث والمذكر

فما كلُّ ذى مَتْرَبةٍ فقيرٌ ولا كل ذى مَثْراةٍ غنى(١) والفضائل قائمةٌ فى الدنيا بالصغار والفقراء ولكن من نَكَد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم ، على أن أكثر هؤلاء لاتكون منهم فى كل أمة الا الطبقةُ المنحطة انحطاطاً .. عالياً . . . فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حصروه من جهاته الارضيّة وقد ترامتْ ، وضيّقوا من حدوده السماوية وقد تَراحبتْ (٢) وانما هو طبقة معنوية فوق الأرض وانما هو أسلوبٌ خاص فى نظام الكون ولا سبيل الى التنقيح والتحرير فى أساليب الله نَصْرِفها عن معانيها أو نتكذّب فى تأويلها أو نردُّ عليها ماليس منها ، وانما الشأن كلّه أن نحسِن الفهمَ عن أوضاع القدرة الالهية بمقدار مانستبينُ فيها من الحكمة فان فى ذلك صلاحَ أنفسنا ، وما جعل الله سبيلَ المصلحة والمَفْسَدةِ الا من أفهامنا حتى إن الأدمغَة لتُعدُّ من أكبر العلل فى أمراض التاريخ الانسانى ، وربما كانت العلةُ الكبرى فى طائفة من الطّوائف صورةً أثريةً لأكبر رأس فيها . فان نحن أسأنا الفهم أو ذهبنا به المذاهبَ أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيّرنا

---

(١) المثراة مايكون سبباً لتكثير المال

(٢) ترامت وتراحبت بمعنى اتسعت

أو بدّلنا فذلك واقعٌ بنا لا يَعْدُونا ومايستولي على الكون من جهلنا اضطرابٌ ولا تلحقُ به آفة فى وضع من أوضاعه وإن الله لايظلم الناسَ شيئاً ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلمون .

ومادام فى هذه الدنيا شيء من المادة أو المعانى يُحتاجُ اليه أو يتوهم أحد أنه محتاج اليه ففى الدنيا الفقر .

ومادام للناس رغبةٌ يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة فَثَمَّ الحسد . ومادام فى الغيب أيامٌ وآمالٌ وفى الدنيا فقرٌ وحسدٌ فهناك الطمع

ومادام لهؤلاء الناسِ من أشيائهم ماتحملهم أخلاقُهم على الضنّ به أو يكون سبيلهُ من الطبيعة أن يُضَنّ به ؛ وفيهم الفقر والحسد والطمع فثَمَّ خَبءُ السوء والرذيلةُ الماحقة وثَمَّ البخل . وإن البخل وحده لفى حاجة الى نبي يُصلحه .

هذه أخلاق أعرقتُ فيها الانسانيةُ ولابد منها ومن فروعها حتى يظلَّ الناسُ ناساً لاملائكةً ولا شياطينَ فانَّ من عجيب حكمة الله أنه لاصلاحَ للعالم الا بالفساد الذى فيه

بَيْدَ أنَّ فى كل شرجهةً من الخير أوجهةَ تتصل بالخير فاذا صلُح فهمُه صلح هو أيضاً أو كأنه صلح لظهور حكمته والوقوفِ به عند حد الشر الطبيعى وهو الشر الذى لابد منه .

فليكن الفقرُ والحسدُ والطمعُ والبخلِ ، ولكن برِضاً يمنعُ

السخطَ وسكون يكسر شِرَّةَ النفس ورفق لا يَعْنُفُ على الحق واعتدال يُقِرُّ كل شيء على حدِّه (١) يومئذ يجد الانسان فى كل نَزْوَةٍ من نزوات جنونه شيئاً من الحكمة ، أو على الأقل شيئا يمكن من بعض الوجوه أن يسمى فى باب المنفعة الانسانية حكمة .

* * *

ولقد كان الفقرُ عُرْياناً يوم كان آدمُ فى الأرض وليس عليه الا ما خَصَفَ من ورق الجنة (٢) . وعاش دهراً تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرحُ فى ثياب بيضاءَ من أشعة القمرين إذ لم يكن يعرفه أحد بعدُ ولا استطار به سَماعُ السوء (٣) فى الأحياء ، بل كان عُنصراً مجهولاً فى غيب الطبيعة. ولم يكن لهذا الانسان يومئذ من المعانى الفقرية . . . غيرُ شعورٍ طبيعي لا زَيغ فى تأويله عن الطبيعة وهو شعور المعدةِ القوية المعصوبة التى لا تحتمل الشعرَ والخيالَ وفنونَ الكذب العقلي ولا تشعر الا لتطلبَ ولا تطلبُ الا ما تجد، ومتى وجدت وانطفأ نَهَمُها (٤) فليس

---

(١) عندنا ان الفضائل شهوات محدودة والرذائل شهوات مطلقة وان السعادة الممكنة ان تجعل كل شيء فى حده .

(٢) خصف الورق على بدنه ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة

(٣) أى الذكر بالسوء (٤) النهم إفراط الشهوة فى الطعام

الا قوة الجسم وانبساط النفس وحمد الله فى كل ضرب من ضروب الجمال فى الخليقة .

ثم كانت عداوة ابنَي آدم إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، وفتحت الصفحة الأولى من تاريخ الدم الانسانى فى الأرض فكان البغض أول سطورها . وجاء من بعده الفقر وخطت بعد ذلك سطور وسطور كلها يلتقي إلى هذين المعنيين . يومئذ عرف هذا الفقر وأصبح يتلبس فى كل إنسان بمعنى يلائمه إذ لم تعد الحياة هى الحياة ، بل الوسائل التى يدفع بها الموت ومنها الموت نفسه ، فصار البغض وسيلة ، والحسد وسيلة ، والطمع وسيلة ، والقتل وسيلة ، وكل ذلك لأن الانسان فقير بمعنى من معانى الفقر ، وما البغض الا فقر من المحبة ولا الحسد إلا فقر من الثقة ، ولا الطمع إلا فقر من العقل .

وإن أردت العجب فاعجب لهذه الطباع الانسانية إذ يحاول كل امرىء أن لا يفهم من معنى الفقر إلا ما يمكن أن يجريه على الناس كافة حتى لا يكون هو وحده المبتلى فى نفسه الممتحن فى سعادته ، وحتى يجد مادة العزاء من حيث التمسها . فالفقر على ذلك هو العوز الى المال ، وهذه بلية عليها يحيا الناس وعليها يموتون . ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال ثم وجد المال فما منع أن يلقى أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة

مالو استطاعوا لافتدَوْا من عذابه بكل مافى أيديهم ولو أَن لهم طِلاعَ الأرضِ (١) ذهباً . ووُجد المال فما مَنعَ الفقراءَ أن يُخوِّلَهم اللهُ من رحمته التى لاتفارقهم طرْفةَ عينٍ مالا يحبون أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلَّها . (٢)

دخل بعضُ الفقراء (٣) على الرشيدالعباسيِّ وتاجُهُ يومئذ سَبيكةُ العصر الذهبيِّ فى تاريخ الإسلام ، والإسلامُ يومئذ ترتجفُ به دِفتاَ الشرقِ والغربِ وكأن الشمسَ والقمرَ يتلألآن على أرجاء ماكه ذهباً وفضة ، (٤) وكانت فى يد الرشيد كأسُ ماء وقد رفعها إلى فمه. فلما أبصر ذلك الملكَ الذى لايماكه شيء أمسك ثم قال له عِظنى . قال أرأيتَ ياأمير المؤمنين لو مُنعتْ عنك هذه الشربة التى فى يدك أفكنت تطلبها بكل

---

(١) أى ملء الارض

(٢) كانت معدة مورغان الامريكي صاحب الملايين الكثيرة ضعيفة فجعل مائة ألف جنيه لمن يشفيها. ورأى الاطباء أن ينتزعوها و يبدلوه منها معدة كلب فخشي الهلاك وأبى . فمعدة الرجل الفقير هى في جوفه أثمن من مائةمليون جنيهفى يدذلك المسكين وهي الكنز لاهذاالمال الذى لايشترى معدة

(٣) هم الصوفية ولقب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة

(٤) رأى الرشيد يوما سحابة تمر فى السماء فقال أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك

ملكك ؟ قال نعم . قال أفرأيتَ لو شربتها ثم امتنع خروجُها منك أكنت تفتدى من عاقبة ذلك بكل ملكك ؟ قال نعم . قال الرجل الصالح فانظر ياأمير المؤمنين ماقيمة مُلكٍ لايساوى عند قَدَرِ الله شربةً ولا . . . ولا بَولة !

كذلك يحاولُ الناسُ أن لا يُخطئوا الرأىَ فيما يَستحبُّونه أو يطمئنون به . وكأنهم لذلك يحاولون أن لا يُصيبوا الحقَّ فيما يكرهونه أو ينفرون منه ؛ فكلهم سواءٌ فى ابتغاء السعادة المتوهَّمة التى لايستحيل أن تتفق . ولكنها مع ذلك لاتتفق إذ يريدها كلُّ امرئ على غير ما يناسبُ تكوينَه الانسانى . . وهم بعدُ على سَواء من خشية الفقر كأن فقرهم بين أعينهم فلاتبرح أوهامُهم تَنتَجِي[1] بمعانيه وهمومه ثم لا تبرح تَنمي بها حتى صار الفقرُ فى أنفسهم غيرَ الفقر فى نفسه ، وقد علم الله أنه مامن إنسان إلا وفى تكوينه معانٍ كثيرةٌ منه . على أن السعادة الممكنة أو التى يمكن أن تسمى سعادةً انما يكون زِمامُها الحسَّ إذ هو الوسيلةُ لإدراك الجمال وَتعرُّف المواضع المعنويةِ فى المادَّة والاهتداءِ فى صُنع الله الى أسرار

---

(١) أى تتناجى ويقال فلان فقره بين عينيه اذا كان دائما يخشاه فلا يقنع ولا يهنأ وهو ألأم الفقر وكثيرا ما يكون فى ألأم الاغنياء . .

الحكمة ، وليس من لذة يصيبها الانسانُ فيسميها لذةً الاّ وهي شيء معنويٌّ يجيء من طريق الحسّ فيشعر هذا الانسانُ أن فيه معنى لم يكن فيه، وكأن اتصال شيء من سرِّ النفس أو قدرتها بشيء من سر الطبيعة أو قدرتها هو السعادة .

غير أن العجيبَ الذى ما يُقضَى منه عجباً أن ذلك الحسَّ كلما نَضِجَ واستمرَّ (١) كان أشدَّ إدراكاً للآلام منه للذات حتى إن الرجل الرقيقَ لَيتألم للناس أكثرَ مما يتألم لنفسه ؛ فهل ذلك الا أن حكمة الله قد أقرَّتْ فى تركيب الانسان من عناصر الفقر أكثر مما وضعتْ فيه من عناصر الغنى ؟

وما أشبهَ نفوسَ الناس فى هذه الحياة بالزجاج سُلّط عليه نورُ الشمس ، فما كان من طبعه رديئاً غيرَ مصقول أو مُهمَلاً قد شاع فيه الصدأُ فذاك متى ألحَّتْ عليه وَقْدَةُ الجوِّ حَمِيَ وتَضرَّم فى ذات نفسه ؛ وما كان من طبعه صافىَ الماء بادىَ الرَّونقِ نقيَّ الصفحة رأيته فى توقُّدِهِ واضطرامِه كأنما يَمُجُّ من شعاع الشمس لَهباً يَتطاير . فإن كانت الزجاجةُ قد أُخلِصتْ فى سَبكها وصُنعتْ على الوجه الذى يجمع الضوءَ ويعكس منه وأُحكمتْ من هذه الناحية ؛ فهناك تبلغ من دِقة الحسِّ مبلغَ

---

(١) استمر الأمر أى انقاد والمعنى الحس الكامل المطاوع

الأنفسِ الرقيقةِ المهذَّبة ، فلا تكاد تُرسِلُ عليها الشمسُ من نورها حتى يرجعَ فيها ناراً تلظَّى .

ومتى اعتبرنا الشقاءَ الانسانى وما يعترض الانسانَ فى طريق الحياة رأينا الحق الذى لا مِرْيةَ فيه أن هذا الانسانَ حين تمشى راحلتُه الى القبر (١) لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال، ولكنه ينتهي حينئذ من الموت .

فهذا التركيبُ الانسانى المعجزُ بقليله وكثيره وجماته على السويّة ، والذى استشرفَ منه العقلُ لأسرار هذا العالَم كما توجّه مرآةُ المرْصدِ الى السماء — لم يشهده عصرٌ من عصور الدنيا قطُّ الا ذاهباً الى الفناء بما كسب وما اكتسب حتى ليمكن أن يقال إن حياةَ الحي مصيبة تكبُرُ كلما كَبِر ... فكيف لعمرى يحتمل هذا تركيبُ الهالكُ أن يسعد الا بمقدار ما يُدنى الى الفهم معنى السعادة الأبدية التى ليست من هذا العالم؟ كما تريد أن تُفهِم الطفلَ شيئاً فى نفسك فيراه معنى مُتمرِّداً عاتياً، فلا تزال أنت تُصغِّرُ منه وتَمسخه وتُحيله عن وضعه وتقلّبه على وجوه مختلفة الى أن توافق صورةٌ من هذه الصور فهمَه الصغيرَ الضعيفَ المتحاملَ على نفسه فيدركَ الوجهَ الذى

---

(١) كناية عن الجنازة و يقال من المجاز مشت رواحله اذا شاب وضعف، ولكنا استعملناها كما ترى فأصابت حقها .

أردتَ على الوجه الذى يُريد هو ويعلمَ ماترمى اليه على الطريقة التى لاتعلمها أنت . ولعل هذا هو السببُ فى أن الفطرة الانسانية لاتزال من أول الدهر ضالَّةً فى طلب السعادة تَستَرْحِلُ (١) اليها كلَّ معنى ثم لاتصل اليها بمعنى ، فان السعادة الدنيوية فى التركيب الانسانى إنماهي بمقدار لغوىّ أو مايشبه المقدارَ اللغوىَّ لاغير. (٢)

واذا نحن اعتبرنا هذا الوجودَ الفانىَ بما وراءه من عالَم الغيب رأينا كل صِنفٍ من الموجودات كأنه لغةٌ متميزةٌ بخصائصها أوجدهاالله فى هذاالحياةلتدل عليه سبحانَه بنوع من الدَّلالة أوضَرْبٍ من المجاز ، فأينما مَدَّ الانسانُ عينيه رأى لفظاً كالاشارة أو إشارةً كاللفظ . ولكن قُتل الانسانْ ماأكفرَه . فإن مالايريدأن يفهمه ليذكُرَهُ ويتذكَّرَبه أكثرُ مما فهمه لينساه . ولقد رأى أن مافوق الأرض وماتحت السماء لايَدُلُّه باشارة واحدة على أنه خالد فى هذه الحياة الدنيا .

بَيدَ أن الانسانَ كمايكذبُ فى الكلام يكذبُ فى الفهم فهو

---

(١) أى تركب وتتخذ كل معنى راحلة وظهرا . والكلام استعارة

(٢) سيأتى في الكتاب رأى (الشيخ على) فى السعادة . وفى كتبنا (حديث القمر ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الاحمر) من ذلك أشياء كثيرة

أبداً يحتاج (لشقوته) من هذه الطبيعة إلى أشياء تضل عواطفه كما يحتاج إلى أشياء تهديها ، ومن هنا اقتحمت أهواؤه ونزعاته على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان والتبست في رأيه معاني الأشياء التي تتصل بنفسه ، فظهر من الغنى ما يشبه الفقر ومن الفقر ما يشبه الغنى . وصارت الحياة كلها جهاداً وشقاء ونصباً لأن المشكل فيها أكثر من الواضح ، ولأن الطريقة التي يتبعها الانسان الراقي . . . في حل هذه المشكلات التي تعترض مطامعه وأغراضه هي أن يحل مسئلة بوضع مسئلة مثلها . . . ذلك لأنه لا يهتدي الى الكمال في شيء ، وهو ناقص ولا يذعن أنه ناقص ؛ وإلا فما باله يرى الحكمة الأزلية قد جعلت قوام صحته على القليل من الطعام دون الكثير ، وعلى الخفيف دون الثقيل ، وعلى الرخيص دون الغالي ، وعلى الطعام كما يفيد ، دون الطعام كما يريد . . . ثم هو يأبى الا أن يعد هذه الصفات وأشباهها في باب القلة من الفقر ، ويعتبر نقائضها وما جرى مجراها في باب الكثرة من الغنى . ثم يضرب الله على بصره ويطبع على قلبه فلا يرى لحاجته في الغنى من بلاغ وسبب الا أن يكون المبالغة في الادخار ، والاغراق في الجمع ، والطماح كل مطمح ، وأن يستأكل الناس فيكون عليهم أكلب (١) من الجوع ، ويستصفيهم

---

(١) كلب الجوع سعاره وشدته . واستأكل الناس اذا أكل من أموالهم

فيكونَ فيهم أسرعَ من المرض، ويَستنزِلهم فيكونَ معهم أشبهَ بالرذيلة ؛ ونحن نعرف الكدَّ والحرصَ والبخلَ والشرَه والضَّراوَةَ وكلَّ الرذائل الاجتماعية ونَصفُها ونحدُّها بآثارها وحقائقها وكأننا لا نعرف أن كل رذيلة هى إنسانٌ من الناس .

وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواع من الجماد والنبات والحيوان تؤلفُ منها الكتبَ الحيةَ على نَسقِ الطبيعة نفسِها وهى تلك التي يسمونها « المعارضَ » و « المتاحفَ » ، ولم نرَ حكومة واحدة أقامت معرضاً حيوانياً لأشخاص الرذائل يُدْرَسُ فيه علمُ المقابلة بين الطباع فى الانسان وبين الغرائز فى الحيوان ، وعلمُ الانحطاط الاجتماعيّ وفنُّ الطبقات السُّفلى من الحياة ، وتُؤخذُ منه أمثلةُ الاعتبار والموعظةِ والنصيحةِ فى أبواب مختلفة ، ولو قد فعلت ذلك أمةٌ من الأمم لرأى الناسُ فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهل الإثم والشر والفساد عدداً كبيراً من كبار . . من كبار الأغنياء . . . . ، ثم لرأوا كيف يتصل تاريخُ الطمع بتاريخ البخل وكيف يتصلُ هذا بتاريخ الغنى ، ولظهر لهم بُطلانُ معانٍ كثيرةٍ مما يعدُّه الناسُ فى باب الحقائق إذ لا تجد الرذيلةُ هناك من يكابر فيها أو يُغرُّ بها أو يناضِلُ عنها ولا صاحبَها نفسَه لأنه فى قفص من أقفاص المعرض ... وكأنه ثمَّةَ معنى من الباطل محبوسٌ فى شكلٍ من البرهان على فساده .

وليت شعرى ـ وذلك معنى الغنى ـ هل يَظن من اجتمعت له نَفقةُ ألف سنة أنه سينال فيما بقى من عمره القصير لذةً كلذة عيشه ألف سَنة، وأنه اذا ادَّخر مايقوم بمائة ألف إنسان فقد صار هو فى الارض مائة ألف بطن . . .؟ إن حياةَ الغنى على هذا الوجه لاتكون الا موتاً على طريقة الحياة . . . . فليس الإسرافُ فى جمع المال والكلَبُ عليه الا طريقةً دنيئةً لإنفاق العمر، وليس حبُّ المال والبخلُ به الا وجهاً من بغض الناس وازدرائهم، وانما البخلُ فى رأى أهله وسيلةُ الغنى وسُنَنُهُ القريبُ وهو مهما احتجُّوا له وتمحَّلوا فيه وناضلوا عليه ليس أكثرَ من كونه شعورا ذا جهتين : فأما من جهة البخيل فهو الحبُّ للنفس لاغير، وأما من جهة النفس فهو البغضُ للناس لاأكثر ولا أقل .

ولَأيسرُ على الناس أن يَرتَوُوا من رَشْحِ الحجرِ ويغتذُوا بلبن الطير (١) من أن يجدوا فى الرجل البخيل بغضاً لشىء من المال يَرْضَخُ به محبةً لهم وشفقةً عليهم وحناناً من لَدُنهُ . وقديماً كان البخيلُ أبغضَ الناس لهم وأبغضَهم اليهم وأبغضَهم فيهم، وما أقبحَ هذا البخلَ ـ أخزاه اللهُ ـ أن يكونَ بغضاً ثلاثَ مرات .

ولو أن رجلاً من هؤلاء الذين بسطَ الله لهم فقبضوا وجاد عليهم فبخلوا وأعطاهم فأمسكوا ـ قد أراد الله به خيراً

---

(١) كناية عن المستحيل

فَوَقَاه شُحّ نفسه ويَسَّرَ له فى أخلاقه ومَكَّنَ له فى باب البذل والجودِ وآتاهُ من حب الخير بعضَ ما ابتلاه من حب المال ؛ لرأيتَ حياته توسعةً على قوم فى معاشهم وإحياءً لقوم فى آمالهم وعَتاداً لقوم فى أعمالهم ومنفعةً لآخرين من وجوه كثيرة ، ولرأيتَ فى غناه بَرَكةَ العدل ورحمةَ الأمن وعصمةَ الخلود فكأنه استجمع فى حياته الطيبةِ خيراتِ الأعمار الكثيرة وكأنه أمَّةٌ فى نفسه ، ثم لا يكون رجلٌ أحبَّ الى الناس ولا أجدَر بطبيعة الحب الانسانى منه ، ثم لا تجد اسمَهُ الا فى واحدة من ثلاث : إما صفحةٌ تكتبها الأعمالُ للتاريخ ، أو صفحةٌ يُفرِدُها الناسُ للأخلاق ، أو صفحةٌ ترفعها الملائكة الى الله . بل أحرِ بهذا الاسم الكريم أن يكون يومئذٍ بأعماله وآثاره وحسناته اسماً لكتاب ضخم فى أيدى ملائكة الرحمة .

* * *

فهذه آثارُ كرم النفس الطيِّبةِ لا تنشأ الا بين نوعين من الحب : حبِّ الرجل الكريم للناس وحبِّ الناس لهذا الرجل الكريم ، لا هو يَمطُلهم حقًّا عليه ولا هم يظلمونه حقًّا له ، ولعمرى كيف يستطيع المَطْلَ أو يستطيعون والدَّينُ الذى وجب على الفريقين هو دينُ القلب ؟

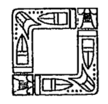
ولقد تكلمت السماءُ في أزمان مختلفة وهبطَ الخطابُ من عرش الله على لسان الأنبياء صلواتُ الله عليهم . وما من نبي مُرسَلٍ الا وأنت واجدٌ في كلامه وشريعته أن تحبَّ للناس ماتحب لنفسك . فهذا الحب الانساني محضٌ من نصيحة السماء ولا بدَّ أن يكون فيه بعضُ الدواء لآلام الانسانية الضعيفة إن لم يكن هو الدواءَ كلَّه .

انظر بعيشك ماعسى أن تكونَ آلامُ الفقر الا صُوَراً من اضطراب النفوس إذ ينصرفُ بعضُها عن بعض وذلك أيسرُ البغض ، أو ينازعُ بعضُها بعضاً وذلك سببُ البغض ، أو يَكيدُ بعضُها لبعض وذلك عينُ البغض ؟

من أجل هذا كان البخيلُ مادةً من مواد الفقر وإن كان هو في ذاتِ نفسه معنى من معاني الغنى . ولقد يصابُ الناسُ بألوانٍ من العذاب ويمتحنون بضروبٍ من المكروه، وترسَلُ عليهم الآفاتُ تختلجُهم من ههنا وههنا ، غير أنهم يجدون لكل مصيبة محلاًّ من الصبر يُسكونها فيه فتجيءُ وحدها وتذهبُ وحدها وانما هي الغَمَرَاتُ ثم ينجلينَ فانَّ من رحمة الله أن لا يزالَ الليلُ والنهارُ يتراكضان بيننا وبين النسيان كما يتراكضُ البريدُ ، فيذهبان بشكوى المصيبة ويرجعان من النسيان بالسلوى أو العزاءِ أو نحو ذلك، ولكن الطائفةَ من الناس اذا ابتُليت بالغنىِّ البخيلِ ابتليت

منه بالمصيبة التى تأكلُ المصائب إذ يرون فيه أشياءَ من معانى القَحط والجدْب والوباءِ والفقرِ والعداوةِ والبغضاءِ وطرفاً من كل جائحةٍ ومعنًى من كل آفة بحيث تضيقُ به جوانبُ الصبر على سَعتها وانفساحها وتَنزَوى دونه فتختاطُ كلُّ مصيبة بكل مصيبة، وليس يأتى على هذا الانسان شىء [1] كتداخُل مصائبه بعضها فى بعض فان ذلك يَمحَقُ الصبرَ ويذهبُ بالسكينة ويفسدُ الرأىَ ويَفتُقُ على العزْم من كل ناحيةٍ فتقاً ويتركُ المرءَ كأنه مجنون بشىء أكبرَ من الجنون .

فالغنىُّ البخيلُ من ذلك كلّه بل هو ذلك كلُّه . . . .



(١) أى ليس يهلكه من قولهم أتى عليه الدهر اذا أهلكه

غرض الكتاب

(وأما بعدُ) فانى قد وضعتُ هـذه الأوراقَ وكتبتُ فيها عن الفقر وماهو من باب الفقر لالحوه ولكن الصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه . ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه لا رغبةً فى إفساده على أهله ولكن لإصلاح مايفهم منه غيرُ أهله، وأدَرْتُ الكلامَ فى كل ذلك على الوجه الذى يراه الشاعرُ فى ضحكِ الطبيعة ورقتها دون الوجه الذى يعرفه الفيلسوفُ فى عبوس المادة وجفائها، ونَحوْتُ به نَسقَ العقل فى بَثّ خواطره للنفس لأنى أريد به النفسَ فى مُستقَرها، وجئتُ به من مَبْرَقِ الصبح لامن غَياهِب الليل، وأطلعته من أفق الإيمان لامن قرارة الشك، وأردتُ به تفسيرَ شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس، فان من ضرائب اللؤم وغرائز السوء فى هذا الانسان أنه ماينفكُّ يحمل نعمَ الله ورحمتَه ومالا حدَّ له من العناية الالٓهية. ولكن كما يحمل الطاووسُ ألوانه وتَحاسينه وزينتَه البديعةَ على ساقين مجرودتين فى الغاية من القبح كأنهما من غراب . . . .

ولست أدَّعى أن كتابى هذا يُسمِنُ من شبَع أو يُغنى من جوع فان هذه العلومَ كلها ومجموعةَ العقول البشرية وتاريخَ ماشاء

الله من عُمران الأرض لايتهيأُ للانسان أن يَعجنها ولو أفرَغتْ عليها السماءُ كلّ مافي سحائبها ، ولا يأتي له أن يخبز منها رغيفاً واحداً ولو حملته الملائكة ليضعه بيده في عين الشمس ، ولا يخرج منها غذاءُ المعدة الا اذا خرج الحبرُ الأسود من عَرَق الزَّنج . .

ولكني أرمي بالكتاب الى عزة النفس والى الثقة بالله والى الصبر على الفضيلة فان الناس من الشر بحيث لا يُعانُ على الفضائل الا من صبر لها صبرَ المبتلَى ؛ ثم الى مغالَبة الوهم التاريخيّ القديم الذي نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر ، وأنتَ لو انتزعتَ الأنبياءَ والحكماءَ وأهلَ العزائم من مجموع هذا الخلق لرأيتَ التاريخَ الانساني كلّه في ذينك المعنيين باباً واحداً من الخطأ . فلقد والله بالغ الناسُ في اعتبار هذين الحجرين (١) وأسرفوا على أنفسهم في محبتهما والكدّ في طلبهما بأخلاقٍ وشيَمٍ ليس لأكثرها موضعٌ في الانسان ولايتسعُ لها عمرُه القصيرُ ، وإنْ هي الا من كلَبِ الحيوانية فيه بل هي تطوّرٌ فاسد في أخلاقه التاريخية ، فقد كانت الجماعةُ الأولى تنازع الحيوانَ وتتعاونُ عليه وكانت الحيوانيةُ قَبيلاً والانسانُ قبيلاً آخر ؛ وغبرَتْ الانسانيةُ على ذلك دهراً ثم انفرَعتْ وانشقت وترامَتْ على أقطار الدنيا فصار لكل أرض إنسانُها وبقي الحيوان كلّه قبيلاً واحدا . ومن ثَمَّ

---

(١) أي الذهب والفضة وقد سميا كذلك في الحديث الشريف

ظهر أثرُ الانسان على الانسان وأخذت تلك الحيوانات العاقلة على تاريخ الأرض في الأرض غير مهذب ولا منقح. بل أصواتاً تتعاوى [١] ... ويومئذ كان عمل الفرد الواحد لقبيلة كلها لأنه في الاجتماع بقبيلته لا بنفسه ، وكان الفرد في عهد الجماعة انما يقاتل على الرزق فأصبح في عهد القبيلة يقاتل على الطماح اليه والاستكثار منه ولم يكن في تاريخه ما يقدع هذا الطماح أو يكفه او يرده فيه رداً فاسترسل اليه ونشأ من ذلك في نفسه معنى الجمع والادخار وأن يمهد [٢] لغيره من بعده

ثم استفاض الدهر بحوادثه وعصور ودوقامت الممالك واستجمعت الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع و يتتابع ويتلون في تاريخ طويل ليس كتابنا بصدده [٣] — حتى عاد ذلك القتال الأول فرقاً ثم رق الى أن صار قتالا في الأسواق بين جماعات الدراهم والدنانير، وكان النزاع بين فرد وفرد وبين قوة وقوة فارتقى وتهذب حتى رجع الى أن صار نزاعاً بين خلق و خلق وبين حيلة وحيلة،

---

(١) من ههنا تعرف ان كل تطور في المدنيات هو فاسد إن لم يكن في أصوله المعاني المؤمنة مما أومأنا اليه في مقدمة هذه الطبعة الثانية

(٢) بمعنى يكسب وماهم الدنيا الا من أن كل واحد يجمع لجماعة

(٣) على هذا التاريخ تقوم فلسفة علم الاجتماع وليس من غرض كتابنا هذا

وبعد أن كان الميدان في رقعة هذه الأرض ، صغر شيئاً فشيئاً أو كبر شيئاً فشيئاً حتى أصبح في رقعة الضمير ....

فالانسان المتمدن هو هو ذلك الانسان المتوحش في عمله للقبيلة إذ يكنز الكنوز ويعقد العقد[1] ويرتبط الأموال غير أنه قد حصر معنى القبيلة في نفسه هو ومن تلزمه نفقته من أهله وولده فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته ، وجمع كثيراً وأنفق ثم فضل عنه كثير فإن هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته الانسانية وأبناء أبيه الأول من الفقراء والمساكين فذلك الجمع فساد طبيعي وتزيد في أخلاق الحياة لاتبعث عليه الحاجة أو لا تحمله الحاجة التي بعثت عليه . ومن هنا خرج مافي لغات الناس من الذم الأخلاقي[2] الذي هو في الحقيقة هجاء الطبيعة بعقولها وشرائعها وأديانها لأكثر الناس . . . .

فالرجل يزعم أنه يجد ويدخر ويحزم ويترقى ، والحقيقة تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهل

---

(١) هي مايتملكه الانسان من أرض وعقار

(٢) يظن بعضهم أن هذه النسبة خطأ وأن صوابها الخلقي على القاعدة المعروفة من النسبة الى المفرد ولكن ذلك الصواب هو الخطأ بعد أن صارت لفظة (الأخلاق) اسما للعلم المعروف « علم الاخلاق » . فالنسبة هنا تجرى مجرى قولهم « أنصاري » إذ كان هذا الجمع « الأنصار » من الشهرة كالاسم المفرد

وبخلٌ وطمع وتسفُّل . ومن أجل هذا صارت الانسانية لاتتقدم خطوةً الا وقفت زمناً تلهثُ وتستروِحُ مما بها الكثرة ما تحملُ من الصناديق والخزائن الثقيلة . . . .

فَحسْبكُم أيها الناس . أنظروا الى تركيب الكون واعتبروا سُننَ الأقدار في إدارته من أحقر مافيه الى أعظم مافيه ، فانكم لاتجدون معانيَ الغنى الصحيح الذى لافقرَ له الا في الأجسام والعقولِ والأنفسِ ولن تجدوا معنى واحداً خُلقَ في صُندوق أو خِزانه ...

*
* *

وقد وضعتُ كتابي للمساكين وأسندتُ الكلامَ فيه الى (الشيخ علي) وهو رجل ستعرف من خبره الذى أقصُّ عليك أنه الجبلُ المتمرِّد الباذخُ الأشمُّ في هذه الانسانية المسكينة التي يَتخبطُّها الفقرُ من أذاه وجنونهِ ومَسِّه .

وأنا أرجو أن ينزلَ هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلاً حسناً وأن يتصلَ بأنفسهم الضعيفة ويُفضيَ اليهم ببثّه ويفضُوا اليه ، فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروةً نافعةً لاثنيهماَ في معاملة الزمن .

مصطفى صادق الرافعي

الفصل الاول

﴿ الشيخ علي [1] ﴾

هو رجلٌ تراه فى ظاهره من الدنيا ولكنْ باطنَهُ يلتحقُ بما وراءَ الطبيعة ، وكان ينبغي أن لا يقومَ مثالُه على مسرَح الخلْق إلاّ مُمثِّلاً وأن لا يَمثِّل إلاّ الوجهَ المطابقَ من الحياة بعد أن استقصى الفلاسفةُ إلى تمثيله كلَّ ذريعةٍ فلم يَستَوِ لهم أن يَمرُّوا فيه ، وقَصَّر بهم التكلفُ ، وقطعتهم دونه تلك الفلسفة التي حماتهم عليه — فخُلِقَ الرَّجلُ نشيطاً مهزوزاً رامياً بصدرِه ونحرِه مُعترِضاً فى زمام القَدَر كأنه صورةُ الفكر الذى يُمثِّله وكأَنه أُسلوبٌ قائم بنفسه فى بلاغة الطبيعة .

وأَحسِبُهُ فى نظره إلى الخلق يتوهم أنه رحالة خرج من بعض الأَفلاك التي تُعرَفُ (بالعقول العشرة [2]) فهبط من أشعته

---

(١) هـذا الرجل من قرية يقال لها منيت جناج من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية وقد توفى فى سنة ١٩١٩ ، ولما وضعنا كتاب « السحاب الاحمر » فى سنة ١٩٢٤ جعلنا فيه فصلا على لسان الشيخ على وسنلحقه بهذه الطبعة من « المساكين »

(٢) من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة انهم يجعلون الافلاك عشرة ويسمون كلا منها عقلا وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الانسانى من تحتها كلها . . .

على الدنيا ، فهذا العالَم شيءٌ جديدٌ في نفسه وهو شيء جديدٌ في العالَم. ينظرُ اليك كما تنظرُ اليه فأنت تتبيَّنُ في سَحْنَتِهِ[1] الواضحةِ أوصافَ الجنونِ الهادئ وتعجَبُ من منظرِ تلك العاصفة النائمةِ في عينيه ، وهو يستجلي منك معنى الغرابةِ في قدرَة الله إذ أنشأك مثالاً غير مفهوم ، ويُطيلُ عجبَه منك أنك على ما فيك تتعجبُ منهُ . . . . فكلُّ رَجل في رأيه إنما هو صورةٌ من الرجل الصحيح الذى لم تُزَوِّرْ فيه حِرْفةُ العيش ومَطَالبُ الحياة شيئًا على الله . ولكُلِ امرئ سؤالٌ يتردَّد بين نفسه وبين السماء. فرجلٌ يقول : اللّهم هذه القوةُ فأين الرزق ؛ وآخر يقولُ وهذَا الرِّزق فأَين القوَّة ؛ وثالثٌ يصيحُ هذه هي العافيةُ وهذا الرزق فأَين السعادة ؛ والشيخ على كأَنه يقول: اللهم إنه لم يبق من الانسانية إلاَّ حشاشةٌ تَسوقُ بنفسِها[2] وكلُّ رجل من هؤلاء صورةٌ مقلَّدة فأَين الأَصل ؟

لما وُلد هذا الرَّجلُ ولعلَّ الطبيعةَ يومئذٍ كانت في صميم الخريف، ثائرةً مجرودةً غبراء[3] . . . . قامت أُمُّه عن نجم منطفئ لاَ تعرفهُ الأَرضُ وقد زَهدَتْ فيه السماء فكانَ رَضيعاً ثمَّ

---

(١) أى هيئته (٢) يقال رأيته يسوق بنفسه اذا كان في الموت

(٣) أى لا نبات فيها

فَطِماً ثمَّ جحَشَ .... ثم ترَعْرَعَ ثمَّ صارَ يافِعاً وعادَ فتًى وانقلب كَهلاً وهوَ اليوم يَحْطِمُ الخمسين (١) وكأَنه لم يكن فى كل ذَلك شيئاً ، ومتى سُوِّيتْ عليه الأَرْضُ لم يترك وراءه الاَّ سطراً ضئيلاً فى سِجلِّ الموتى (٢) فكأَن الخيرَ والشرَّ لم يُدركا هذا الرَّجل ، وكأَنه رُوح كُتِبَ عليها الحبسُ فى جسمها فلا تَشهدُ أمراً من ورائه حتى تنطلق ، وكأَنه حيٌّ على رغم الحياة .

وتُرَى أىٌّ عقلٍ يَعيشُ به ، بل أى عقل وأى جنون ليس من أثرهما الخيرُ والشر؟ ان أكبر من تُنْجِبُه الفلسفةُ ويُخرجه الأَدبُ ليطوى عمرَهُ طياً وراء هذه الغاية البعيدة ، وما حياةُ الفلاسفة الاَّ اختبارٌ للموت فهم يُميتون فى أنفسهم كلَّ سبب الى الشهوة وكلَّ داعيةٍ الى اللذة ويُحْيَوْنَ بالقسم الأَعلى وتبقى مادةُ الأَرض فيهم كأَنها أرضٌ بورٌ عاريةُ المحَاسِرِ لا تُخْصِبُ ولا تُنْبِتُ ، وهذا (الشيخ على) كلُّه أرضٌ بورٌ .... فهو عصر برأسه من تاريخ الأَخلاق ؛ وعلى أى الوجود اعتبرتَه رأيتَه كشيوخ

---

(١) كان هذا فى سنة ١٩١٧ و يقال حطمته السن اذا كبر وضعف وكأن هذا على العكس فهو يحطم السن .... وقد شاع هذا الاستعمال فى اقلام الكتاب دون أن يتنبهوا الى انه لا يجوز ان يقال الا فى مثل هذه النكتة

(٢) كناية عن اسمه . وكان اسمه الشيخ على جمعه

الفلاسفة وحكماء الدنيا يعيشُ في الناس بعقلٍ غير العقل .

ولو تنفَّس به العُمر فبلغ المائةَ وجاوزَ العَصْرَين(١) ما زاد كلٌّ عمله على أن يُشْبِه نفسَه ؛ فهو حليم لنفسه غضوبٌ لنفسه وكذلك هو في الخِفَّة والوقار ، والضَّحك والعُبوس ، والزُّهُوِّ والانقباض ، وفي كل ضِدَّين منهما لذةٌ وألم ؛ كأنه جزيرةٌ قائمة في بحر لا يُحيطُ بها الاَّ الماء فلا صِلةَ بينهما في المادة وان كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هوَ ، يرَوْنه من جَفْوَة الزمانِ أضعفَ من أنْ يُصابَ بأذًى ويرى نفسه من دهره أقوى من يُصيبَ بأذى ، ويَتَحاشَوْنه رأفةً ورَحمةً ويتحاماهم أَنَفَةً واستغناءاً ، ثم إن مسَّه الأذى من رَقيعٍ أوْ سَقيطٍ أحسن الى الفضيلة بنسيان من أساء اليه فيأْلم وكأنَّ ألمَهُ مرضٌ طبيعيٌّ يَعْتَريه ، ولا فرقَ عندَه في هذا الحال بين أن يُمْغَصَ بطنُه بالداء أو يُمْغَصَ ظهرُهُ بالعَصا . . . ! وهو والدنيا خَصمان في مَيْدَانِ الحياة غيرَ أن أمرهما مختلفٌ جداً فلم تقهره الدنيا لأنه لم يَطْمَحْ إليها ولم يقعْ فيها ، وقهرها هو لأنها لم تَظْفَر به .

---

(١) توفي رحمه الله في سنة ١٩١٩ للميلاد كما تقدم بعد ظهور الطبعة الاولى بسنتين

وإنى لأرى فى اللغة كلماتٍ لم تقع على معانيها ولم تجتمع اللفظةُ منها بمدلولها ؛ فكلمة السعادة تبحث عن معناها فى الناس وأهوائهم وشهواتهم ، ومعنى السعادة يبحثُ الناسُ عنه فى هذه الكلمة وحدودها وحقائقها ؛ وربما كان هذا المعنى بجملته مُلقًى تحت الشمس فى زاوية من زوايا القُرى ، أو مُتَفَيِّئًا ظلَّ شجرة من شَجَرِ الجُمَّيْز ، أوْ نائماً تحتَ سقفٍ مَعْروش مِنْ حطب القطن ، أو جالساً يضحك فى نَدْوَة الحي ، أو قائماً يتأملُ مجرى النهر ، أو مضطجعاً يُقَلِّبُ وجهَهُ فى السماء ، أو هو الذى يُسمى « الشيخ على » ؛ وماذا فى السعادة أهنأُ من أن تُوَقَّى شرَّ هذه السعادةِ فلا تتطلَّع نفسُك اليها ولا ينالَكَ إلا ما تحبُّ أن ينالَكَ ، فأنت بعدُ وادعٌ قارٌّ آمنٌ فى سِرْبِكَ ، مُعافًى فى بَدَنِكَ ، خارجٌ من سلطان ما بينك وبين الناس من خُلُقٍ مُسْتَبِدٍّ ، أو رغبةٍ ظالمةٍ ، أو صِلةٍ عاتيةٍ ، ولا حُكْمَ عليك إلاَّ لمالِكِ المُلك . . . . ولم يَفْتُقِ اللهُ لك من فنون اللذات ما يُنَغِّصُهُ عليكَ ، ولاَ ضَرَبَ مِنكَ مثلاً ؛ ولا نَصَّ لَكَ عِقاباً ، ولاَ جعلكَ مرآةَ عدُوٍّ يُصلِحُ فيها نفسَه (1) ولاَ

---

(1) يرى غلطاتك فيتقى على نفسه من مثلها فكأنك مرآته

نصبك لمجاراة أو مباراة ، وقد جنبك فضوح هذه الدنيا والدنيا من السوء بحيث يفضح فيها بعض الخير مالا يفضح بعض الشر ؛ ثم ماذا أنت طالب من السعادة إذا هانت الحياة فلم تضعف عن احتمالها ، ولم ترمك بداء في مرض العيش إلا قت له ، ولم تحملك على أمر إلا تحملت عليه ، وقويت على نفسك فلم تكذبك أملا ، ولم تخدعك فى باطل ، ولم تجاذبك إلى مورد لا تصدر عنه إلا آثما أو نادما ، وكنت من نعمة الله مخفاً لا تحمل إلا رأسك ولا تجوع إلا ببطنك(١) وقد كفيت أن تصرعك نزغات هذا الرأس ، وأمنت أن يقتلك داء هذا البطن ، ولم يضربك الله بشىء من هذه النعم المنافقة التى يأتى بها المال حين يأتيك بالجاه وأصحاب الجاه ومن يريدك لمالك وجاهك ؛ وأعوذ بالله من النفاق (٢) ومن نفاق النعمة خاصة فبينا هي لك إذا هي عليك وبينا هى متاع ، إذا هي التياع ، وبينا هي فى طعامك شىء ، اذا هي من طعامك قيء . .
وهل فى النعمة خير من الكفاف حاضراً ومن الصحة

---

(١) يقال فلان يجوع بخمسة بطون مثلا اذا كان يكدح لمعاش خمسة

(٢) انظر فصل النفاق فى كتاب (السحاب الاحمر) وتصويره وفلسفته

فارهةً ومن قُرَّة العين وضَحِك السنِّ واستطلاق الوجه ، وأن يكونَ القلبُ فى حجابٍ من نور السماء لا تهتك عنه رذائلُ النفس، ولا يَعْلَقُ به غبارُ الأرض ، ولا يتغشَّاه ظلامُ الحياة ، ولا يزال هذا القلبُ فى نَضرته وصفائه كأنه سعادة مخبوءة فى غيب الله لم يُخلَق بعدُ من خُبئت له ؟

كذلك أعرفُ « الشيخ على » فهو رجل سُدَّت فى وجهه منافذُ الجهات كلها إلاَّ جهةَ السماء فكأنه فى الأرض بطلٌ خيالىٌّ يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يُخرِج للدنيا تلك الحقيقةَ الإلهيةَ التى لا تغذوها مادةُ الأرض، ولا مادةُ الجسم ، فهي تزدرى كلَّ ما على الأرض من متاعٍ وزينةٍ وزُخرُفٍ وكلَّ ما ردَّت عليك الغبطةُ من بسطةٍ فى الجسم، أو سعةٍ فى المال ، أو فضلٍ فى المنزلة ؛ وكلَّ ما أنت من إقباله على طمعٍ ومن فوته على خوف ؛ تلك الحقيقة الطاهرة التى تكون أعظمَ ما أنتَ واجدُها فى سِيَر الأنبياء والصِّدِّيقينَ والشُّهَداء ؛ أو حيث يكونُ ذلك العقلُ الجبَّار الذى لا يشبه عقولَ الناس من نبوغ يخرق العادَة أو جنونٍ تخرقه العادَة ؛ وما الجنونُ إلا نبوغ فوقَ الطاقة ولا النبوغُ إلاَّ جنون دقيق .

وكذلك أعرف « الشيخ على » فهو أجهلُ الناس فى الدنيا

وأجهلُ الناس بالدنيا ، كأنه من هذه الجهة مُمْتَلَخُ العقل؛ (١) وأنت إذا سَطَعْتَ له بالجَوْهرة الكريمة النّادرة فلا يعدو أن يراها حصاةً جميلة تتألق ، وإنْ هوّلتَ عليه بألوان الخزّ والدّيباج حسبك مائقاً لم تَرَ قطُّ نضارةَ البرسيم وألوانَ الرّبيع ؛ وكأني بك لوْ وصفتَ له الذّهبَ وما أضرمتْ نارُه في الأرض وهي بردٌ وسلام ، وما أيقظ جمالُه من الفتنة التي استحال عليها أنْ تنام؛ ثُمَّ أريتَه شُعلةً منْ هذه النّار ، في غُرّة الدّينار ؛ لَتضاحك منكَ إذْ تريد أنْ تُوهمه بما أعظمتَ منْ ذلك الشأن أنكَ سلبتَ مُلكَ الله قطعةً من الشمس ، التي غربتْ أمس ؛ ولرأيتَ منْ زرايته عليك ما يعلمك أنهُ ما أكبر هذَ الدّينارَ في عينكَ إلاّ صغرٌ في نفسك ، ولا ملأ يدكَ بالحرص عليه الاّ فراغُ ما بينكَ وبين الله ، ولاَ كَدَّكَ في طلبه إلاّ أنكَ مُسَخّر ،ولاَ أذلّك للمال ، إلاّ خضوعُك للآمال ؛ وما أنتَ إلاّ في قيدٍ منَ الهمّ حببّه إليك أنَّ قُفله هذه القطعةُ منَ الذّهب

وإذا أحضرتَه ألوانَ الطعام وجلوتَ عليه أُبَّهةَ الخوانِ

---

(١) أي مسلوب العقل ذاهبه

وقالت له هلمّ فارتعوا واصبر حتى تنتأر ما تنادك[١] رأيت من نفوره واحتجازه كأنه يقول لك ويحك وهل للبطن كبرياء وهو ستار على أقذار ؛ وهل يسع كل هذا وماهو بالعريض الطويل ؛ ولا سلامة له إلا بالقليل لأنه قليل؛وهل تحتمل ما في العنقود حبة واحدة ؛ويحتمل الغنى أن يكون في صندوقه الالهي[٢] حاجة زائدة ؛ ويبلغ الحمق من هذا الانسان أن يميت قلبه لأنه وجد النعش من المائدة ؛

وكذلك أعرف « الشيخ على » ، فهو لا يرى في الأشياء غير ما خصتها به الطبيعة ؛ ولا يرسل عليها إلا أشعة صافية من عينيه الضاحكتين لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاس القلب ؛ وما ثمّ غير الانقباض والنفور أو الاستئناس والانبساط ؛ فإما رآها قبيحة وإما رآها جميلة ؛ ومتى قسمت الأشياء عنده إلى قبيح وجميل فليس وراء هذين ثالث في التقسيم وليس إلا جميل جميل وقبيح قبيح ، فأما المأمول والمرغوب والمتنافس فيه والمتبرم به والمسخوط عليه ،

---

(١) أى السرة وماحولها وذلك من الشبع والكظة

(٢ كناية عن البطن ويقال الشبع مكسلة والبطنة تذهب الفطنة

وما جاءَ بالشِّقوَة وما جاءت به السعادَة، وَما كان مِنْ وَرَائه حَبَّذَا وليتَ وَما أعانت عليه لعلَّ وَعسَى ثمَّ كانَ وَأخوَاتُها وَإِنَّ وَبناتُها؛ ثمَّ أنا وَأنتَ وَهوَ؛ ثمَّ ما انعطف على هذا النحو أو انفرَعَ منهُ؛ فكلُّ ذلكَ تقسيم لاَ يفهمهُ شيخنا وما هو من جدِّه وَلاَ لعبه لأنَّ صفحةَ نفسه ليست كألوَاح الأطفال يُثبتُونَ فيها مَالاَ بُدَّ مِنْ مَحْوِه وَيَمْحونَ مَا يعودُونَ إلى إثباته ليتعرَّفوا مَا أصابوا مما أخطئوا وَليتَعلَّمُوا كيفَ ينبغي أَنْ يتعلموا .

وهلْ تجدأعزَّكَ الله فى هذَا الناس مَنْ يُحسن أن يُوَقِّرَكَ، إلاَّ وَهو يُحسنُ أنْ يُحقِّرك؛ وَمَنْ يعرفُ كيفَ يَشكركَ، إلاَّ وَهوَ يعرفُ كيفَ يَكفُرك؛ وَمَنْ يقول لك حفظكَ الله إلاَّ وَهوَ قادرٌ أن يقول أخزاك الله ؟ فالناس عبيدُ أهوائهم وأيما يكنْ محلُّك مِنْ هذه الأهواء فهناك محلُّ اللفظة التى أنتَ خليقٌ بها؛ وهناك يتلقَّاكَ ماأنتَ أهلُه أو ما يريدون أن تكون أهله؛ وليس فى الناس شىء يزيدك كمالاً مِنْ غير أنْ يزيدكَ نقصاً؛ حتى إيمانُكَ فانه كفرٌ عند قوم، وحتى عقلُك فإنه سَفهٌ لطائفة؛ وحتى فضلك فانه حسدٌ مِنْ جماعة؛ وحتى أدَبكَ فانه غيظٌ لفئة .

أما شيخُنا فقدْ مسحَ اللهُ نفسه ومسحَ ما به من الناس؛ فليس في صدره ولا في صدرِ أحد حسيكةٌ[١] عليه وهو أبداً في صمتٍ بليغ كصمتِ الطبيعة؛ وكأن فهمه شيء من هذا الصمت فلا يتصل بفهمه ولا يداخلُ فكرَه إلا الجمالُ والقبح؛ والطبيعةُ نفسُها تُخرج الجميلَ تفسيراً للقبيح ؛ وتُظهر القبيحَ تعليقاً على الجميل ؛ وكذلك الشيخ في إدراكه .

وأجملُ ما يرى من وجوه الحياة وجهُ السماء الصافية ، ووجهُ النهر الجارى ووجهُ الأرضِ المخضرَّة ، ووَجهُ الرَّجل الطيب ، ووَجهُ المرأة الجميلة . كلٌّ أولئك عنده سواءٌ فليس وجهٌ خيراً من وجه لأنه لا يُحسن أنْ يؤوِّل لغةَ الطبيعة فلا ريبةَ فيه ، ولا يتزيَّد في معانيها فلا كذبَ في حواسه ، ولا تخاطبه الطبيعة فيما توحى اليه إلاَّ بأسهل ألفاظها وأطهرها وبمقدارما خلقَ له إذْ لا ترَى فيه غيرَ تلك الحيوانية الضعيفة التي هيَ ضرورية لحيٍّ منقطع مثله، وما كانتْ لوثةُ عقله إلا فصلاً بينه وبين الإنسان في حيوانيته ؛ وإنَّ شرَّ ما تكون هذه الحيوانية حينَ تكون عقليةً محضةً وراءها عقلُ العالِم واختراع المخترع وفنٌّ المتفنن .

---

(١) أى عداوة وغيظ

و قد يكون « الشيخ على » رجلاً تعساً فى رأى الناس لأنه حيوانٌ ضعيفٌ وإنسانٌ أضعف ، ولكنها تعاسةٌ بالغةٌ فهى من تلك الآلام الحادةِ التى بالغت الطبيعة فى تكوينها لتخرج منها ذلك النوعَ الشديدَ الحادَّ الذى يسمونه اللذّة ، وربما كانت التعاسةُ السامية خيراً من سعادة سافلة .

إنّ المجنون لم يزلّ عن منهج الحياة بجنونه ولكنه يتّبع سنّةَ هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناسُ أو تواضعوا عليه ليرى فى كل شىء أثرَ جنونه ، فهو حيٌّ مع الأحياء يَبْدَ أنه يُشبه أن يكون تفسيراً للحياة الغامضة التى تَلُوذ بكل جانبٍ مهجورٍ على وجه الارض وبكل رأس تَحْسبه جانباً مهجورا لأن الناس لا يفهمونها ولا يتسعون لفهمها .

وهذا «الشيخ علي »رجل غامض مُتَلفّفٌ بحقيقته العجيبةَ كدُهاة السياسة فى شباكهم التى يأخذون بها الأممَ والشعوب فلا تَبرحُ تَرْتبكُ فيها ارتباكَ الصيد فى الحبالة ؛ وأولئك الفلاسفةِ الذين يعيشون فى السُّحُب العاليةِ من فضائهم فيمطرون الكونَ مرة ويَرْجمونه مرة .... الى غيرهم من رَوَابى الخلَق (١) ومن كل رجل عظيم أَظلّه أحدُ الجناحين المنبسطين

---

(١) أى هاماتهم وعظمائهم جمع رابية لظهورهم وعلوهم

على الارض والسماء : جَناحِ الوحي أو جَناحِ التاريخ . ولكن « الشيخ » على غموضه من كل جهاته واضحٌ من جهةٍ واحدة هي جهةُ الجنون فى اصطلاحنا ، وتلك هي جهةُ الفضيلة الخالصة فيه إذ قَطعَت ما بينه وبين الرذيلة وجعلت له فى الناس رذيلةً مجنونةً مثله؛ فكانت سُبتُه أنه رجلٌ مُطْلَقٌ لا ينزل على حكمٍ ، ولا يتحمَّلُ على أمر ، ولا يُنازِعُ الى عادة معروفة ؛ بل هو قد نجا بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثَّابة التى لا يمسكها قيدٌ ولا يُخضعها زمام والتى هى فيه كما هي فى موجة البحر وعاصفة الريح ؛ فكل مخلوقٍ يَحجلُ فى الحياة لمكان القيود منه وهذا يُجمعُ الوثبةَ العاليةَ ثم يَثبُ مقبلاً ومدبرا ويتخطى مدَّ بصره فى الحياة كأنه بُراقُ الأنبياء . . . .

وليت شعرى هل يأملُ الناسُ أن يشهدوا الحقيقةَ مغلوبةً على أمرها، وما كانت الحقيقةُ أحدَ الخصمين قطّ الا كانت الهزيمةُ على الآخر ولو أن هذا الآخر عصرٌ من تاريخ الارض . ثم ماهى الحقيقةُ الا أن تكون عقلاً مطلقاً لا زيغ فيه، أو حقا مطلقا لا كذب فيه، أو يقيناً مطلقاً لا شك فيه؟

وهذا « الشيخ على » : أما عقله فعند الله ، وأما حقهٌ فقد أوجبهُ الله، وأما يقينهُ فلا يعلمه الا الله ، فكيف يُرى مغلوباً لاصطلاح أو عادةٍ وأكثرُهُ راسخ فى السماء ؟ إنه ليجوع

ويظمأُ ويَعرَى ولـكن كما يجوع الطير وتظمأُ الأرض ويعرى الشجر ، ليس من خَلةٍ الاوسبابها من رحمة الله ، فان تخلَّتْ عنه السماء مرة ، وقُطعتْ مَقاودُه من الغيب ، وخذلته الوسيلةُ ؛ فما تَغمزُ منه الحاجةُ الا حجراً صلداً يقع على أى جانب ترميه ثم لايقع الا حجراً . لأن آلام هـذا الرجل من الألم القفر الذى لا ينبتُ فيه شىء من الخوف ، ولا يهتدى اليه وَهمٌ من الحياة ، ولا يَجرى فيه للدمع ، ولا ظلّ للحسرة ؛ وهو ألم إن أفضى الى الموت أفضى اليه برجل لايعرف الموتَ ما هو ؛ وان أبقى على الحياة أبقى عليها فى رجل عرفت الحياةُ من هو . . .

رجل حطَّ الله أوْزَارَه وكتبَ عليه أن يكون فقيراً من المـال وحبِّ المال وذُلِّ المال ، فخرج وليس له فى أفئدة الناس الا الرأفةُ والحنان ، وجاء وليس له من الناس حاسدٌ أو عدو ، وخَلقَ ذا حدَّين من نفسه الماضية لايكتنفه ذُلٌّ أو همٌّ الا قطعهما وانطلق كالفرسِ العتيقِ فى مَيعةِ حضْرِه (١) ، وماذا يبغضُ الناسُ منه وما ذا يعادون وهو فى ذلك البحرِ زورقٌ قد سقط مجذافه فليس له ما يَضرِبُ به وما يسخِّر به وانما تدافعه رحمةُ الله حيث اندفع ، والبحرُ لايعادى الزورقَ الذى يجرى فوقه ولـكن يُعادى المجذافَ الذى يُديره ههنا وههنا .

---

(١) أى فى أول نشـاطه وجريه

رجلٌ كأنه قطعةٌ من الأبد لا أمسَ له يتعقّبه، ولا غدَ له يترقّبه، بل الحياةُ عنده يقظةٌ طويلة والموتُ نومٌ أطول.

«والشيخ علي» متى أحسّ الجوعَ ولج البابَ الذي يصيبه مفتوحاً فلا يقعُ على الناس الا متطرّئاً، وهو مع ذاك لا يحطّ في الطعام ولكن يَخْطُ فيه خطا (١) وماهو الا أن يستقرّ شيء في جوفه مما يقيم صُلبه حتى يَنفرَ نفورَ الطائر لا يرى الا أنه قد استوفى حقّ طبيعته من خادم طبيعيّ . . . . فلا جزاءً ولا شكورا؛ ولهذا لا يبرحُ أبدا على الحد الذي يصاحبه لنفسه فلا يتجاوزه، وأعجب ما يروعني من فضيلته أن هذا الحدّ عينه هو الذي لا يفسد ما بينه وبين الناس

وهو اذا تكلم فانما يترمرم (٢) من طول السكوت فإما أن يغمغم حروفاً وأصواتاً وإما أن يلوث بعض كلمات غير مفهومة كأنه يسرّها في أذن الدهر الذي لم يفهمه . ولكن لهذا الرجل كلمةً في الشتاء وكلمةً في الصيف . . فأما الأولى فأن يسأل دِثاراً يستدفع به أذى البرد ولا معنى لكلمة (هات) عنده غير هذه الضرورة؛ وأما الثانية فان يهبَ الدثارَ لغيره ولا معنى

---

(١) المتطرئ الذي يأتي من غير دعاء، وحط في الطعام أكثر منه وخط بالخاء اذا نال شيئاً يسيرا (٢) يقال كان ساكتاً فترمرم أي حرك فاه

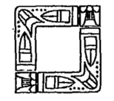
لكلمة (خذ) عنده غيرُ هذا الاستغناء ، على أنك واجدٌ أكثرَ ما فى هذا العالَم من شر وفسادٍ انما يَرتَطِمُ فى هذين الحرفين (هات وخذ) .

هذا هو « الشيخ علي » رأيته فرأيتُ فى بُرْدِه ثورةً على العالَم الانسانى ، وعرفته فأصبت فى ضميره قطعةً مجهولة من هذه المسكونة ، واستجليتُ نفسَهُ فاذا هو أُفُقٌ فوق الأرض ، وطالعتُه فكأنى رأيت فى جملته النقطةَ الأرضيةَ التى يبدأ من ورائها ارتفاعُ السماء ، وَبَاْوتُه فاذا هو حصَاةٌ تحت ضِرْس الدنيا والناسُ هنَالِكَ يُمْضَغُون . فلم أملك أن غمَسْتُ قلمي من نظراته فى مجرى من أشعة الوحي ، ووضعتُ الاعتبارَ من هذا الرجلِ وحقيقتِه على ماعرفتُ من الناس وحقائقهم فخرجتْ لى من المقابلة هـذه الصفحات ، ولذا كان القول فى « المساكين » ما « قال الشيخ علي » .

على أنى إن كنتُ لم أُحسن وصفَ الرجل أو كنتُ لم أَبلُغْ فى وصفه ، فذاك لأن هذه الحقيقةَ فى هذا القلم كالثمرِ الحُلْوِ فى العُودِ المرّ ؛ والرجلُ مما أنضَجَه القَدَرُ وحدهُ وليس لنـا من حقيقته الغامضـة الا الصفـاتُ التى تثبتُ أنها غامضة .

وهل فى الحياة أشدُّ غموضاً من رجل يَرى أو كأنه يَرى

أن كل نعمة لم يَنَلْها فهى مصيبةٌ لم تَنَلْه ؛ وكلُّ مايعرفه من هذه الدنيا أَنه يعرفُ كيف يتركُها مطمئنًّا وعلى شفتيه من الابتسام تحيةُ السماء لاستقباله ؛ ومتى هو فارقها انكشفَ موتُه عن حياته ، وصرَّحتْ هذه الحياةُ عن ضميره ، وخَلُصَتْ من هذا الضمير كلمةٌ هى معنى الرجل الذى انطوى عليه ، وكانت هذه الكلمةُ هى الحمدُ لله ؟



الفصل الثاني

في وحي الروح (١)

التراب المتكلم أمام التراب الصامت

تُرى أيهما هو الصدقُ في حقيقته ، ما نفرحُ به أو ما نحزنُ له ؟ أما إن في الحياة مِلحاً وإن في الحياة حُلواً وكلاهما نقيضٌ فليس منهما شيءٌ الاّ هو ردٌّ للآخر او اعتراضٌ فيه او خلافٌ عليه ، وتجدهما اثنين وهما واحدٌ في اثنين

فأنت تُؤْتى الحلوَ تسيغُهُ وتستعذبُهُ فاذا هو بك في المِلح تمُجُّهُ وتغَصُّ به ، ثم لا تضَعُ من أمرٍ على أحسنه في صورةٍ الاّ رأيتَهُ على أقبحه في صورة اخرى

والانسانُ من الهمّ في عمُر دهرٍ لا يموت ، ومن السرور في عمر لحظة تشبُّ وتهرَمُ وتموتُ في ساعات ؛ والحيُّ كأنهُ من هذه الدنيا فرخٌ في بيضةٍ مُلئتْ لهُ وخُتِمتْ عليه فلن يزيد فيها غيرُ خالقها وخالقُها لن يزيد فيها

---

(١) روح اخي محمد كامل بك الرافعي وقد انتقل الى ربه في شهر يونيو من سنة ١٩٢٨ رحمه الله . وهذا الفصل مما زدناه في هذه الطبعة الثانية من المساكين اذ هو من مادة الكتاب وعلى نسقه ونهجه

ومن الصحة والمرض ، ومما سرّ وساءَ ، وما شدّ وهدّ ؛ ومن العقل العجيب الذى يحكم من الانسان تركيباً عصبيّاً مجنوناً ثائراً قد استبانتْ فيه الحيوانية — من كل ذلك وما اليه مزيجٌ هو بقدرة الله أشبهُ ولكنه فوق ضعفنا وحيلتنا فان نرى منهُ فى الكون الاّ شكلَ الحَيْرة ومعناها والعذابَ بها والفرحَ بالغفلة عنها والسرورَ بإنكارها أو المكابرةِ فيها ؛ والحيرةُ لانفىٌ ولا إثبات ؛ ومتى يطالب الانسانُ الحقيقةَ وهو جزء منها لم يقف الاّ على جزء منها ؛ فالمشكلة متحركةٌ الى كل جهة حتى لاتذهبَ عنها لتنساها الاّ وانت ذاهبٌ بها لكيلا تنساها

أمَا إن فى الحياة ملْحاً وان فى الحياة حلْواً وكلاهما نقيض ؛ فالصّريحُ أن يختلَقَ منهما المستحيلُ وهو الملح الحلو . . . . فان لم يمكن ، فالممكنُ من الحقيقة للانسان أَن يستحيلَ الانسانُ فيموت

* * *

تُرى أيهما الذى هو الكذبُ فى نفسه ؛ الموتُ أم الحياة ؟ إنهُ الجنينُ فالوليدُ ثم الميتُ لا محالةَ بعد أَن يُسرِعَ الأجلُ او يتراخى . لا يَتَقارُّ جنينٌ فى ذاته الدَموية من الأحشاء ؛ ولا يثبتُ وليدٌ فى ذاته اللحمية من المهد ؛ ولا يُتركُ شابٌ فى ذاته العظميّة للحياة ، ولا يقفُ شيخ فى ذاته الجلدية دون القبر . مِن عقدة الثمرة الى لبّها الى شحمتها الى قشرتها على ناموس القضاء

والقدر فى باب الحتم المقضى من كتاب السماء ؛ وعلى ناموس النشوء والارتقاء فى باب الهذيان العلمي من كتاب الارض . . . .

وكما تكون تحت الوسائد كنوز أحلام الليالى ، تكون فى هذه الحياة أحلام الكنوز الخالدة التى يملأ الارض كلها ضوء لؤلؤة واحدة منها

تطلع الشمس تلمع على الناس كأنها فص خاتم السماء تشير به أن تعالوا الى الكنز فى ضوء هذه الياقوتة الصغيرة

*

* *

الحواس زائغة متراجعة مقلوبة وهذا هو نظامها ونسقها واستواؤها ؛ فليس من أحد فى هذا الكون الموجود الا وهو ناظر الى كون غير موجود .

السماء سموات والأرض أرضون والأكوان عداد العقول وكل أمل فى رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقصها ويغير من الخليقة ويبدل ، وكل انسان فى كل يوم هو انسان يومه ذلك ، فكأن كل حي من كل حي غلطة . وآمالنا كأرقام الساعة هى اثنا عشر رقماً محدودة ولكنها فى كل دقيقة هى اثنا عشر رقماً فلن تنتهى

والحياة خداع وغرور ، وزيغ وخطأ ، وعمل وعبث ،

ولهوٌ ولَعِب، وَمَهْزَلةٌ وسُخرية، والناس كالأرقام تخط على هذا التراب ثم يقال للعاصفة : اجمعي واطرحي وحلّي المسئلة . . . . . .

***

وأين كلٌّ ماصبَّته الشمسُ والكواكبُ من نيرانها ، وما أخرجته فصولُ الأرض من وَشْيِها وألوانها ، وما هتفتْ به الطيرُ من أغاريدها وألحانِها ، وما تلاطمتْ بهِ الدنيا من أمواج إنسانها . أين ماصحّ وما فسد ، وما صدق او كذب ، وما ضرّ أو نفع ، وما علا أو نزل ؟ في كل لحظة تمتلىء هذه الدنيا لتفرغَ ثم تفرغُ لتمتلىء ، وماضيها ومستقبلُها مِطرقتان يَمرُّ بينهما كلُّ موجود لتحطيمه .

وكأن الحياة ليست اكثرَ من تجربة الحياة زَمناً يقصر أو يطول ؛ وما العجيبُ أن لاتُفلحَ التجربةُ في أحد ولكن العجيبَ أن لاتنقطعَ وهي لاتُفلح

والعالَم كالبحر من السَّراب يموجُ بهِ أديمُ الارض بما رَحُبَتْ ثم لاتملأ أمواجهُ ملعقة ؛ والحقيقة في كل شيءٍ لاتزال تفرُّ من تحليل الى تركيب ومن تركيب الى تحليل ، لأن شعورَ أهل الزمن بالزمن لايحتمل المعنى الخالد

ولعل سبب الموت أنك لاتجد إنساناً يعيش في حقيقتهِ الانسانية ،

فلاهذه الحقيقة يُسِّرتْ لهُ كاملةَ ولا هو خُلق لها كاملاً ؛ وفي الانسان كالطبيعة أرضٌ وسماءٌ فترابهُ لايتغشَّاهُ مما فوقه غيرُ الظل ، وقد خُلق مقسوماً ، فشُقَّةٌ منه في أرضه وشُقَّةٌ في سمائه ، فاذا حضرهُ الموتُ ضربَ الضربةَ بين هاتين فاخذت السماءُ السماءَ وجذبتْ الأرضُ الأرض

هنالك البرقُ الالهيّ ملء الكون يلتمعُ ويخطفُ ولكنهُ من الانسان كشُعلة تتوهَّجُ في غرفةٍ أرضُها وسقفُها وحيطانها من المرايا وليس في هذه الغرفة الاَّ هذا الضوءُ ورجلٌ أعمى .

فلا سخريةَ ولا ضلالةَ ولا عبثَ ولا خداعَ الاَّ في أُسلوبنا الانسانيّ المبنيّ على حواسنا الزائغة كما تَنودُ (١) السفينةُ خفَّت على موج البحر وما عبثَ البحرُ بها ولكن يعبثُ بها وزنُها

*
* *

يريد الله أن نخلق لأنفسنا معنًى من السمع والبصر ليس في أُذُن ولا عين ، وأن نزيد في مجموعة أعصابنا الواهنة عصَباً عقليًّا يراهُ ويسمعهُ ويدركه ويؤمن به (٢)، فالايمانُ قوة جبّارة لاتجتمع الاَّ من ردّ كل أطراف النفس المنتشرة (٣) الى عقدتها

---

(١) تنود تتمايل وتتحرك (٢) كأن الله تعالى يخلق الانسان و يودع فيه من سره ثم يقول له لست حيوانا فأكمل نفسك (٣) أطراف النفس كناية عن شهواتها

الروحية، وحبسها اكثرَ حواسِّها في حِسٍّ واحد عنيفٍ مؤلم، ووضعِ المَناعم المضنون بها في ذلك المعنى المفتوح المتهدِّم الذى لا يُمسك شيئاً وهو الزهد؛ وحصرِ الآلام الطاحنةِ في ذلك المعنى المطْبَقِ المتحجِّرِ الذى لا ينْفلتُ شيئاً وهو الصبر؛ وردِّ الأخلاقِ كلِّها الى ذلك العنصر الذى يُضيفُ معنى الحديد الى معنى اللحم والدم وهو الإرادة؛ وبعد ذلك كله وضعُ كل شيء انسانيّ في ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيله .

يا الهي ماأقواك وماأضعفنا . كأنك تقذفنا من السماء فنجهدُ من بعدُ أن نرتفع اليها بأنفسنا على أجنحة الاعمال التى تطير بجاذبية مما نُحب

لما خلقتَ الانسانَ عبداً على قَدرك صار إلهاً على قَدره ، فيجب في الحق أن تعذبهُ السماءُ اذا وَغلَ عليها طفيلياً بلا عمل ولا ثمن

النخلةُ السَّحوقُ نواةٌ مخزونةٌ في بَاحة ، والعالَمَ العظيمُ تركيبٌ مخبوءٌ في انسان ؛ فالانسان لنكده الطبيعي مُحيط بنواميسَ قاهرةٍ تحركهُ وتحيطُ به نواميس اخرى قاهرةٌ تتحركُ معهُ ؛ فمن ثمَّ لا يبرح يصطدم ولن يكون متَّجهاً أبداً الاَّ الى التحطيم . فاذا هو تورَّع وتحرَّج واستعْلى أمات من شهواته فأبطل مثلَ ذلك فيما حولهُ فكأن خروجه من بعض الدنيا هو

حقيقةُ وجوده فى بعض الدنيا . ومثلُ هذا حقيقٌ أن يقول : إنى أحكم العالم من داخلى

*

* *

تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ ، ان الشك فيك لهو اليقينُ على طريقةوالايمانَ بك هو اليقينُ على طريقةاخرى . المُقْعَدُ لايمشى والأعرجُ لايعدو والضعيفُ لايسبق العدَّاء ؛ فاذا انكر المقعدُ على من يراه يمشى ، والأعرجُ على من يُبصره يَعْدو ، والضعيفُ على من يعرفهُ قد سبق ، فما ذلك من إنكار العين ولا من مكابرة النفس وانما ذالك رأىٌ منظورٌ فيه الى حظ رجْلٍ مُهملَة او قَدَم مكسورة أو عَظْمٍ واهن . ومن ثمَّ لن يكون فى الناس مُلحِدٌ الاَّ وفى طباعه او أخلاقه او حوادث دنياه جهةٌ مريضة ينكسر عندها الرأى ويُبتَلى بها الحسُّ فهي تُوجِّههُ وتُصرِّفهُ منظوراً فيه الى شعور بعينه . وقد ينتحر الرجلُ من إعراض امرأة فنذا يقول إن النفس الانسانية فى وزن قُبلة ؟

فأَما الملحدُ بغيرعلة فهذا لايُوجدهُ أبٌ ولا تضعهُ أُمٌّ إذ يجب أن تكون طباعُهُ لهُ وحده وميراثُه منهُ وحده حتى يُصدِّق زعمُهُ أنهُ ألحد للبرهان وحده . فما يجحدُ الجاحدُ الاَّ ليجعل نفسَه فى الرفاهية من الأمروالنهي ويخرجَ بها من حكم الضرورة ؛ والايمان كله ضرورات مسلَّطة الحكم على مابين

المؤمن ونفسه وما بين المؤمن والناس وما بين المؤمن وربه حتى كأن فيه شيئاً يلذعه بالجمر فما يستريح من لذعة الاقدر ما يجم ليحتمل اللذعة بعدها

بالهي : انما يحبك المؤمنون ويكابدون فى رضاك على مقدار منك لا منهم . فانت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشعل البراكين ، وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة وتتركه فى الارض يشعر كأنما خر عليه سقف العالم

شبه خانها بصائرها ، وظلمات تنتهي بعد حين الى مد النهار الأكبر (١) ؛ ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخلق الجو الحساس الذى يبسط فيه الانسان جناحي روحه ويسمو بها على التراب والمادة

الجو الجو ، هذه تغريدة البلبل فى قفصه
الغذاء الغذاء . . . . وهذه قوقأة الدجاجة فى قفصها

*
* *

أيقيس الانسان نفسه على قياس من الطبيعة فى قوتها المتراكبة ، ومظهرها المسخر لكل مايتفق ، وتركيبها المبنى على سهولة الاحتمال ، ونظامها الميسر لعدم المبالاة ؟ ألا ما أحمق

---

(١) أى أعظم ضوئه فى لجة الضحى فذلك مده

الزهرةَ التى علمت أن الدَّوحةَ لاتقتلعها الاّ العاصفةُ العاتيةُ فقالت : الآنَ أهزأ بالنسيم ، ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقةً ورقة

كأنَّ الشكلَ الانسانى نقصٌ انسانيٌّ ، وكأنَّ الانسانَ لم يجيء الى الدنيا بأكله ، وكأنهُ ماخلق منهُ الاَّ قدرٌ ما لغرضٍ ما. كأنهُ تركيبٌ فى يد الصانع الاعظم ألقى منهُ جزءاً فى مِرجَلِ الفَلكِ الأرضيِّ ليغليَ قليلاً . . . ثم يتطاير ويجتمع فيتلقاه من بَعد

كأن هذا الانسان تحت هذه الضغطة فى هذه الفَوْرة فى هذا الفلكِ مادةٌ تُطعَمُ جوًّا لتتحولَ ولتتحولَ ليس غير . ألاَ ما أحمقهُ وهو فى المرجل على الوَقدْة الحامية اذا أبى أن يغلي . . . وما أسخفهُ وهو فى المصفاه تحت الضغطة الثقيلة اذا أبى ان يُعصرَ . . . وما أجهلهُ وهو فى الحياة الفانية اذا نَسِيَ أنهُ سيموت !

لاتغترّى أيتها الحبةُ الصغيرةُ المختبئةُ فى كُدْسةٍ من القمح تتحدّر فى ثُقب الرَّحَى ، ولا تحسبى أنك من لهوٍ ولعب تنبعثين هناك وهنا بين الحَبّ . إنك فى رفقٍ ولكنهُ رفقُ الحجرين الآكلين اللذين لايدَعان شيئاً ولا يفلتان شيئاً وانما يَرْفقان بك قليلاً قليلاً ليُجيدا طحنَك كثيراً كثيراً

*

* *

فتحنا القبر وصَرحنا للميت العزيز ، لم أقل إنهُ مات بل قات

إن موته قد مات ، كأن الحي على هذا الأرض هو القبرُ الانسانى لا الجسمُ الانسانى فانك لتجد قبوراً من الف سنة ولا تجدُ انساناً فى بعض عمرها ، أما ترى همومَ الدنيا وأحزانَها كيف لايخلو منها أحد وكيف تخرجُ من النعيم كما تخرجُ من البؤس؟ ما أحسبُها الاَّ صُوَراً من ظلمة القبر يجيء القبرُ فيها حيناً بعد حينٍ الى ميِّته الذى لم يمت

من يهربْ من شيء تركهُ وراءَهُ الاَّ القبر ، فما يهربُ أحد منهُ الاَّ وجدهُ أمامهُ . هو أبداً ينتظر غيرَ متململ وأنت ابداً متقدمٌ اليه غيرَ متراجع . وليس فى السماء عنوان لما لايتغير الاَّ اسمَ الله ، وليس فى الارض عنوان لما لايتغير الا اسمَ القبر

وأينما يذهب الانسانُ تلقَّتهُ أسئلة كثيرة : ما اسمُك ، ماصناعتك ، كم عمرُك ، كيف حالك ، ماذا عملك ، ما مذهبك ، ما دينك ، ماراْيك؟ . ثم يبطلُ هذا كلُّه عند القبر كما تبطل اللغاتُ البشرية كلُّها فى الفم الأخرس ؛ وهناك يتحرك اللسانُ الأزلىُّ بسؤال واحد للانسان : ما أعمالُك؟

أيها المتقاتلون على الدنيا والانسانُ الى حين ! ان تنازعَ البقاء مذهبٌ فلسفىٌّ بقرىٌّ لا إنسانى . . . . فانها الثيرانُ هى التى تجد من القوة أن تنتطحَ فى المجزرَة وتنسى لِمَ هى فى المجزرة

* * *

فتحنا القبرَ وأنزلنا الميتَ العزيزَ الذى شفىَ من مرض الحياة ووقفتُ هناك بل وقف الترابُ المتكلم يعقلُ عن التراب الصامت ويعرفُ منهُ أن العمر على ما يمتدُّ محدودٌ بلحظة ، وان القوة على ماتبلغُ محدودة بخمود ، وان الغايات على ماتتسع محدودةٌ بانقطاع ، وحتى القارّات الخمس محدودة بقبر .. .

ياعجباً ! القبورُ مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد . أيةُ ذرّة من التراب هى التى كانت نعمة ورَغداً وأيتها كانت بؤساً وشقاءً وأيتها التى كانت حبًّا ورحمة وأيتها كانت بغضاً وموجدَة ؟

سألتُ القبر أين المالُ والمتاعُ ، وأين الجمالُ والسحر ، وأين الصحة والقوة ، وأين المرض والضعف ، وأين القدرة والجبروت وأين الخنوعُ والذلة ؟ . قال كلُّ هذه صورٌ فكريةٌ لاتجىء الى هنا لانها لاتؤخذ من هنا . فلو أنهم أخذوا هدوءَ القبر لدنياهم وسلامَهُ لنزاعهم وسكونهُ لتعبهم لسخّروا الموت فيما سخّروه من نواميس السكون

إن هؤلاء الأحياءَ يحملون فى ذواتهم معانيَهم الميتة وكان يجب أن تُدفنَ وتَطْهرَ أنفسُهم منها ؛ فمعنى مافى الانسانية من شر هو معنى ما فى الناس من تعفن الطباع والاخلاق

يكذب أحدُهم على أخيه فيعطيه جيفةَ حقيقةٍ ميتة ؛ ويكيدُ

بعضهم لبعض فيتطاعمون من جيَف الحوادث المسمومة، ويمكر الخائن فاذا جيفة عملٍ صالح قد مات ؛ فكل مضغةٍ تبتلعها من حق أخيك الحي هي كمضغة تفتلذُها من لحمه وهو ميت لا تعطيك الا جيفة . ثم انت من بعدُ لست بها انسانا ولكنك وحش . . . بل وحشٌ دنيء ليست له فضيلة الوحشية التي من قوةٍ تأبى أن تمسّ لحومَ الموتى

* * *

واهاً لك أيها القبر . لاتزال تقول لكل انسان تعالَ . ولا تبرحُ كلُّ الطرق تُفضي اليك فلا يُقطَعُ بأحدٍ دونك ولا يرجع من طريقٍ راجع . وعندك وحدك المساواةُ فما أنزلوا قطّ فيك ملكاً عظامهُ من ذهب ، ولا بطلاً عضلاتهُ من حديد ، ولا أميراً جلدهُ من ديباج ، ولا وزيراً وجهه من حجر ، ولا غنيًّا جوفهُ خزانة ، ولا فقيراً عُلقت في أحشائه مخلاة

ألاَ ويحك أيها القبر لِمَ لا تأتي الاّ في الآخر ؟ ولم لا تضعُ حدودَ معانيك بين الأحياء بعضهم من بعض حتى يقومَ بين الضعفِ والقوة حدُّ المساواة ، وبين النفوس والشهوات حدُّ التقوى ، وبين الحرام والحلال حدُّ الله

ياشقاءَ أهلِ الارض ، أَمَا إنهم لو وُضعوا فيها موضعاً من العناية لما كان الإبهامُ في السريرة ولا كانت الغفلةُ في النفس

ولا كان النسيانُ في الطبع ، ولولا هذه الثلاثُ في هذه الثلاثة لما كان المجهولُ البشري كله في شيء واحد وهو القبر

* * *

إن أحزاننا وهمومَنا ودموعَنا هي كلُّ المحاولةِ الانسانيةِ العاجزةِ التي نُحاول بها أَن نكون في ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء . هم يأخذوننا اليهم اختلاجاً وانتزاعاً في هـذه الأحزان والهموم والدموع ؛ فكأنها أمكنة تخلَق من الأثير الروحيِّ وتتجسمُ من معانيها كي تَصلح أن يلتقَ فيها روحُ الحي وهو حيٌّ بروح الميت وهو ميت ، كما يتلاقى روحا الحبيبين في قبلتهما أولَ مرة اذ يَخلقُ قلباهما لهذا اللقاء جوًّا أثيريا من الزفرات واللّوعات بين الشفاه المتلامسة

او لعلَّ الموتَ كما يجردُ الحيَّ من روحه ينتزعُ من أهله شهواتِ أرواحهم فيميتهم مدةً من الزمن في القلب وفي العين وفي الفكر . وبذلك يردُّ جميعَ المحزونين الى المساواة فأهلُ كلِّ ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل . وتموت بالموت الفروقُ الانسانية في المال والجاهِ والقوةِ والجمال ، حتى لايبقى الاّ الدمعةُ واللوعةُ والحسرةُ والزفرةُ وهـذه هي أمـلاك الانسانية المسكينة

ياهمَّ من يُحسُّ ويعرفُ ويرى كيف يموتُ العزيزُ عليه

وكيف يتحولُ من يحبه الى ذكرى. ان ما يعمَل في القبر يعمل قريبٌ منهُ في القلب

* * *

وما يعرفُ الحيُّ أن الذاكرة فيه هي حاسة اللانهاية (١) الاَّ حين يموت لهُ الميت العزيز فلا يكون في الدنيا وهو في ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها

وليس ينزلُ الحي من أمواته في القبر الاَّ من يقول لهْ إنني منتظرك الى ميعاد . أَما لو عقلها الاحياءُ لعرفوا ان الموت هو وحده ناموسُ ارتقاء الروح ما بقيت في الدنيا ؛ ولكن ضجيج الشهوات — على انهُ لايعاو رنة كأسٍ ولايغطّي همسة دينار ولا يُخفي ضحكة امرأة — يطمسُ على الكلمة الازلية التي فيها كلُّ قوة الصدق وكلُّ صراحة الحقيقة فاذا هي خافتةٌ لاتكاد تثبت غامضةٌ لاتكاد تبين

أذلك سحرُ الحياة فينا ، أم سوءُ استعدادنا لها ، أم شراهةُ الجسم من لذة الحياة لابتلاع كل ما في الكون منها ، أم حماقةُ الكأس التي تريد أن تغترفَ البحرَ لتكونَ لهْ شاطئين من الزجاج ؛ أم بلاهةُ الانسان الذي يريد ان يطوى فيه معنى الخالق ليكونَ اله نفسه ؟

---

(١) هذا رأى لنا فالذاكرة عندنا من الادلة على خلود الروح

ويحه من غريق أحمقَ يرى الشاطىءَ على بُعدٍ منه فيتمكّثُ في اللُّجة مرتقباً أن يسبح الشاطىء اليه . . . . ويثبتُ الشاطىء ويدعُ الاحمقَ تذوبُ ملحةُ روحِه في الماء

إسبحْ ويحك وانجُ فان روحَ الارض في ذراعيك ، وكل ضربة منهما ثمنُ ذرّةٍ من هذا الشاطىء . كذلك ساحلُ الخُلد يريد من الانسان الذى هو انسانٌ أن يبلغَ اليه مجاهداً لا مستريحاً ، عاملاً لا وادعاً ، يلْهَثُ تعَباً لا ضحِكاً ، ويَشْرَفُ بانفاسه لا بأَنفاسه ، ويَنضحُ من عرَق جهاده لا من عطرٍ لذاته

ان روح النعيم الارضى في ذراعي الغريق الذى يُجاهِدُ لينجو ، وروحَ النعيم الازليّ في ذراعي الحي الذى يجاهدُ ليفوز



الفصل الثالث

الفقر والفقير

قال « الشيخ على » : يابُنىَّ إن فى تاريخ الحياة سؤالاً لم تزل تُلقيه أَطماعُ الناس فى كل عصرٍ من عصورها وما إن تُصيبُ له جوابا مُقْنِعاً لأن الطمعَ ليست له طبيعةٌ محدودةٌ فهو يرمي بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جواباً عليه غيرَ محدود .

هذا السؤالُ واحدٌ من ثلاثة هى حقائقُ الانسانية الضَّالة عن الانسان نفسهِ فى غيب الله .

يقول الانسانُ ماهى الروحُ التى تُعطى الحياة ؛ وتقول آمالُه ماهو الموتُ الذى يستلبُ هذه الحياة ؛ وتقول أطماعُهُ وما هو الفقر الذى يَجْمعُ على الروح بين الموت والحياة ؟

كذلك نَتساءَل ماهو الفقر ؟ على أنه ماغيرَ الفقرِ ذلك السؤالُ الذى تجدُ فى كل نفس انسانية معنًى من جوابه ؛ ولاغيرَ الفقر ذلك القبرُ المعنوىُّ الذى لم يخلق الله نفساً من النفوس إلا ولها مَيِّتٌ من الأَمل فى ترابه ؛ بلى واذا كان فى لُغَاتِ الأَفواه لفظٌ خالدٌ فانما هو الفقر ، واذا كان فى هواجسِ القلوبِ معنًى خالدٌ فانما هو خوفُ الفقر ، واذا كان للدموع الانسانية مَصَبٌّ واحدٌ تلتقى اليه من جهات الأرض فانما هو بين شاطئين إن جاز

أن يكون أحدهما الحب فإن من المحقق أن أحدهما الفقر.

إن هذه الأرض لتصبح في كل يوم ولا يمكن أن يقال بحق إن فيها عملاً إنسانياً عاماً غير طلب المال، فأحر بها أن تمسي في كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانياً عاماً غير راجع الى الفقر. ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس، وهو قول فلكي أو سماوي يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله أو على الأقل كما خلقها؛ أما الحقيقة الأرضية فإنها تدور حول قرصين: قرص اللهب، وقرص الذهب، ويالله وللفقير! إنه دائماً في الجهة المظلمة . . . . .

الفقر متى ألقيته سؤالاً عاد اليك بجواب نفسه لأنه فصل من كل عمل كالشتاء فصل من كل سنة. وليس في الناس جميعاً من يصدق اذا ادعى أنه لا يعرف الفقر غير اثنين لا خير فيهما: غني جن من فرط الغنى، وفقير جن من فرط الفقر. فالأول لا يعرف هذا الفقر في جنونه لأنه جن بغيره، والثاني لا يعرفه لأنه جن به. ولكن من هو الفقير؟

من هو هذا الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه. وأينما يولّ وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلووا رءوسهم، وصعّروا خدودهم، وأمالوا أعناقهم، حتى كأن كل رأس في التواء عنقه من الأنفة والاستكبار، يمثل

علامةَ استفهام أقامتها الحياةُ في وجه هذا المسكين أو يُقيمُ علامةَ إنكار . . . ؟

من هو هذا الحيّ الذي تنكّرتْ له الدنيا حتى أَصبح فيها كأنه نوعٌ شاذٌّ من الخَلْق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة ، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنىّ ؛ فقضت عليه شرائعُ الاجتماع أن يُنفقَ من حياته أَضعافَ ما يَكْسِبُ لحياته ؛ فهو اذا كَدَحَ في العملِ طوالَ يومه ، فَقُوتُ هذا اليوم عليه كثير ؛ واذا لم يجد ما يَطعمه الجوعَ فأَطعمه من جسمه ، فذلك عليه يسير ؛ واذا سال في الشمسِ وجمد في البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأَنه فقير . . . ؟

ومن عسى أن يكون هذا القوىّ الذي يَخْتَصِمُه الاجتماعَ كلُّه ويخشى أن يرتفع فيكونَ « قاضياً » عليه ، ويأخذه اليومَ بالجناية وهو الذي أوحاها بالأمس اليه ؛ ومن هذا الذي يرى المجتمع أنه اذا قُدِّر للشريعة أن تُلْحِدَ في قبر فلن تدفَن الا في هاوية من مَطَامعه ، واذا حَكَمَ الله على عصرٍ من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بِجِذْعِها وحِبالِها إلا من ذراعيه وأصابعه . . . ؟ (١)

---

(١) كذلك وقع في روسيا البلشفية وسيقع في غيرها وغيرها . ومتى لم يؤمن الغنى كفر الفقر . . .

من هو الذى يجفُّ ريقُ الأرض لو جفَّ عرقه من ترك العمل ، ويخيب أمله مع ذلك فى كل غنىّ وهو نفسه للأغنياء أكبر أسباب الأمل ؛ يدلُّون عليه بالغنى ولولا أن فى فضّتهم عنصرا من دمعه القيِّم لما وجدوا لها قيمة ، ولو لم يكن فى ذهبهم روحٌ من دمه الكريم لما عدَّ أفضل المعادن الكريمة ؟

قال « الشيخ علي » : ذلك يابنىَّ هو المدْرَج فى أكفان النسيان ، الذى ليس له فى الناس الا « منكَر ونكير » ؛ ذلك هو البائس فى بنى الانسان ، الذى يكثر عليه القليل ويقلُّ منه الكثير ؛ ذلك هو المتناقض فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغيرٌ ولا يكبر أن يقال فيه كبير ؛ ذلك هو الذى يشبه أن يكون عمله حركةَ فلكيَّةً فى الأرض لآلة الغنى . ذلك كلُّه هو الفقير .

وياللهِ ما تحمل الأرضُ إنساناً واحداً لا يخشى عادِيَةَ الفقر ، ولا يتعوَّذ بالله منه ، ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة قبل الآخرة . يقوم الفقير بين حسابها ، وعذابها ، ويستعيذ برحيمها ، من جحيمها ؛ ويفرُّ من أمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التى تؤويه ؛ ويضع فى ميزانها المنصوب آماله ، فلا يزن الا أعماله ويستصرخ كلَّ من يمرُّ به فلا يسمع الا قائلاً يقول نفسى نفسى . . فينظر فاذا هو فى الناس ضائع حتى لا يعرف له محلاً ، ومنفردٌ

حتى لا يجدْ بينهم لشخصه ظلاً ؛ واذا هو بالسماء وقد التهبت بأقدارها حتى كأنها في عينه جمرةٌ من البرقِ الخاطف، واذا الأرضُ قد ثارتْ بأهلها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ عاصف ؛ فإن أقبلَ على الناس فرّوا من أماكنهم كأنه زلزلةٌ تمشى وان استصرخهم نفروا كأن في صوته فزعَ الرعدِ القاصف .

يالله ماتحملُ الأرضُ الامن يعرفُ هذا كلَّه من الفقر بل أشدَّ منه ثم يبقى الفقيرُ ويالهفَ أرضى وسمائي عليه — كأنه مسئلةٌ في حساب الناس لاهمَّ لهم فيها الا كثرةُ الطرحِ والضربِ ثم الغلطُ في النتيجة . . ! . و تنحازُ طبائعُ الناس كلُّها في جهةٍ والفقرُ وحده في جهة حتى لا يرى هذا المسكينُ في العالمَ على سعتهِ غيرَ اثنين ؟ هو واستبدادُ الغنَى ؟

ترى أين تكونُ شرائعُ الآداب إذن ؟ هل هي في ضمائرنا أم هي في كتبها أم هي في تاريخها الميت القديم ؛ أم صار الحق كلُّه إنسانياً بحتاً لى عليك ولك علىّ وليس لله علينا شيء ؛ و فصلنا أنفسنا من السماء وقطعنا الروابط التى كانت تربطنا بها ونبذناها فرثَّتْ ثم رثَّتْ فاذا هى على أجسام الفقراء تلك الأسمالُ البالية ؟

إن هذه الحقوقَ متى أصبحت انسانيةً محضةً ليس فيها لله شيء فكلُّ درهمٍ يوضعُ في يد الانسانِ يجعلُ فيها

عقلاً يحكم على عقله، وكلُّ رغيف يستقرُّ في معدته يخلق فيها ضميراً يستبدُّ بضميره؛ فينفصل الانسان من الله ويبتعد عنه بمقدار مايقرب من الغنى. وحسبُه يومئذ في اعتباره بعيداً جدًّا عن الله ورحمته أن يقال أن بينه وبين ربه مسافة ألف دينار . . . ذلك بأن عدلَ الله يقضي أن يكون للفقير قسْمُهُ من الثروة وانما الجزءُ المهمُّ من هذه الثروة هو الإحساس في ضمائر الأغنياء

والأدلة على هذه القضية (قضية الحقوق الانسانية) كثيرة تفوتُ الحصر، لأن كل صاحب رباً قد جمع ماله من السُّحْت ومن استشْكال الناس إنما هو في نفسه دليلٌ عليها . ولعمري إنه ليس أحدٌ أخيبَ رجاءً ولا أحقَّ بأن يخيب ممن يسأل المتهالكَ على الربا الذي يستَنْبِت دراهمَه بين الأحزان والدموع إحساناً لوجه الله، فان هذا الذي لايعرفُ اللهَ فيما يأخذ كيف يعرفُ اللهَ فيما يعطي؟ (١)

---

(١) لسنا نرى فى الربا خيراً اجتماعياً خالصاً ولا نفعاً إنسانيا صحيحاً على الاطلاق وما هو الا محق الله للانسان ومحق الانسان لنفسه . ولكن كثيراً من الرذائل الانسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله فى شرائع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرائع فاستكان اليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم . . . . ولعل حكمة تحريم الربا في الاسلام أنه فى الاكثر أكل لبقية الفقير وانتفاع باضطراره وارهاق له بمضاعفة الحاجة عليه وهي كلها ادوات قتل اجتماعى

قال « الشيخ علي » : ولماذا نرى يابنيَّ جُفَاةَ الأغنياء يَخشَوْنَ من الفقر على أنفسهم وأهليهم فقط ولا يخشون منه على الفقير ؟

أظنهم يقولون إن فى الأرض شيئين بمعنى واحد . قبورُ الأمواتِ فى بطنها وأكواخُ الفقراء على ظهرها . وليس من فَرْق بينهما فى النسيان لأنه يشملهما جميعاً وانما الفرقُ بينهما فى حاليهما المتناقضتين ، هذا قبرُ ميِّتٍ وهذا قبرُ حيٍّ . نعم صدَقوا وَبرُّوا وقالوا حقًّا ؛ أليسوا جُفاةَ القلوب غِلاظَ الأكباد ؟ والافما الفرقُ بين موتٍ مَنْسِيّ كموت الغريب وحياةٍ منسيةٍ كحياة الفقير الا على الفرق الذى لايبالى به هؤلاء الأغنياءُ حين يكون لأحدهم ظاهرٌ حيٌّ وضميرٌ ميّت ؟

وأحسَبُ أولئك الطُّغاةَ يقولون : إننا نرى الفقيرَ لايملك من الأرض شيئاً محدودا بل هو يملك أرضَ الله كلَّها بحدودها الأربعة . . . . ففقرُ فلان التاجر الغنيّ مثلاً ليس هو فى الحقيقة أن لايُصيبَ القُوتَ ولا يجدَ المأْوَى كغيره من الفقراء ؛ وانما هو المتاجرةُ فى الآمال ، بعد الأموال ، وقبض الريح . . . . بعد قبض الربح ؛ واستقبالُ الابواب والجدران ، بعد استقبال الاصحاب والجيران ؛ وهلمَّ من هذا الباب الذى يُفتحُ من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاثِ للحياة البائسة : وهي الفقر والمذلة والألم .

وانما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المالُ من يد أحدهم خرج اسمُهُ من أفواه الناس وخرج حبُّه من قلوبهم ، ويكون من أهل السعادة لو خرج هو أيضاً من الدنيا ....

قُتِلَ الانسانُ ما أَكْفَره : لو أن غنيًّا فقد جبلاً من الذهب وأصاب رغيفاً يَتَبَلَّغُ به لكان ذلك أيسرَ فى مذهب الانسانية من أن يذهبَ البائسُ المُعْدِمُ فيتكَفَّفَ الأبوابَ ويَسْتَكِفَّ الناسَ (١) ثم لايتخلَّصُ منهم رغيفاً يُمسِكُ به الرَمقَ على نفسه ويُقيم منه باباً حاجزا يمنع الجوعَ أن يدخلَ اليه الموتَ وأن يُخرج منه الروح . ولكن مصيبة الانسانية فى أهلها أن الله لم يخلق الا صنفاً واحداً من الناس على أن كلَّ إنسان يظن أنه ذلك الصنفُ الواحد .... فالغنىُّ اذا تصوَّر الفقر وهو لايزالُ فى غناه لايتوهَّم الا اختلالَ نظام الأقدار ، واضطرابَ حركتى الليل والنهار ، بعد أن يهوىَ كوكبُ سعده الذى يُمسِكُ من كل ذَرَّة فى أشعته دينار .... وهو لايرى بهذا الفقر الا أن نقمةً هابطة من السماء ولعنةً صاعدةً من الأرض قد التقتا عند رأسه الشامخ فى جوِّ كبريائه فاصطدمتا به فاذا هو مُكِبٌّ لليدين وللفمِ عند أقدام الناس واذا هو فقير .

---

(١) استكف مد كفه للسؤال وتكفف الابواب اذا وقف بها سائلا .

هذا هو الفقر في أوهامهم ولكن لاتنسَ أنه فقرهم فقط . . . فقرُ المال المتَرَابطِ في مكانه أو الذاهبِ في حلوق الأرض (١) وبين أضلاعها ؛ أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهل باطلٍ ودعوى ؛ يُزَنُّون بكل رِيبةٍ ويُقْرَفُون بكل تهمة (٢) إذ ينتحلون الفقرَ ويدّعونه ليعادُوا نعمةَ الغنيّ بالحسد ؛ فالجوعُ فقر ؛ والمرض فقر ؛ والتعبُ فقر ؛ والضجر فقر ؛ واشتهاءُ ماليس لهم فقر ؛ وقلةُ الأصحاب فقر ؛ وحتى لو أن أحدَهم سَخِطَتْه زوجُه لنسب ذلك الى الفقر ؛ وبالجملة فكونُهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر ؛ فاذا كان الفقر كلّ شيء عند هؤلاء الحمقى فما هو الشيء الذي يسمى الفقر ؟

من أجل ذلك يابنيّ ترى الاغنياءَ يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفسُهم لايخشون منه على الفقير ، لأن هذا الفقير في رأيهم قد أصبح شخصاً آخر لاصِلةَ لهم به ولا عهدَ فهو يكذبُ على الحوادث والحوادثُ تكذبُ عليه وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها . فاذا انخدعوا له فبمقدار مايتعجبون من سخافته ، وإذا أعطوه كان العطاءُ سخيفاً بمقدار ماينخدعون ؛ ولا ينظرون لأثر الله

---

(١) أى مضايقها ومجاريها وأوديتها والكناية بالاضلاع عما بقى من مسالك الامم (٢) يزن و يقرف بمعنى يرمى و يتهم

عليه ولكن لأثره على نفسه إذ الحقوق عندهم حقوق انسانية فهيهات يختلج في نفس أحدهم أن لو شاء الله لوضعه في ثياب هذا الفقير ولوضع الفقير في ثيابه .

أترد مثل هذا الغني الجلف المتسكع الى الدين ؟ انه هو في نفسه دين وشريعة أيضاً . . . أتبصره بالانسانية ؟ فمن هو إذن ويلك إن لم يكن من صميم هذه الانسانية وعين أهلها بل إنسان هذه العين . أما الحق فأذكر بربك أمواله تعلم أن «الحق في يده» . . . . هكذا هكذا يعطي المال أهله حتى فضائل غيرهم ويسلب الفقر أهله حتى محاسن أنفسهم . وهكذا لا تجد المال أبدا الا نعمة ناقصة ولن تتم هذه النعمة الا اذا رزق الانسان مع الغنى أخلاقاً تكفيه شر الغنى . ومن أجل هذا كان من الأمور الطبيعية أن تجد العقل في إنفاق المال أشد ارتباكا منه في جمع المال .(١)

قال « الشيخ علي » : ولابد من صلة معنويه بين جميع الناس على مايكون بين الانسان والانسان من التباين والاختلاف في كل شيء حتى بين الأخوين تلدهما الأم الواحده ، وهما مهما اتفقا في الحياة ومظاهرها فانهما لابد مفترقان افتراق

---

(١) ولهذا صار مبدأ حكماء الاغنياء ان يحسنوا بكل اموالهم على الانسانية ليخرجوا من الدنيا فقراء كما دخلوها

الشَّدْيين اللذين ارْتَضَعَا منهما الحياة . فما عسى أن تكون هذه الصلةُ العامةُ بين الناس ؟ تقول الشرائع إن الصلة التى تجمع الناس بعضَهم ببعض هي العدل ؛ وتقول العلومُ إنها العقل ؛ وتقول الآدابُ انها شيء من العدل والعقل يُكوِّنَ الانسانيةَ فى الضمير ؛ وتقول الحياة إنها سببُ الانسانية وهو الرحمة . ثم يرعَدُ صوتٌ الهيٌّ يقْصِفُ من جهة السماء التى هى مصدرُ العقل والعدل والانسانية والرحمة فيصيحُ بكل مافى هذه الأشياء من القوة ويقول كلاَّ ! بل هو سببُ الرحمة ومظهرُ الانسانية وكمالُ العقل وفضيلةُ العدل وهو الفقر .

من الذى وُلدَ وفى يده قطعة من الذهب . ومن الذى مات وفى يده «تحويلٌ» على الآخرة (١) ؟ لقد وَسِعَت الخرافاتُ كلَّ شىءالاهذا . فما لنا نتحدُ فى البَدْءِ والنهاية ثم نختلفُ فى الوسط ؟ ذلك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتَنا فى طريق الله ، ولكن الوسط مَدْرَجَةُ بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا ، وبكلمة واحدةٍ هو طريقُ بعضنا إلى بعض . . . . وحيثما التقى الانسانُ بالانسان فأما أن تلتقي المنفعةُ بالمنفعة والا فالمنفعةُ بالمضرة ؛ فلابد من انتفاع أحدهما أو كليهما . ومن ثَمَّ يقول البخلاء ما الذى ننتفع به من رحمة الفقير . وما له يريدأن يَتَحَيَّفَنا كأنه روحُ الجَدْب ،

---

(١) المعنى كما هو ظاهر تحويل واجب الدفع . . . . . .

وأن يتعرقنا كأنه روح المرض (١) وما له يريدنا على أن نسيء من أجله المس في أموالنا كأنه روح الافلاس ؟ أو لا يكفيه أننا لا نرزؤه شيئاً وأننا نفضل عليه فنعتد الدرهم الذى نمسكه عنه كأنه درهم أخذناه منه وبذلك لا يضرنا ولا تنفعه بشيء ، ومن الجهة الأخرى لهذا القياس يكون قد نفعنا ونفعناه بلا شيء . . . ؟

. قاتل الله البخل وقبحه فما هو الا حرص على المنفعة يشبه عبادة الوثنيين لكل ما توهموا فيه المنفعة ، وان كان للحواس نوع من الكفر بالله فكفر اليد في إمساكها . وإن الله لرحيم إذ لم يعاقب البخلاء بما يعاقبون به الناس فليس بين كل بخيل وبين الهلاك إلا أن ينقل الله « الامساك » من يده الى جوفه . . . .

على أن البخل إذا لم يكن بقية من الوثنية القديمة بعينها فهو على كل حال نقص من الايمان لأن الله وعد المحسنين والمتصدقين ثواب ما أنفقوا مكافأة على فضيلة الاحسان التى هي في الحقيقة فضيلة الاحساس ؛ ثم أن يخلف عليهم ما أنفقوا أضعافاً مضاعفة إذ المحسن لا يجود بدراهمه على الله ولكنه يقرضه إياها قرضاً حسناً متى وضعها في يد الانسانية الفقيرة . فمن أمسك عن الاحسان

(١) تعرقتهم السنة أى الجدب اذا نقصتهم وجارت عليهم وتعرق العظم اذا لم يبق عليه شيئاً من اللحم

بخلاً فإنما يشكُّ فى وعد الله ، وإلا ففى قدرة الله ، وإلا ففى الله نفسه ؛ فأكبرُ البخل عند أكبر الكفر وأصغرُهُ عند أصغره.

ويوم يخرج الإيمانُ من قلوب الأغنياء تخرج أرواحُ الفقراء من أجسامهم فيموتون بالجوع وبالعُرْى وبالمرض وغيرها من أسباب الموت وكلها مظاهرُ متعددةٌ لسبب واحد هو فى الحقيقة كفرُ الأغنياء كفراً فى الضمير لا كفراً فى اللسان.

ومن هنا يابنىّ لا تجد الفقير فى أى عصر من العصور إلا جهةً من الخلل فى نظام الاجتماع الانسانى كما أن البخلَ جهةٌ من الخلل فى نظام النفس الانسانية. والفراغُ الذى يجده الفقير فى بيته إنما هو موضعُ النعمة الضرورية التى بَخِل بها الغنىُّ وهو فى الحقيقة موضعُ التفككِ أو الكسرِ فى الآلة التى تديرها شريعةُ الاجتماع.

الانسانُ إنما خُلِقَ اجتماعياًّ وهو بشخصه لاقيمةَ له ولا منفعةَ إلا حيث يكونُ شخصُهُ جزءاً من مجموع ، لأن اليد الواحدة فى الجسم ولو كانت يَدَ مَلِكٍ وكان فيها زِمامُ العالمَ فإنها لا يفارقُها عيبُ أختها المقطوعة.

وكلُّ خلل فى النظام الاجتماعى فإنما مَرَدُّهُ إلى طُغيان بعض الأفراد وجُنوحهم إلى أن تكون شخصيةُ الواحد منهم من الكِبرَ والعَظَمة بحيث تُوازِن المجموع كلَّه أو أكثرَ

المجموع ؛ بَيْدَ أنَّ هذه الموازنةَ الفردية متى اتفقت كانت إخلالاً بالموازنة الاجتماعية لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلةً في المجموع كالثِّقْل في إحدى كفَّتي الميزان إن خفَّ سقطت الكِفَّةُ الأخرى وإن ثَقُلَ شالَتْ وهو السقوطُ الى فوق ...

والموازنةُ الاجتماعيةُ لاتتهيأ الا اذا تطبَّعَتْ قوى المجموع [١] فاندَفَقَت في تيار واحد الى جهة معينة . ولكن الموازنةَ الفردية لاتستقيم الا اذا جاءت من عكس هذه الجهة فتصدُّ قوةَ المجموع وتبقى دائماً ذاتَ قوة على صدِّها . ومن أراد الغَلَبة فان ضعفَ خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوةُ نفسه ، ولا يكون ضعفُ المجموع الا من حصر الشخص العظيم قوةَ عقله ونفسه وضميره في هذا السبيل الفرديِّ لتكون منه الشخصيةُ الهائلةُ التي تُشبه ما كان في تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة .

وقد اضطُرَّ الناسُ لذلك من عهد اجتماعهم على نظام أو شريعةٍ الى ابتداع الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع حتى لايَسْتَشْرِيَ الداء [٢] في الموازنةَ الاجتماعية فيفسدَها ويوقِعَ الخللَ في نظامها ، ولكيلاتكونَ خيراتُ المجموع كلُّها في مَعِدَة

(١) من قولهم تطبع النهر اذا اجتمع ماؤه وعلا فاندفق أو كاد

(٢) استشرى الداء اذا سرى في الجسم

واحدة ، وحتى لايبقى الناس أرقاماً يعدهم الغنىّ المستبد كما يعد دراهمه لأنهم ثروته الحية .

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تزل الى عهدنا عهد الاشتراكية العامية (١) الاثورات هى مهما كانت فانها أشبه شيء بجموح الحيوان إذ يحمى أنفه فيجمح ثم يسترسل فى جماحه ثم يشتد حتى يعتز صاحبه على رأسه ويملك نفسه منه ثم ماذا؟ ثم يسكن مكرهاً بعدأن جمح راضياً فان لم يسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه . لأن التخلص من شيء فى فطرة الانسان وانتزاعه من مغرزه فى نفسه لايكون بالتخلص من إنسان بعينه .

ومن هذا يابنىّ ترى أن الانسان لايعيش فرداً ولكنه حين يموت يموت فردا. فاذا رأيت فقيراً منبوذاً من الاجتماع، منفرداً عنه لايساهمه في عمله وعيشه ، بل كأنه يعيش فى بقعة مجهولة من

(١) ليس فى الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة في الاسلام . وفى هذا الدين الاسلامى العظيم أصول انسانية عامة لا بد ان تتنبه لها الامم فتكون سبباً فى إقبالها عليه وظهوره على الدين كله ومن هذه الاصول الزكاة فلو انه اخذ ربع العشر (اثنان ونصف فى المئة) من ثروة العالم بأجمعه كل سنة وجعل فى مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا ولكن الاشتراكية تحاول محق الربا بمحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها

الحياة ، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعي .

هـهنا قاتلٌ ومقتول. لم يأخذ القاتلُ بحق من الحقوق ولا ثأر لنفسه ولا قتل بيده ، أما المقتولُ فانه لم يُقتَل في إثم اجترحه ولا هو جنى على نفسه الضعفَ الذي أرهقه وبلغ منه حتى جعل إهمالَ القويّ إياه كأنه حُكْمٌ عليه بالقتل . فترَى على من تكون هذه التَّبِعَة وهي بالتحقيق ليست على القويّ لقوته ولا على الضعيف لضعفه ؟

هناك اثنان رجلٌ في الماء وآخرُ على الشاطىء . فأما الذي في الماء فليس بينه وبين الموت غَرَقاً الا نَفَسٌ واحدٌ مُبتلٌّ يَنسَلُّ بالماء من حلقه الى رئتيه وهو يرى بعينه الموتَ دائباً في حَفْر قبره المائي فليس الموجُ الذي يَتَكفأُ به ويتناثر من حَوْلَيْهِ الا ماتُثيرُه يدُ جبَّار الموت من غبار ذلك القبرِ وتحثوه في وجهه بنَزَق وغضب . بعيدٌ عن الأحياء حتى بَعُد عن أن يكونَ له قبرٌ بينهم ؛ ولا صلَةَ بينه وبين الحياة الارضية الا نَظَراتُ ذلك الرجلِ القويّ الذي يتراءى في عين الغريق كأنه صخرةٌ راسيةٌ على الشاطىء لها قوةٌ وليس لها إرادة . ولكنَّ هذا الذي يشعر بصلابة الارض تحت قدميه ويُحسُّ القوةَ من يده وعضَلاته يشعر أيضاً بمعنى من الصلابة في قلبه ،وقلما جاء الى الشاطىء ليتنفَّسَ من تلك النَّسَمات التي يتنهَّد بها صدرُ السدء

فتكونُ أرواحا للأمواج تبعث فيها حركةَ الحياة . ماله ولهذا المنظر ؟ سَوَادٌ يطفو على الماء كأنه هنَةٌ من المتاع الخَلَق أو حذَاء قديمٌ أو ريشٌ تحسّر عن طائره (١) أو رأسُ رجل يغرق؛ وما دفعه بيده الى الماء فيكونَ حقًا عليه أن يَستَنقذه ، ولا كان الغَوْص من صناعته فيَحتَملَ فى إخراجه ليُخرجَ معه أجْرَ عمله ، وهو قوىٌ ولكنه قوىٌّ لنفسه لا للضعفاء ، وقد جاء ليُرَوِّحَ عن نفسه وإنقاذُ الغريق عملٌ آخر وربما أنشَبَه فى حلْقِ الموت. أَخذَ فيما جاء له وما زال يَموجُ فى جلده ويتنفّس ملءَ صدرِه من الهواء ومن زفرات الانسانية التى تنشقُ لها غيظاً ومن لعنات ذلك الغريق الذى بَدأت حياتُه تذوبُ كما يَنمَاثُ الملحُ فى الماء (٢) حتى آنَ له أن ينصرفَ وتركَ الرجلَ يغرق وهو يقول لابأس أن ينقصَ عددُ أهل الأرض واحداً فهم كثير . . .

تُرى على تكون هذه التَّبِعةُ أيضا

اذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا ذلك فانكم تستطيعون أن تُحقّقوه بدون أن تكونوا شُرْطَةً (٣) أو قضاةً أو أهلَ قانون أو رجالَ فلسفة ولكن بأن تكونوا من ذوى الانسانية فقط .

---

(١) أى سقط وتناثر (٢) انماث الملح في الماء ذاب

(٣) هم رجال البوليس والواحد شرطى

فان الانسانية لاترى فى الارض الا الضمائرَ وما هـذه الأجسامُ الا أدواتٌ صناعية ركّبت هذاالتركيبَ لتَصْلُح لحياة الضمير؛ فالرجلُ قد مضى بريً اليد ، بريً القوة ، بريً العقل ، إذ هو لم يقتل ، ولم يجن على القتيل ، ولم يَحتَلْ لقتله ؛ ولـكن الانسانية حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول : أيها الطيّبُ وأيها الـكريمُ وأيها الشقى وأيها السافلُ ، تصيح بضمير هذا الرجل قائلةً أيها القاتل !

اذا لم يُقِرَّ الأغنياءُ لأنفسهم بالضمائر ولم يُلحِقوا بها التَّبِعاتِ التى تناسبها فهل هم فى ذلك الا كالمجانين لا تقِرُّ لهم الشرائعُ بالعقول وتُخْليهم من تَبِعَةِ ما يجنون على العقلاء لأنهم مجانين . وكيف ترى ذلك الغنيَّ الفَظَّ الذى يَهِرُّ فى وجوه الفقراء ويُزَمْجِرُ عليهم كأنه يَنْبَحُهُم بلغة من لغة الـكلاب ... ولا يفتأ يَقذفُهم بالألفاظ الجاسيةِ المؤلمةِ - كما يقذفُ المجنونُ بالحجارة . . . واذا أعطاهم فانما يعْطيهم بقبضةٍ فارغة . . . وهو لايُوَقِّراً بدا الا من فوقه كأنه لايرى فى الدنيا كلّها أسفلَ من نفسه ... ولا يبالى الا من يطمعُ فيه كأنه جالسٌ فى (مكتب أحد المخدِّمين) . . . وقد تساوى فى الدناءة والـكلَفِ بالدنيا وقَذارة الطباع ظاهرُهُ وباطنُه كأن ضميره لبِسَه مقلوباً ... وصار أمرُ رضاه وغضبِهِ وإحساسِهِ وحياتِهِ موقوفاً على مايكونُ من أمر

المعاملات كأن أخلاقه ليست فى نفسه ولكنها فى أيدى الناس . أفليس مثل هذا الغني الدنيء رجلاً عاقلا ؟

بلى وانه لأعقلُ من كل من يمدحه ويزكّيه ولو كان هذا المُثني عليه أكبرَ علماء الاقتصاد ، ولكنه على ذلك مجنونُ الضمير بحيث لا يعقل الا بحواسّه .

ولو أنصفت القوانينُ لما لَبِست مثل هذه الحرية الانسانية على رذيلتها ولجعلت من نصوصها القاطعة ما يكْفَحُ مثلَ هذا الغنيّ (١) ويتلَقَّاهُ بلجامه لانه فى الحقيقة ليس رجلاً ولكنه دابَّة اجتماعية .

« قال الشيخ على » : ومن بديع حكمة الله أنه وضع للانسانية أصلاً من أصول نظامها فى ضمير الانسان فترك له أن يقترفَ ماشاء من الإثم والمُنْكَرِ ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة الخير والشر بحيث يكون له من الذّنب نفسِه العقاب على الذنب نفسه ، حتى إن شرّ المجرمين ليَستعينُ على مُقارَفة جُرْمه بإقناع الضمير بَديًّا (٢) وأَخذه بالحُجة من هواهُ فيُخْطِرْ فى نفسه ما يَنْزُو بها كالشجاعة والنَّخْوَة ، أو ما يتوهَّجُ بروح الغضب فى دمه

---

(١) كفح الدابة اذا تلقى فاها باللجام .

(٢) في بدء الامر

كالانتقام ونحوه ، أو ما يطمئنُّ له الضميرُ في معنى الجناية كمُدافعة الضرر وما اليه .

وبالجملة فان أول ظامه أن يعتقدَ ظلمَهُ عدلاً أو شبيهاً بالعدل حتى لايلتوىَ عليه أمرُ نفسه اذا خذَلَه ضميرُه فان اضطراب هذا الضمير يتصل اتصالَ الكهرباءِ بأيدى المجرمين فاذا هو فيها شلَل ، وبأرجلهم فاذا هو زَلَل ، وبنظامهم العصبىّ فاذا هو خَلل ، وبعقولهم فاذا هو المسُّ والخَبَل ، واذ لم يُفلح الجانى فى إقناع ضميره أو التّلبيس عليه تخلّص منه ففَصَلَ بينه وبين العقل بالسُّكْر وما هو فى حكمه حتى لا يَشْهدَ من أمره شيئاً . أفلا تجد فى تخدير أكثر المجرمين لضمائرهم ساعةَ الجناية دليلاً على أن الضمير الذى يشهدُ الذنبَ انما يتلقى العقابَ عليه . ولماذا تَدفعُ الجريمةُ الى الجريمة غالباً ؟ أليس ذلك لأنها انما تقتضى عقابها الطبيعى

ثم ماذا يكون بعد أن يضرب الشقىُّ تلك الحاسّةَ الروحية التى نسميها الضمير ويرميها بالشلل ؟ إنه ينحطُّ درجةً واحدة ولكنها درجةُ الضمير التى لو جازها الحيوان لصار انساناً ولو نزل عنها الانسانُ لعاد حيواناً ، فلا يبقى فيه من ثَمَّ الا الفطرةُ الحيوانيةُ التى تجعلُ عقلَ الحيوان مرة فى القوة ومرة فى الضّعف ، فان أَحسَّ القوةَ على خصمه كان العقلُ فى الظلم بكل ضُروبه وأشكاله وأَبى هذا العقلُ الحيوانيُّ أن

يترخص في شيء (١) هو من حقه بالقوة ، وان أحسّ من نفسه العجزَ والضعفَ ورأى أن لا قِبَل له بخصمه فكفى باتقاء الظلم عقلا ..

يابنيّ ! ان أفقر الفقراء ليس هو الذى لايجد غذاءَ بطنه ولكنه الذى لا يستطيع أن يجدغذاء شعوره ، فلا تحسبنّ أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادةً وراحةً لأن لذة المال لاتتجاوز الحواسّ الظاهرة. فهو يبتاع لها كلّ شيء مما تشتهى ولكنه لايستطيع أن ينيل القلبَ شيئاً الا اذا جاءه بالخير والفضيلة .

والغنيّ الذى يمنع الفقراءَ ماله قد يزيد فيه ولو حكماً بمقدار مايمنع ؛ بضعةَ دراهم أو بضعةَ دنانير ، ولكنه يزيد ضميره جفاءً بالقسوة والغلظة ونسيان الفضيلة . ولايزال على ذلك حتى يمرّ به يومٌ يفقدُ فيه ضميره كلّ شعور بالخير فيفقد معه كلّ شعور بلذة النفس التى هى أقربُ المعانى الى معنى السعادة .

ويومئذ لو اشترى كلّ لذات الدنيا بماله مازادته الا ألماً من الضجر وضجراً من الألم لأنه فقد قوةً من ضميره تقابل القوةَ التى يفقدها المريض من معدته . فلينظر الفقير الجائعُ وقد أخذه

---

(١) ترخص فى حقه اذا أخذ ما طف له ولم يستقص

كَلَبُ الجوعِ وَسَطَعَ في عينيه وَهَجُه ودارت به مَعِدَتُه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال — الى رجل غني مَمْعُود [1] في كفه معنى الحياة وفي جوفه معنى الموت ، وقد ابتاع مما تشتهيه معدةُ خياله التي لاتشبع لأنها لاتنالُ شيئاً ، وأَسْرَفَ بالمال فى ذلك حتى استجمع الكثيرَ الطيّب ، ثم انقلب الى داره بعينٍ من ذلك الذئب تكاد اشعتها تُنْضِج الغذاءَ من حرّ نظراتها اليه .

سلوا صاحبَنا الفقير يَقُلْ لكم أىُّ لذة ياقوم تكون فى غير هذا الطعام الذى يُقْتَلُ به داءُ البطن [2] وتَتَفَتَّق عليه الخواصرُ شبعاً وسِمْنةً ، وهل هذه الأرُوحُ مائدة من موائد الجنة فيها مما تشتهى الأنفُس وتَقَرُّ الأَعْيُن ؟ ثم سَلُوا المعودَ المسكينَ يقلْ لكم وهو صادق صِدْقاً يتمنىّ بما ملكت يداه من الدنيا لوأنه كَذِب . يقلْ لكم تالله ما أَجدُ فى هذا كله ولا فى بعضه من لذة ولاسعادة،ولو أَبحْتُه جوفى لكان الموتَ بعينه.

إذَنْ فلا بد فى كل شىء إنسانى من حقيقة باطنة فى نفس الانسان تعطيه بصحتها أومرضها قوةَ اللذة أو الألم ،وبهذا يقضِى العدلُ الآلهىُّ كلَّ ذِى حق حقَّه بالنَّصَفَةوالسَّوِيَّة لافرق

---

(١) مريض المعدة

(٢) داء البطن هو الجوع

بين الغنيّ في غناه وبين الفقير في فقره فلكل منهما لذة وألم. ولعلنا لو سألنا أغنى الناس عما هي لذة الغنى لرأيناه في حقيقة التعاسة النفسية كأفقر الناس اذا أجابنا عما هو ألمُ الفقر .

وقد فُطِر أكثرُ الخَلْق لطبيعة الخوف المتمكنة منهم على أن يتَّسعوا في فهم الآفات وحدها حتى صار الوهمُ الخيالي أكبرَ الآفات الحقيقية ؛ فالفقيرُ الذي لا يفهم حقيقةَ الفقر يتألَّم بإدراكٍ ووهمٍ وفلسفةٍ إذ يقيسُ حاضرَه على ماضيه وعلى ماضي غيره من الفقراء ، ويقيسُ مستقبلَه على حاضر الأَغنياء ومن في حكمهم فقط ؛ وبهذا يكون ألمه عملاً عقليًّا في شيء موهوم فما دام يتمنَّى أكثرَ مما يستحق فهو يتألم بأكثرَ مما يستحق . ولو تأمل الناسُ لرأوا أن نصفَ الفقر فقرٌ كاذب . فآهٍ لو كان مع ضعف الفقر قوة الإرادة ؛ إذن لو جد الحكماء في الأَرض شيئاً حقيقيًّا يسمونه الغنى

أيها الناس : ان الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده ورُبَّ غِنًى يزيد أهلَه بالحرص والدناءة فقرا . فانظروا فيهما بأفكار آلهية لا تطلبُ الا الفضيلة التي يمكن أن تكونَ بلا ثمن ولا يمكن أن يكون شيء ثمناً لها . انظروا إلى بعض الأَغنياء الذين تموت في قلوبهم كلُّ موعظةٍ إنسانية أو الهيةٍ فلا تُثْمِرُ شيئاً حتى اذا ماتوا نبتت كلُّها من تراب قبورهم

فأثرت لنفوس المساكين والفقراء عزاءً وسَلْوةً وموعظةً من زوال الدنيا . انظروا بعين الحقيقة التى تعطى هذه الطبيعةَ النظرَ فتعطيها محاسنُ الطبيعةِ الفكر .

أنظروا فى باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله، وبالحقيقة التى هى من نور الطبيعة ، فانكم لاترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر الا بمقدار شبرٍ واحد ؛ هو ملء هذه المعدة .



الفصل الرابع

(مسكينه مسكينه)

قال « الشيخ علي » : واسمع الآن يابنيّ ماأقصّ عليك فاني محدِّثُك بخبر ليتني ماعلمته بل ليتني إذ علمته ماوعيته ، وليتني إذ وعيته ماأثبتُّه ولا نفذتُ فيه كما نفذ فيّ .

ولكن الحياة كما تقضى علينا أن نشهد أموات الأحياء ونحملهم الى أبواب الآخرة من تلك الحفر ؛ تقضى علينا كذلك أن نشهد أحياء الأموات من أهل الرذائل ونحمل من أخبار ضمائرهم الميتة الى أبواب السماء فى أنفسنا .

فواهاً لك أيتها الحياة الدنيا . تقتلين بالشر وتجرحين بأخباره ولا تؤتين عسل الحكمة الا بعد لسع كثير . . . .

وقد علمنا أن كل شيء يسير فانما هو يذهب فى طريق يتهدّى أو يعتسف (١) ؛ وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد له طريقاً فى هذه الحياة الا من ضمائر أهل الخير ، وبهذا يضرب الشر أهله وغير أهله

(١) على هدى أوغيرهدى

كانت لنا يابنيَّ في هذه القرية النَّضِرَة فتاةٌ بائسةٌ ضاق بها العريضُ من هذا البَرّ فخرجت الى بعض المدن تَستَطعِمُ الحياةَ . فحدثتني أنها استضاقتْ حتى كأنما كانت تنفُذُ الى رزقها من شِقٍّ في صخرةٍ في غارٍ في جَبَل . ثم استضاقتْ فكأنما وَلجَتْ هذا الغَارَ فانحدرتْ تلك الصخرةُ فسَدَّتْ عليها فلا وراءَ ولا أَمامَ وأَعجزها حتى المَعَاشُ المُلفَّق (١)

وخرجتْ يوماً على الناس وكأَنها لقذارتها قطعةٌ من الحياة البالية مُدْرَجَةٌ في بعض الأَطمار ، أو رُوحٌ من الهواء بَرْثى ساكنةً في أرْدية من الغبار ؛ وما تُحصى العينُ تلك البُقَعَ المنتشِرَةَ في ثيابها ، كأنها أرقامٌ للفقر يعُدُّ بها ليالىَ عذابها ؛ وهي عَلِمَ الله بُقَعٍ ، أَشأمُ منها أَنها في رُقَعٍ ؛ وقد اغبرَّ شعرُها الفاحِمُ وتلبَّد ، فكأنهُ بعضُ ماوقع على رأسها من حظها الأَسود ؛ ولاح من تحتِهِ وجهٌ كالدينار الزائف في صُفْرته ورَدِّه ، وكالقَمَر المَمْحُوق في استطالته تحت الظلامِ ومَدِّه ؛ وهي فتاةٌ عليلةٌ قد أخذالسَّقامُ من حجمها ، كما أطفأَت الأَقدارُ من نجمها ؛ وخَفِيَ من المرض في صدرها ، أكثرُ مما خفي بين الناس من قدرها ؛ وما تعرفُ من أسماء الأَموات

---

(١) الذى يكون تلفيقاً من هنا وهنا فلا يستقيم ولا يطرد

والأحياء غيرَ أسماء أهلها ، ولا تملك من الارض كلِّها أكثرَ من غُبار نعلها ؛ وقد خرجت تتحامل فكلما خافتَتْ في مشيها قليلاً خافتِ العِثار ، فاستندت الى جدار ، فاذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ صورةَ البؤس ولكن في غير إطار (١)

وانها لتمشي وكأنْ ليس فيها دمٌ ينتهي الى قدميها فهي تجرهما جرًّا وتَقْتَلِعهُما بين الخُطوة والخُطوة وما تدرى من الألم أهما على الأرض أم في الارض تَسُوخان ؛ وقد تزَايلَتْ أعضاؤها فما تُحسُّ أن فيها حياةً متماسكة ؛ وهي ما فَتِئَتْ تحسبُ أن جسمها قد خُلِقَ نَعْشاً لقلبها فلا هذا القلبُ يحيا كما تحيا القلوبُ ولا ذلك الجسمُ ينمو كما تنمو الأجسام

وفي رأسها عقلٌ زاد فضلُ الله ورحمتهُ في جهةٍ منه ونَقَصَ عُنْفُ الناسِ وقسوتُهم من جهة أخرى ، فبينا هي على ذلك تحمدُ الله اذا هي مع ذلك تلعنُ الناس . وهي مرةً تنظر الى الحياة فترى كلَّ شيء في الحياة الا نفسَها ، ومرةً تنظر الى الموت فلا ترى في الموت شيئاً الا نفسَها ؛ ولم يكن يُمسِكُ روحَها بين الاثنين الا خيطان : أحدُهما من السماء وهو الأملُ في رحمة الله ، والآخرُ من الأرض وهو إشفاقُها على جدَّتها التي كانت تكدح

(١) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه ويسميه العامة (البرواز).

منذُ الصغرِ لقوتِها . تلك الجدّة الفانية التى كَبرتْ وبلغتْ من الكِبَرِ حتى حسبتْها الفتاةُ قد كَبُرتْ عن سن الموت...(١)

أما الآن فقد تبيَّن لها الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود وانصدعتْ حفرةُ جدّتها المسكينة ولم يبق لها الا رحمةُ الله .

قال « الشيخ علي » : وكان خروجُ هذه البائسة أَصيلَ يومٍ من أيام الصيف ، ذهبت فيه طاويةً على الجوع كما تغدو الطيور من وكناتِها(٢) وملء بطونها هواء ؛ غير أن الطيورَ تهزأ بالناس جميعاً وهى على ضعفها أقوى من الشرائع والقوانين إذ تنبعثُ وكأن كلّ طائر منها إرادةٌ متجسمةٌ تقذفُ بها السماءُ فما تبالى على أىّ أرضٍ تقعُ ومن أىّ حبّ تلتقط ، ولا تعرفُ الا أن هذا الانسانِ يعملُ على السُّخْرة ليُخرجَ لها من الارض رزقها رَغَداً .

أما الفتاةُ فكل الناس يهزأ بها وهى ترى كلّ انسان على مِلكه كأنهُ قانونٌ وُضع لعقابها اذا حدّثتْها النفسُ حديثاً فقد بلغتْ من الضعف والمرض والفاقة الى حالٍ لاتجعلُ يديها

---

(١) كبر بضم البـاء عظم وبكسرها طعن فى السن

(٢) الوكنـة كالوكن (بسكون الكاف) عش الطـائر

تصاحان لعمل غيرِ الأَخذ ، فان اختَلَستْ قيل سارقةٌ فعوقبتْ ، وان سأَلت قيل متشردةٌ فكذاك . وباليت في قلب هذا الانسان من معاني الصَّفح بعضَ ما في لسانه من ألفاظ القِصاص ، ولكنهُ حيوانٌ متكلم فتنصرفُ فطرتُه الحيوانية أكثرَ ما تنصرف الى لسانه كما تتمثَّلُ هذه الفطرةُ من سائر الحيوانات في حواسِّها التي تَبْطُشُ بها ؛ وكِلا النوعين سواءٌ في الافتراس والكَلَبِ والتوحُّش فما اللسانُ الا حاسةُ البطش العاقلة . . . . وقلَّما يؤذِي الانسانُ قبل أن يؤذيَ بهذا اللسان.

ولم ترَ المسكينة أَرْوَحَ لنفسها المكدودة من الانتحار وكأَنما يُخَالُ لها أن في الموت عيشاً ، فخرجت تمشي بين الناس الى قبرها كأَنها فيهم جِنَازَةٌ وهم يُشَيِّعونها . ولئن كانت لم يُسَرَّ بالحياة فلقد سرها أَن ترى تشييعَ جنازتها وهي حية تموتُ ولا أقول وهي حية تُرزق ، فان العلةَ النازلة بها قد أخذت عليها مذاهبَ الرزق حتى لم تترك لها في الناس « وجهاً » وقَبضتْ عنها الأَيدىَ الا تلك اليدَ الواحدة التي تأخذ دائما ولا تعطي أبدا وهي يدُ الموت.

وانها لَتَنْفَتِلُ وتلتوي على أَحشائها من رَجْفَةِ الجوع وما تأخذ عينُها من الناس الا من يَحمِلُ بطنَه حَمْلاً من شِبَع

وريّ ، فكان نظرُها الى الناس أمضَّ عليها من الفكر في نفسها وكأنها تُقتَلُ من جهتين .

وكذلك أخذتْ سَمْتَها الى طريق النهر وأمْضَتْ نيتَها على الموت غرَقاً لتموتَ نظيفةوتكونَ لنفسهاغاسلةً وتُرسلَ روحها المتألمةَ الى السماءفي دموع السماء

ومشت تتَساقَطُ كأَنَّ الجوعَ والمرضَ يهدمان منها في كل عثرةٍ رُكناً أو كأنه كتِب على كل بائس أن يموتَ في طريقه الى الموت . وهي تَنتهضُ من كل عثرة الى أشدَّ منها كما تتخطى العنكبوتُ في نسجها من خيطٍ واهنٍ يكاد ينقطع الى خيط أوهنَ منه . وقد اجتمعت روحُها في عينيها فهي تسيلُ على نَظَراتها الشاردة ،وكلما امتدَّ بها المسيرُ قصُرَتْ مسافة النظر حتى توهمتْ أن الموت باديءٌ من عينيها . وانها لكذلك إذ لَمَحَها طفلٌ قَرَويٌّ قد انقلب من المدينة الى الضاحية التي غادر فيها أمه العمياءَ وكان يَعتملُ طِوالَ يومه في بعض المصانع وهو يحملُ طعامها الذى لم ينله الاَّ ببيع نفسه يوماً كاملاً . على أن المسكين لا يُحسُّ من الذل أنه اشترى نفسهُ بمقدار ما يُحس من العزَّة أنه ابتاع إداماً ورغيفين وقطعةً من الحلوى

قال الشيخ على : و بَصُرَ هذا الطفلُ بالفتاة وأدرك أن روحها تخطو في أنفاسها وأنهُ الجوعُ لاغيرُ وهو من أبنائه طالما

شدَّ عليه حتى انطوى ، ولانَ لغَمَزاتهِ حتى التوى ؛ وما يعرفُ أنَّهُ ابنُ أبيه وأمه ، أكثرَ مما يعرف أنه ابنُ فقرهِ وهمّه ، فابتدر (١) الى السكينة وكانت حركةُ الحياة فيها أسرعَ من حركة أضراسها فى طعامهِ ، ثم ذهب لا يعرفُ ماصنعَ لأنه طفل أو لأنه فقير ؟ لا أدرى

غير أنى أعرفُ أنه لا يَسلَم من لؤم النفس فى صنعة المعروف وتطويلِ المنّ به وتعريضِ الحديث فيه الا الأطفالُ والا الفقراءُ ، أولئك لأنهم لا يستكثرون الخيرَ وهؤلاء لأن الخير منهم غيرُ كثير

وانطلق الطفلُ وهو يلوى رأسهُ ويفكّر فى أىّ خدّيه تقعُ عليه اللطمةُ الأولى من أمه لأنها لامحالةَ متوعّرةٌ به (٢) ستحسبُهُ اقترفَ إثماً فطُردَ من عمله ، وانقطعت به طريقُ أمله ، والى أن يأتىَ الله بالصباح الذى يُنير بُرهانَه ، ويُثبتُ لها إحسانَه ، يكونُ هذا الليل ، قد صبَّ عليه الوَيل ؛ وهكذا جعل يُشهدُ اللهَ على ماسيلقاهُ فى سبيل الخير بدلاً من أن يُشهدَ الناسَ على مالقي غيرهُ منه فى هذا السبيل من إحسانه وإيثارهِ . لأنه طفل أو لأنه فقير ؟ لا أدرى

---

(١) أى عجل اليها

(٢) اى متشددة في معاملته كما يقولون

أما الفتاةُ فأرسلت فى أَثرِه نظرةً حيةً ولم تَجْزِه غيرَها بل جعلت جزاءَ عمله من عملِه نفسِه لأَنَّ ثرثرةَ الفقراء فى الشكر على المعروف كهذيان الأَغنياء فى التَّبسُّط على المنِّ به، كلاهما لايكونُ الاّ من خُبْثٍ أو لؤم؛ وهي فتاةٌ أَقدمتْ على الموت ولم تُقْدِم على السرقة، وإنها لَتعلم أَن من أَحياها فكأَنما أحيا الناسَ جميعاً ولكنها رأت الطفل غيرُ أهل لأن يعرفَ موقعَ إحسانهِ من نفسها. لأنه طفل أو لأنه فقير؟ لاأدرى

ولما أمسكتْ عليها النفسَ وراجعَت الحياةَ بدالها فيما اعتزمَتْه من الانتحار، فترددتْ وجعلت تُساوِرُها الظنونُ وخلق لها من مَعِدَتها عقلٌ جديد يُبصِّرُها فرقَ مابين الجوع والشِّبع؛ وكذلك تَعرِضُ لبعض الناس حالاتٌ من الحرص يعقلون فيها ببطونهم، حتى إن أحدهم لو تحسَّسَ رأسه وهو يفكِّر لحسبه بطناً صغيراً من العظم .... فأنشأَتِ الفتاةُ تستقيم على طريقها وهي تؤَامِرُ نَفْسَيْها على الحياة والموت وقد بدأت تهضم فى معدتها الطعامَ والعزيمةَ جميعاً ومات الذى كان بينها وبين الموت

وبينا هي تسيرُ نظرت فى عُرْضِ الطريق سيدةً لو لبس معنى الغنى لفظاً مالبسَ غيرَ اسمها، ولو كان للكبرياء رَسْمٌ

مارأيتَه عيرَ رسمِها ؛ وقد أورثها الغنى ذلك الغرُورَ بنفسها ، حتى توهَّمتْ أنها فى الأرض أختُ شمسِها ؛ وبلغت فى النعمة من الحمق والبَطَر ، بحيث جعلت نفسَها كالسماء متى تَعَبَّسَ وجهُها استهلَّت لَعنَاتُها كالمطر ؛ وهي من أولئك اللواتى يخرج الغنى معهنّ فى الطريق لاحارساً ولا مُنعماً ولكن للكَيْد والفتنة ، فتنةِ المساكين وكيدِ الحاسدين . فخرجت فى زينتها وكأنها حانوتُ جوهرى .... وهي نَصَفٌ (١) من النساء ولكنها تَتَصَابَى فكأن فى وَسَامَتها وابتسامتها شَبَابَ عشرِ فَتَيات جميلات .... وقد ذهبتْ فى أوضاع جسمها مذاهبَ هندسية بين المستديرِ والمستقيم والمنحني .... حتى ظهرت كأن نصفَها من الله ونصفَها من الخيَّاطة .... واذا رأيتَ جُملتَها رأيتَ روضةَ الجمال بألوانها وأزهارها ولكن . . مُصوَّره ، فاذا انتهيتَ الى وجهها رأيتَ للحسن هناك شهادةَ على الله ولكن . . مزَوَّرة .... وعلى الجملة فقد جعلها حسنُها المالىُّ فى رأى نفسها كالشرائع لاجدالَ فيها الاّ من زنديق....

ورأتها الفتاةُ كما تنظر المرأةُ الى المرأة بعين جامدة ليس فيها لغةٌ ولافلسفةٌ ولا شعر ، فقالت يالها سعادةً أن تكون هذه

---

(١) هى المرأة بين الحدثة والمسنة أو التى بلغت خمساً وأربعين أو خمسين سنة .

« العجوزُ » . . . لاتتقدم فى عمرها الى الأمام ولـكنها ترجع الى الوراء ، وأن تظهرَ بين الناس حسناءَ وان كانت من القبح بحيث ذهب نصفُ نهارها فى التحسُّن ، وأن لاتجـدَ من هموم الدنيا أكثرَ من همّ الالفاظ إن قال الناس غـيرُ حسناءَ أو قالوا غيرُها أحسنُ منها . وياله شقاءً أن تـكون هى كما هى وأكونَ أنا كما أنا .

ثم رمتْ بعينيها الى السماء وانحرفتْ تُواجهُ تلك السيدة ، فما تبيَّنتْها هذه وألمَّتْ بما فى نفسها حتى انقبضتْ كأنما أثارت الارضَ فى وجهها دابةٌ جامحة ، وجعلت تتحاماها وتَلوذُ ههنا وههنا وتَحْتَثُّ قدميها كأنها لقاءَ خطرٍ شديد . غير أن الفتاة ملأت عليها الطريقَ بحركاتها فكانت وَجْهَها (١) كيفما أمّتْ أوانحرفت يَمْنَةً أو يَسْرَةً وكأنما تُطاردُها مطاردة

فلما عيَّتْ السيدةُ بأمرها وغاظَ الفقرُ نعمتَها وهاج فُضُولُ الفتاةِ حنَقَها وكبرياءَها ، وقفت لها وقفةَ القضاء عابسة الوجه شامخةَ الأنف يكاد يَسْتَنْفِضُ الناسَ طرفُها(٢) وتكادُ تَمَيَّزُ منَ الغيظ ، وتدل هيئةُ وجهها على أن وراء شفتيها المرتجفتين كلماتٍ أحدّ من أنياب الوحش .

---

(١) أى أمامها وكيفما أمت أى استقامت

(٢) اذا رأوها أرعدوا من هيبتها

فلم تبال الفتاة وبقيت رئتاها واسعتين للهواء[١] إذ ليس بعد الفقر خوف، وَدَلَفت اليها باسطة اليد وهى تكاد تُزلِقُها ببصرها حتى اذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت :

سيدتى ! أدام الله نعمتَه عليك وهنأكِ هذه النعمةَ بدوامها

ـ هى دائمة وما أنت والنعمة ؟

سيدتى ! وقاكِ الله ما أنافيه من بأساء الحياة ولا كَتب عليك أن تعرفى ماهى .

ـ فلماذا أنت وأمثالُك فى الحياة إذن أيتها الحمقاء ؛ وهل يُكْتَبُ تاريخُ البؤس الا فى صفحة من مثل هذا الوجه ؟

سيدتى ألا مهلاً مهلاً وانظرى اليّ ينظر الله اليك

ـ قد نظر الله اليك من قبلي

سيدتي : هبينى خادماً أحسنتِ اليها

ـ فلتكونى خادماً طردتُها ان بلغتِ أن تكونى خادماً لمثلنا

ـ ياوَيْلتَا ! ألا رحمةٌ فى قلبك فتجودِى عليّ بما لا بأس عليك منه ؟

ـ ولماذا أُفضلكِ على سائر الفقراء ؟ ينبغى أن أجود عليهم

---

(١) إذا اشتدت الهيبة على انسان ضاق نفسه ولذلك يقال ارتفعت رئتاه الى حلقه كناية عن الهيبة .

جميعاً اذا أنا جُدتُ عليك ، ولو فعلتُ لطلبتُ بعد ذلك من يجود عليَّ

سيدتى ! ألاَ فاجعليني من نصيبك فى الاحسان وغيرى من الفقراء لهُ غيركِ من الأغنياء على المُوسِع قَدَرُه وعلى المُقْتِرِ قَدَرُه .

ـ إذاً فكونى أنت من نصيب غيرى ودعى غيركِ لى

سيدتى ! ليس فقرى عن خطاءٍ منى وليس غناكِ عن صواب منك وما الرزقُ ياسيدتى من فضل الحيلة

ـ وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفي من الخطاء ؟

ـ رُحْماكِ واتقى الله فى الانسانية فلعل فى قصرك الباذخ كابةً جعلتها أحسنَ حالاً منى

ـ حينما تصيرين مثلها فتعالَىْ الينا ويؤمئذ تعرفين كيف تُطْرَدُ الكلاب . . . . .

قال « الشيخ على » : فكَبُرَ ذلك على الفتاة وانتبهت فى نفسها فضيلةُ الفقر وحكمتُه ، فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة فى مرآة مقلوبة من مَرأى الانسانية مهما جَهَدَتْ أن تستقيم لها لم تزدها الا مَسْخاً . هنالك غابتها عيناها وانطلقت وراء دموعها ولم تجد لها عَزْماً

أما السيدةُ الكريمةُ ـ كما يقال ـ فابتلعت ما بقي فى فمها

من تلك الفلسفة وافترّ ثغرها قليلاً عن ابتسامة السخرية ، وسرّها أن يكون في لسانها كلُّ هذا المنطق . . . ثم أنْغَضَتْ رأسَها بكبرياء وقالت : « مِسكينة مسكينة » ومرّت بعد ذلك لا تَلْوِى وما يخطرُ لها الا أنَّها نَفَضَتْ نعلها . . .

وسمع الله قولها إذ تُجادلُ الفتاة وقد رَبَتْ في ثيابها من الغيظ وتَنَفَّشَتْ كالاسفنج فأطلق عليها دموعَ البائسة ؛ وإن هذه لتأنسُ راحةً في البكاء لم تعهدها من قبلُ فانْزَوَتْ الى جانب من الطريق وجعلت تبكي . ثم تبكي ثم تبكي حتى لو جُمعت دموعها لغمرت منها ؛ وقد جمعها الله وأرصدها من أقداره لتلك الاسفنجة وقضى ربُّك ألاَّ تُعْصَرَ بعد اليوم الا دموعاً (١)

*

* *

كانت للسيدة فتاةٌ كطاعة البدر في الرابعةَ عَشْرَةَ لا تَصِفُها الا مرآتُها وهي الدنيا مجموعةً في قصرها ، وكأنها في النعمة مستقبلُ نفسها وماضي أمها ، وكانت هذه السيدةُ عقيماً ولكن شذَّتْ معها الطبيعةُ لأَمر أراده الله فولدت لها الفتاة

(١) يحسب البخلاء من الاغنياء انهم حين يهينون فقيراً لا يهينون الا فقيراً ، ولا يدرون ان الله يمتحن بمن يحمل حكمته من يحمل نعمته . ولو عرفوها لصلح هؤلاء وهؤلاء فان الحكمة الآلهية في الفقراء نعمة في بعض أشكالها ، والنعمة الآلهية في الاغنياء حكمة في بعض أشكالها

وكأنما انشق لها القمر . ولم تذكرها فى نفسها اذ كانت تحاور تلك المسكينة بل ذكرت خادمتها وأنفت لهذه الذكرى . ومن شؤم الغنى على أهله أن لا يذكرهم فى الشر الا بأنفسهم ولا ينسيهم فى الخير الا أنفسهم ، فلا يعلمون أن الفقر أنواع كثيرة وأن الغنى نفسه نوع من الفقر الى الله . وبذلك ينظرون الى المساكين تلك النظرة التى لا تخلو من بعض معانى القضاء والقدر كأن الالوهية درجات جعلهم الغنى فى واحدة منها . فما ظنكم أيها الأغنياء برب العالمين ؟

وانكفأت السيدة الى قصرها فاذا فتاتها تنتفض من وعكة الحمى ، وهى فى سريرها كقلب أمها فى اضطرابه والتهابه ، وما تعلم من أين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم . ولئن كان البعوض مما يعد فى أسباب هذا المرض فلقد كان كلامها للفتاة ينفر منها كما ينفر البعوض من مستنقع .. فخرجت المرأة عن رشدها وضاقت عليها الأرض بما رحبت ولقد تكون المصيبة جنوناً وان لم يكن من أسمائها الجنون . على أنها لم تر ملجأ من الله الا اليه فابتدرت تدعوه وضرب الذهول بينها وبين اللغة ومسحت من وعيها فلا تردد غير هذه الكلمات يارب . يارب . ابنتى ماذا جنت . « مسكينة مسكينة » ؛ « مسكينة مسكينة » .

وجاءَ الطبيب كأَنما أُطلق فى قنبلة مِدْفع ضخم ... فأسرعت اليه وهى تقول : ابنتى ابنتى أيها الطبيب « مِسكينة مسكينة » . ثم مرّت أيام وبنتُها مريضة وهى مريضة ببنتها فكانت كلما نظرت اليها ملتهبةً ذاويةً تتخايلُ الموتَ فيها لم يُجرِ الله على لسانها غيرَ هذه الكلمات : آه يابنتي « مِسكينة مِسكينة » .

* * *

قال « الشيخ علي » : وضَرَبَ الدهرُ من ضَرَباته وخرجت الفتاةُ البائسة ذاتَ يوم وكانت قد أَصابت عملاً فتَرَدَّمَ جانب من حالها ؛ وبينا هي تمشى مطمئنةً رُفِعَ لها شَبَحٌ أسودُ فى عُرض الطريق فجعلت تُدانيه حتى حاذَتْه فاذا هى بسيدة الأَمس وقد حال لونُها ، واستحال كونُها ؛ وعادت من الهمّ كأنها ظلٌّ منتصبٌ فى سواد ، وظهرت من الحزن كأنها تمثالٌ منصوبٌ للحِداد ؛ وهى تلوح من الذلة والانكسار ؛ كأنما مات بعضُها ، وبقى بعضُها ؛ وكأَنما كانت حياتُها من الأَزهار ؛ فذهب ربيعُها وروضُها ، وبقى جِذْرها وأرضُها

فما تبيَّنتها الفتاةُ ورأت مانزل بها حتى نفرتْ دموعُها حَزَنًا ثم رفعت عينيها الى السماء وقالت :

يارباه « مِسكينة مِسكينة » . . .

كذا يَضَعُ الانسانُ الكلمةَ لمعانى الله فيكذبه بمعانيها
ويارُبَّ كلمةٍ ملفوظةٍ وفيها لله كلمةٌ غيرُ ملفوظة

***

« اللهم مالِكَ الملك تُؤْتى الملكَ من تشاء وتَنْزِعُ الملكَ »
« ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيَدِكَ الخيرُ »
« إنك على كل شىء قَدير . »



الفصل الخامس

لؤم المال ووهم التعاسة

قال « الشيخ على » :

وأنت يابنيَّ ماإن تزالُ تَصِفُ الدنيا بلون لا أدرى كيف أسميه ، فلا هو من وجوه أهل الحسد فأقولَ أصفر ؛ ولا من قلوب أهل البغض فأقولَ أسود ؛ ولا من صدور أهل الدم (١) فأقولَ أحمر ؛ ولا من شيء أعرفه لأنه ليس شيئاً يُسَمَّى . وعَلِمَ الله أن من يَهْوِى فى جهنم سبعين خريفاً وعيناه تدُوران فى رأسه لا يُبصر من حيثُ ابتدأ الى حيث ينتهى شرًّا من وجه دنياك .

إنك يابنيَّ تُصوِّر الارضَ لا أرضاً ولا ماءاً بل قلوباً ودموعاً وتعرفها لا دُوَلاً ولا أُمماً بل آلاماً وحوادثَ ، فكأن هذه الأرضَ العظيمةَ تحتاج الى وَقْدَتين من قلبك ومن الشمس ؛ والى نفحتين من خيالك ومن الفضاء ؛ والى قدَرَين من حزنك ومن الأبَد . ومن ثَمَّ فلا عجَبَ يابنيَّ إن كان مركزُ الثقل فيها على وهمين : على مِحْورها (٢) وعلى .. ظهرِك

(١) أى النار
(٢) محور الأرض خط متوهم

هَيْهاتَ لقد أسرفتَ على نفسك الضعيفة وجعلتَ هذه الحَصاةَ الهيِّنة تحت مِطرَقة الزمن؛ فما تزالُ رِخْواً مُنْبَعِثاً مُسْتَرْسِلاً في اندفاق ولين، كأنك رَجُلٌ من العَجين. وكم تقول لى (فلانٌ) وجاهُهُ العريض، ودهرُهُ المريض؛ وانظر الى (فلانٍ) كيف جعله الكِبْر يذكُرُ منّاً ويَنْسَى، وكيف أصبح من الغنى وأمسى؛ (وفلانٌ) كيف تَمُرُّ من فُرَج أصابعه سُفُنُ الآمال، في تيّار المال؛ كأن يده قنطرةٌ على نهر الأقدار، أو جِسْرٌ تعبُرُه حظوظُ السماء الى أهل هذه الدار؛ و (فلانٌ) قَبَحَه الله كيف صار شيطانُه في إنسانه، وطولُ عمره في لسانه، وكثرةُ ماله في قلة إحسانه؛ و (فلانٌ) أخزاه الله فما بَرَّ ولا نفَع، بل تفرَّق بالحرص على ما جمع، وطمِعَ في كل شيء حتى في الطمع؛ (وفلانٌ) الذي جمع وعدَّد (١)، وخلقه الله واحداً وهو في الرذائل يتعدَّد؛ وقد انتفخ كأنه شَدْق إسرافيل، وامتد كأنه يَدُ عزرائيل، واستكبر كأنه فِرْعَونُ على النيل؛ (وفلانٌ) وما أدراك ما فلان جبلٌ شامخٌ والناس في سَفْحِه رِمال، ومجدٌ باذخٌ ولا مجدَ لمن ليس له مال؛ وهو في أهل الغنى الأَلِفُ والباء، وان قيل في غيره (ابنُ نعمة) فهو في أهل النعمة أبو الآباء؛ على رأسٍ

(١) أي جمع المال وعدده

عظيم كأنه رُكنُ الكعبة الذى يتوجّهُ عُبّادُ الغنى اليه ، وقامةٍ بائنَةٍ (١) كأنها لجاهِ صاحبها قطعةٌ من المِحْوَرِ الذى تدور هذه الارضُ عليه ؛ وهناك أنفٌ أَما فى السماء فله مَنْزِلَة ، وأما فى الارض فعَطْسَتُه زِلْزِلَة ؛ يَنْفُضُ الناسَ من رهبته نَفْضا ، ويَفْرِشُ الوجوهَ من هيبتهِ أرضا ؛ وكأنه فى تلك الكبرياء ميزانٌ معلّق يَرفعُ من ناحيةٍ ويَخفضُ من ناحية ، بل كأنه فى ذلك الوجهِ القَفرِ جُحْرٌ للنحس تختبىء فيه الداهية . . .

قال « الشيخ علي » : وما أنتَ يابنيّ وهذه (الفُلانات) وأمثالَها ؟ إن هؤلاء الناسَ بعضُ أعمال الله فى أرضه فهو يَخلقُهم ويُنْشئهم ويُديرُهم لتعلّق طائفةٍ من الأَقدار بنتائج أعمالهم طَرداً وعكساً ، فما أشْبَهَهم بدابّة الطاحونِ تَلْزمُ دائرتَها ولا تفتأُ تدورُ الى غير انحراف ثم هي لعلها حين تسمعُ ذلك الهزِيزَ وتلك الجَعْجَعَة تحسبها من نَشيد الاحتفال بها . . .

فهم قوم مسخَّرون فَرَشَهُم اللهُ أمراً من أمره (٢) ويَسَّرهم لما خلِقوا له فضربهم بالحرص والطمع ضربةَ جبّارٍ لو نالت السمواتِ والارضَ والجبالَ لأشْفَقْن منها ؛ وجاءهم

---

(١) ظاهرة بطولها أو جلالها أو نحو ذلك مما تبين به من سواها

(٢) أوسعهم إيثاء ومكنهم من التقلب فيه

الحرصُ بهذا المال أما الطمعُ فجاءهم بماذا . جاءهم بماذا يابنى ؟ لو قلتُ يصَدَأ القلب وهَرَم النفس ودناءة الطبع ، ولو قلتُ بكل مافى الحَشَرات من القَذَر ، وبكل مافى السباع من الضَّرَاوة ، وبكل مافى الذّبابات من السموم ، لكنتُ عسى أن أُقاربَ الوصفَ ، ولكن المعنى الذى يتَلَجْلجُ فى نفسى أكبرُ من ذلك كله .

غيرَ أنى أقول لك ياهذا إن ثلاثةً من المتجاورات يفسرُ بعضُها بعضا : الحرصُ مع الطمع ، ثم المالُ ورَذائلُه ، ثم مافى المعدة ومافى الأمعاء ...

أتحسب أن هذا العالَم يَحْفَل برجلٍ من الأغنياء قد أجْحفَ (١) به الدهرُ وطحنته النوائبُ بأرْحَائِها وجاءه بعد الدنيا المؤنَّثَة يومُهُ المذَكَّر (٢) وتركته الأقدارُ أسودَ الحظ لا بيضاءِ ولا صفراء (٣) ؟ فلِمَ لا يعدُّون الغنىَّ شيئًا دون المال ويحسبونه كلَّ شىء مع المال ؛ لعل الحقيقة أيضًا ذاتُ وجهين فى الناس . . !

---

(١) أجحف بهم الدهر واجتحفهم استأصلهم والمراد هنا استئصال النعمة

(٢) يقال يوم مذكر أى شديد صعب وقد زدنا عليه الدنيا المؤنثة أى اللينة المواتية المقبلة السهلة

(٣) لادرهم ولا دينار أو فضة وذهب

هو المال . المالُ وحده لا غير. فنحن نحتاج الى الغنىّ صاحب المال كما نحتاج الى بائع الملح . . وما أشبهَنَا فى إطرائه وفى الزُلْفَى اليه بأطفال القرية إذ يتزلّفون الى بائع الحلواء التى تُلَفّ بالعصا وإذْ هو واقفٌ بينهم بعصاه وحلَواته كأنه الهُبَلُ الأعلى (١) وهو من تعلم دَسِمُ الثوبِ تَرِبُ اليد قَذِرُ التفصيل والجملة يصلح أن يُكْتَب على وجهه « مَتحف الميكروبات المصرى » ولو رآه طبيبٌ لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريقَ ؟ ولكن أين لا أين الطبيبُ فى هذا الاجتماع ؟

كل أطباء الاجتماع ألسنةٌ وأقلام ومحابر ؟ أما اليدُ التى تُزيل المنكَر أو تغيّره فلا أراها تمتدّ الا من جانب الأفُق ولا تعمل الا بعَوْنٍ من الله وملائكته وقد انقضى عصرُ الأنبياء .

قال « الشيخ على » : فان لم يكن الغنىّ انساناً من الناس يُواسيهم ويُسعِدُهمَ ويتخذُ من المال سبيلاً الى أفئدتهم بالاحسان والمساعفَة ، ويأخذُ لنفسه بقدر مالهاَ ويُعطى من نفسه بقدر ما عليها ، وان لم يكن وجهُهُ مرآةً للفقراء يُبصرون فيها ابتسامَ الدهر على وجوههم العابسة ، ولم يكن ذهبُهُ عند دموع البائسين وعند أنفاس المحزونين ، ولم يكن اسمُهُ فى دَعَوات

---

(١) صنم كان فى الكعبة

المحتاجين وفى ألسنة الشاكرين ، فقد أصبح عندى كأنه لاشخص له، بل هو شخصُ لعنةٍ من لَعَنات الله والملائكةِ والناسِ نُفِخَت فيها الروحُ وهي اللعنةُ أىَّ مُنْقَلَبٍ تَنْقَلِب.

ما أَشبَه المالَ أن يكونَ آلةً من آلات القتل فانه يُميتُ أكثرَ أصحابه موتًا شرًّا من الموت — إلا من عَصَمَ الله — موتًا يجعلُ أسماءهم كأَنها قائمةٌ على ألواح من العظام النَّخِرَة ، ويُرسِلُها كل يوم الى السماء فى لَعَنَات لاعِدادَ لها ثم يُثْبِتُها فى التاريخ آخراً لا بأعيانها ولكن بعددها أو كما تُثْبِت الحكومة فى كل سنة عددَ البهائم التى نَفَقَت بالطاعون . . . فهذا الشخص الميتُ وهو بعدُ فى الاحياء لايبلغُ فى قَدْرِ نفسه على الحقيقة أكثرَ من مقدار حجمه من . . من . . من جيفةِ حمار . . .

يابنىّ ! ربما كان الرجلُ نَبَاتَ نعمةِ الله لأنه سيكونُ حَصَادَ نقمتِه ، فهذه منزلةٌ من البؤس والخِذْلانِ يُستعاذُ بالله منها . وكم رأينا من أناسٍ تُخْصِبُ أبدانُهم حتى ليضيقُ بهم الجلدُ كِدْنَةً وسِمَنًا ويكاد أحدهم يَنْشَقُّ مَرَحًا ونشاطًا ثم لايكون هذا الخِصْبُ الذى استمتعوا به شَطْراً من العمر الا سببًا فى أمراض مُهلكة تستوفى الشطرَ الآخر، فذرهم يأكلوا ويتمتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فسوف يعلمون

وإنَّ خطأً كبيرا أن تقضيَ لفلان من (فلاناتك) بمتاع الدنيا فانك لاتدرى أَشرٌ أُريد به ام الخيرُ ؛ وكيف تحكم ويلك على غناه بفقرك ، وعلى آماله بيأسك ، وعلى شخصه بظلك ، وعلى نهاره بليلك ، وعلى عمره كلّه وهو بعدُ حي لم يُوَفَّ عمرَه ولا تدرى ماعسى أن يكون له فيما بقي ؟ ألاَ دَعْهُ حتى يستنفدَ أيامه المكتوبةَ ويستوفيَ أنفاسَه المقدَّرةَ فلعل مصيبته قادمةٌ فى الغيب وكان غناه من مُقدَّماتها ، وعلى قوة المقدمة تقاسُ قوةُ النتيجة . فاذا مات الغنىُّ ولم تعرف فى جملة عمره همًّا ولا غمًّا يَعْدلُ بؤسَ الفقرِ مهما اشتدَّ الفقر ، فكفى حينئذٍ بالموت من تلك الجملة ، وانما الحياة مدةٌ ستنقضى فسواء انقطعَ الخيطُ من أوله أو من وَسَطِه أو من آخره فقد انقطع (١)

تقول إن لهم متاعَ الحياة ولو أنصفتَ لقلتَ إن لهم بؤسَها المُمْتع . . . ! فانهم يجمعون المال من طُرق لاتُؤْتيه الا نَكَدا ثم يُرسلونه فى طرق أخرى ليجمعوه ، وهلُمَّ كما تدورُ دابّةُ الطاحونة . وهَبْ أنهم لا يألَمون كما تألم فان يد الله غَمَزَتْهُم من مكانٍ قريب غَمْزةً مؤلمة ، وما أحسبُ الضَّجرَ من اللذات قد خُلق الا للاغنياء وحدهم ونَاهيك من بلاءٍ يَغْمرُ النفسَ

(١) إذا مات الغنى وطوته الأرض فأفقر من على ظهر الأرض أغنى منه . فهذه جهة من غنى الفقراء لايساويها غنى ومع ذلك لاينتبهون اليها

بالنعم صُنُوفاً وألواناً حتى يتنكّر لها معنى النعمة فتراها وقد ثار عليها الضجر مُتَكَرِّهة ولكن لا تريد الكراهة ومتسخّطة ولا ترغبُ في السخط ، ومتألمة ولا تعرف مم ألمها ، ولا تبرحُ دائبةً تلتمسُ نعمةً لم يخلقها الله لتحدث منها لذةً لم يعرفها الناس .

ولولا هذ البلاءُ وأنه ما وصفتُ لك لما أصبت على الارض غنياً كهؤلاء الوارثين تضربُ به كلُّ لذةٍ وجهَ أختها فتسلمُه الواحدةُ الى الاخرى ويجذبنه بكل حروف الجر . من والى وفى وعلى ، بين الخمر والقمار والفسق وما لا يحسُن أن يسمّى حتى تُسلمَهُ اللذةُ الاخيرةُ الى الفقر أو القبر .

ولو أن (ضجر اللذات) يصنع بكل الأغنياء هذا الصنيعَ لفسد الكونُ بيدَ أن الله أراد عمرانه فجعل فى طباع أكثر الاغنياء لؤماً خاصاً ، لؤماً ذهبيًا يكسرُ من سوْرة هذا الضجر كما يفثأ الماءُ الباردُ من الماءِ الحارِّ حين يمتزجان (١)

فالقومُ إمَّا كريمٌ يضجر فيُسْرِف ، وإما لئيمٌ يضجر فيُمْسِك ، وكلاهما يجدُ لذته ويضجرُ من لذته ، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواءٌ كما ترى . وكأن أمَّ المصيبة حين ولدَتْ

(١) كلهم بين اثنين : لؤم النعمة في اوائك ولؤم المال فى هؤلاء

وضعت بنتين : المصيبةُ التى تؤلم والنعمةُ التى لاتلذّ . . .
وليس أشقى ممن مُنع السعادةَ وأُعطي الرغبةَ فيها الا الذى
أُعطىَ السعادةَ ومُنع اللذةَ منها .

فلا تقل يابنىّ إن العصا لظهور الفقراء وحدهم فان هناك
السّوط أيضاً وهو رتبةٌ عاليةٌ فوق رتبة العصا ولذلك خُصّ
بشرفها . . . الأغنياء .

وانظر ويلكَ هل ترى الفرق بعيدا بين الضجر من شىء
لأنه موجودٌ وبين الضجر من ذلك الشىء لأنه غيرُ موجود .
بين عدَم الشعور باللذة وبين الشعور بعدَم اللذة ، بين ألم الغنيّ
الذى لاتجده أبداً الا على شكٍّ فى أنه سعيد وبين ألم الفقير الذى
لاتجده أبدا يشك فى أنه تَعِس ؟

« قال الشيخ على » : وتسألنى عن التعاسة ماهىَ وكيف هىَ
وتُريدُنى على أن أبتَغىَ لك مما بين ظاهرها وحقيقتها ؟ ألا فاعلم
يابنىّ أَن هذه الكلمةَ حقيقةٌ بأن تُنْسِيَ نفسها ، وما ادّعى
أحدٌ معرفتها الا لأَنه لايجد أحداً يعرفُها ، وكل شىء مجهولٍ
فما أسهلَه أن يكونَ من علم كل جاهل وما أصعبَه أن يكون من
جهل كل عالم ؛ وانى لأَرى الناسَ يأتون فى وصف التعاسة بكلام
كثير وما أهونَها إذنْ لو أَن كل إنسان يُحسِنُ من وصفها بهذه
السهولة . . .

لقد أَلِفَ هذا الانسانُ من عهد القبائل في الاجتماع الاول أن يطوىَ العالمَ كلَّه في قبيلته ويجمعَ القبيلةَ كلَّها في نفسه فيزعم أن « كل الناس » يعرفون كذا « وكل الخَلق » يقولون كذا وأن « الدنيا كلها » و « كل العالمَ » ، وعَلِمَ الله مافي الدنيا ولافي العالمَ من يعرف أو يقول غيرُه أو هو مع غيره من ذَوِى جماعته الى اثنين أو ثلاثة أو جماعة منهم ، ثم بقي ذاك ميراثاً في أخبار الجهلاء وأوصافهم وفي كلامٍ أهل المُجازَفة الى اليوم .

ولكن إن شئتَ أن تعرَف التعاسة ـ ولا أقول ما هى (حرَسَك الله) ولكن ماعلمُها ـ وإن شئت أن تسمعَ لهاوصفاً آتياً من جانب السماء ؛ فالتمِسْ في دار الهموم من لم يبق له همٌّ يحملُه إذ يكونُ قد احتمل كلَّ هم ـ فان مثل هذا المخلوق الذى لا تعرف أَهو حيٌّ في ثيابه ميّتٌ فيما وراءها ، أم هو ميّتٌ في ثيابه حيٌّ فيما بعدها ـ متى استفرغَ دمعَ أجفانِه ومات البكاءُ في عينيه ، خَلَق الله في لسانه ألفاظاً كالدمع ولغةً كالبكاء ومعانيَ هي في جملتها أوصافُ التعاسة على الحقيقة .

وأين تَحسبُك واجداً هذا المخلوقَ المُلْهَمَ المسخَّرَ الذى تراه كأَنما ينضغطُ بين الأَرض والسماء لشدة مايجدمن حَطْمَة هذه الدنيا ؛ حتى تكتبَ من تاريخه فصلاً في ذلك المعنى وحتى تخرِجَ من لغة الأقدار ما يصحِّحُ لفظاً واحداً من لغة الناس ؟

أَلاَ إن الأرض لا تشهدُ كلَّ يوم نبيًّا مثل أَيوبَ يمتحنُ الله صبرَهُ امتحانَ الالوهية للنبوَّة، واذا لم تكن المصيبةُ رعاك الله كأَنها فى باب النقمة تاريخٌ غيرُ إنسانيٍّ فان بينها وبين معنى التعاسة الذى يَضجُّ الناسُ منه كالفرق بين رؤية السيفِ مسلولاً على العُنق وبين رؤيته فى العنُق (١)

ولقد اعرفُ رجلاً من أهل الفقر النظيف أعطى ابنته قطعةً فيها « عشرة غروش » وأرسلها تبتغى بها رزقاً من الطعام فأضاعتها فكأنما أضاعت عقلَها وضاقتْ عليها الدنيا وخُيِّلَ إليها أَنْ ليس على الأرض ما يَسعُ طفلةً . . . فلم تجد لها غوثاً إلا فى الموت يحولُ بينها وبين أبيها فجرَعتْ من « الفنيك » جرعةً سائغةً كانت فيها نفسُها وابتعدتْ عن أبيها ولكن بُعدَ ما بين الدنيا والآخرة .

فهذا مثالٌ مما يجلبُ الضعفاءُ على أنفسهم من التعاسة . تموتُ الفتاة ، وتسيرُ الجنازةُ ، ويفُتحِ القبرُ لعشرة قروش . . !

ويحدثُ فى العالم هذا الفراغُ ، وتُخْرِجُ الدنيا احدى عجائب التعاسة ، ويَشهَدُ الناسُ ذلك المنظرَ القاتلَ ، وكل هذا لعشرة

(١) فرق بين الارهاب يخيف ولا يقتل و بين القتل يخيف ويمحق، والغرض من التاريخ غير الانسانى ذاك الذى لا مكان فيه لرحمة الله وهو تاريخ يتوهم ولكنه يقع ولن يقع

غروش . . ! ويقعُ للفتاة امران أهونهُما الموتُ ؛ وأصعبهُما الذى لا يُحتَمل ضياع عشرة غروش . . ! وماعشرةُ غروش يا بنى؟ إنها قوتُ حمار فى يوم أو يومين ، ونشوةُ سكّير فى ساعةٍ أو ساعتين ، ولذةُ فاسق فى لحظة أو لحظتين ، ولعنةُ الله على غنىّ لئيم فى نَفَس من حياته أو نَفَسين

ولكن يعلم الله كيف كانت فى نفس تلك المسكينة من غلظة أبيها وقسوته وما خشيت من بادرته وما حسبت من اضطغانه عليها ، وكيف استحالت هذه القطعة تاريخاً طويلا من الوساوس والأوهام حين أضاعتها ، فالناسُ ناسٌ لولا الوهمُ وكان الوهمُ وهماً لولا الناس .

ولَعَمْرى ما الذى يجعل المرءَ جباناً فى لقاء الحوادث حتى يخافَ الحياةَ فيعوذَ بالموت ، ويضربَ ما أقبل من دنياه بالذى هو مُدْبِر ، أو يخشى الموتَ فيتعذبَ بالحياة ، ما أَدْبر منها وما أقبل ؟

أَما إنّ ذلك ليس من فقرٍ ولا غنًى ولكنه حِرْصٌ على الحياة يُخالط بعضَ الأَنفسِ ويستمكنُ منها حالةً بعد حالةٍ فاذا هو قد انقلب فى آخرها لأمرٍ خوفاً من الموت ، ثم لا يزال يَحُورُ ويَنْمى وهو فى ذلك يَخْلَعُ القلبَ من الإيمانِ الذى يَرْبِطُ عليه(١) واليقينِ الذى يُثَبِّتُ به حتى يبلغَ بعد حينٍ أن يكون خوفاً من الحياة نفسها .

---

(١) ربط الله على قلبه ألهمه الصبر وقواه

ومتى كان الحرصُ على الحياة قد صار خوفاً من الموت ، ورجع الخوفُ من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة ؛ فهذه أصلحك الله حالةٌ من الجنون تَستَلِبُ العقل ، وسواءٌ مَنْ أُصيبَ بها ومَن خُولِطَ فى عقله وليس معها لهؤلاء الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم الا موتُ الجُبْن الذى يسمَّى انتحارا أو حياةُ الجبن التى تسمى ذلاًّ ؛ ولَخَيرٌ للمرء أن يكون حمارا من صنعة الله وتعرفُهُ الحَمير من أن يكونَ حمارا من صنعة نفسه وتُنْكِرُه الناس . . .

إن لنا على هذه الأرض حياةً واحدةً عَلِم أهلُ العلم أنها حقيقةٌ مُسرعة بين أوهام فهى ماتبرح تُجاهد كلَّ شىء ولا تثبت أطولَ من مدة جهادها الى أمَدٍ غايته أُرذلُ العمر (١) ؛ وعرف أهلُ الجهل انها تتقدمُ الى الموت وأن الموتَ يتقدم اليها فهما لابد ملتقيان . لا العلمُ ولا الجهلُ يرتابُ أو يشك فى الموت ، ولا الفقرُ ولا الغنى ولا الصحةُ ولا المرضُ ولا شىءٌ من خصائص الأحياء ؛ لأنه ليس على الارض حىٌّ قديم . . ! ولكنَّ العالمَ والجاهلَ والفقيرَ والغنيَّ والصحيحَ والمريضَ ؛ كلُّ هؤلاء يخافون الموتَ ويحرصون على الحياة الا قليلاً منهم — فليتهم علموا أن النفس روحيةٌ وأنها تألَمُ لهذا الخوف ولا تَقارُّ عليه إذ هى لاتعرفُ الموتَ لأنها خالدة ولكنها تعرفُ الألم لأنها فى غير

(١) الهرم وارتفاع السن

دار خلود . ومعنى ذلك أن الانسان يخاف الموتَ فيتصل هذا الخوف بالنفس فتردّه الى حوادث الحياة فتخيفه هذه الحوادث فيذله هذا الخوف ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت (١)

ونحن انما ننصب الحبالة (٢) ثم نرتبك فيها ونضطرب فكأننا لا نصيد الا من أنفسنا ، إذ لسنا نجهل أن للنفس حظاً ليس للجسد وأن الفارس لا يربط فى الاصطبل وإن كان جواده فيه . غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسمية وأن نعالف الفرس والفارس من طعام واحد . . . . فهذا التناقض الذى نسيء به الى أنفسنا هو الذى يجعل النفس خائفة من الحياة إذ لا تجد فيها غير ألم التعبد للأهواء والشهوات ولا تصيب من الحياة الا ما تستذمه (٣) به الحياة إليها فلا يكون من ذلك الا أن تسيء الينا هذه

---

(١) اذا خفت عاقبة طريق أنت سائر فيه قطعت الطريق كله مضطربا خائفاً وان كنت موقنا ان ما يخيفك لم يأت بعد ولكن علمك انه آت هو سبب ما أنت فيه ، فاذا مشيت فى نور روحك وفضائلها لم يخفك شيء ، واذا مشيت فى ظلمة شهواتك خفت من كل شيء . طبع لا تدرى سببه وسببه في نظام الروح ونظام الجسم ونظام الكون.

(٢) الحبالة شبكة الصيد وارتباك الطير فيها اضطرابه حين يقع

(٣) اى تدعو به الى ذمها

النفوسُ بتناقضٍ آخر، فربما كان الرجلُ في النعمةِ السابغةِ قد اينتْعَت خضرتُها ثم هو لا يشعرُ منها الا ما يشعرُ من المصيبةِ الماحقة. ومتى فزعتْ النفسُ من الحياة كما عرفتَ فلا هناءةَ على ذلك الفزع ولا تكون الحياةُ من ثمَّ الا موتاً مستمرا أو خوفاً من الموت لا ينقطع. (١)

قال « الشيخ علي » يا بنيّ إن الحرصَ جبن، والجبنَ ذل، والذلَّ استعباد، وما يدخل من هذه الأبوابِ إلا الشر، فكن حرًّا من الأهواء كما خُلقتَ وكما خُلقتْ الحريةُ التي لا قيدَ لها من رذائل الدنيا فانك لن تُراعَ ولن تعرف مما يسميه الناس تعاسةً أكثرَ مما تعرفُ مما يسمونه سعادة، ولن تجدَ في مصائبِ الحياة ما يموتُ دونه الصبرُ الجميلُ فان عمرَ هذا الصبر أطولُ أبداً من عمر الصابرين.

لذلك لا يغضبُ الفيلسوفُ ولا يخافُ الشجاعُ ولا يبخلُ الكريمُ ولا يذلُّ الأنوفُ ولا ينافقُ الرجلُ الحرُّ ولا

---

(١) المخ في الانسان هو المسلط على أعصابه والروح هي المسلطة على المخ. فاذا سخرته الروح في أعمالها استقامت الحياة واذا سخرته الاعصاب انعكست الآية وهذا هو الواقع ودليله حسي لا مكابرة فيه، فالصالح ضعيف الشهوات هادىء مستريح والسافل بالعكس وكأنه من تعب الحياة يمشي في الارض على رأسه لا على رجليه . . . .

يَكذبُ الرجلُ الشريف ؛ وانما هذه مظاهر محدودةٌ من حرية النفس فكيف بالنفس اذا كانت حرةً من كل أقطارها ؟

وقديماً عَلِم الناسُ أن من لايبالى بشهوات جسمه هو الذى يستريحُ وادعاً ويَتْعَبُ التعبُ فى البحث عنه ؛ وما علمت ولاعلم الحكماءُ والأَطباءُ غذاءاً تَسمنُ عليه المصائبُ والأَحزانُ إلا الحرصَ على الشهوات

وليت شعرى ماهي هذه الشهوات ؟ أَما إنها فى الحقيقة نزَعَاتٌ طبيعية لابد منها بمقدار لأن الطبيعة الانسانيةَ تُعالج نفسَها بما يُعينُها على البقاء (١) وما يجعلها صالحةً له على الوجه الأَفضل فهي تُغْرِى الانسانَ مرةً وتُؤلمه مرة ، كلُّ ذلك ليجلبَ لها او يدفعَ عنها فما تسميه لذةً من لذات الجسم انما هو علاجٌ طبيعيٌّ من ألم طبيعي لا أكثرَ ولا أقل . . . . كالأكل مثلا فما كانت الطبيعةُ لتُغْرِىَ به هذا الإغراءَ حتى فات عند أكثر الناس حدَّ اللذة لولا أن الجوعَ انحلالٌ فى الجسم ؛ فإن

---

(١) ولما كان البقاء محدوداً بمدة فالشهوات يجب أن تكون كذلك محدودة بمقدار لتقع الملاءمة فى موقعها ويحمل شيء شيئاً وتنتفع النفس بمدتها فى الحياة . فاذا خرج المرء عن طبيعة نظامه زاغت طبيعته فلايزيدها ولكنها تنقصه ولا يصلحها ولكنها تفسده . ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون

هو أسرف عليه أو استمرّ به أو قع فيه الفسادَ وركبه بالضعف علَّةً بعد علَّةٍ .

غير أن الانسانَ بما فيه من شَبه البهيمة ينجذبُ الى طبع البهيمة غالباً ونسى أن للبهائم وازعاً طبيعياً هو فضيلتُها الخاصة بها فاقبل يرتعُ ماشاء ، وجدّ به الحرصُ بمقدار مايطمعُ فيه ، وغلبه الطمعُ على بصيرته ، فلا يكونُ فى إنسانيته إلا بهيمةً تتخيّلُ وتتفنّن مالا يتفنّن إنسانٌ ولا بهيمة . وماتجدُ من مُستهتَر بالشهوات إلا وجدته من أجل ذلك راضياً مغتبطاً يتمنىّ لو أنه فى هذه الشهوات بهيمةُ البهائم كافّة . . . .

أُفٍّ لهذه الدنيا يحبها من يخافُ عليها ومتى خاف عليها خاف منها فهو يشقى بها ويشقى لها ، ومثلُ هذا لايكاد يُطَالعُ وجهَ حادثة من حوادث الدهر إلا خُيِّلَ اليه أن التعاسة قد تركت الناسَ جميعاً وأقبلت عليه وحده ؛ ولولا الخوفُ يزَلْزِلُ قلبه لأدرك الفرقَ بين النَّسمة والعاصفة وعلم أن اللفظةَ لايلزمُ منها أن تَخلُقَ معناها وأنْ ليس كلُّ مانسميه تعاسة يكون فى حقيقته من التعاسة .

وترى الواحدَ من هؤلاء لايزال يلُوكُ لسانه (١) فى كلمات من التأميل والسخط والألم والنّفْرة وغيرها مما هو من

(١) يحرك لسانه

لغة الحرص على الحياة ؛ فهو على الأرض وكأنه يعيشُ في سحابة تَجري بها الريح . ولَعَمْرى كيف تَهْنَأُ الحياةُ مثلَ هذا إلا اذا كان أَديمُ الارض من ورق الزَّهر ، وكانت مَزَابِلُ هذه الدنيا رياضا غنَّاء ، وعدَّت الطيورُ الجميلةُ من كلاب هذه المزابل . . . ؟

كذلك لايسعدُ أكثرُ الناس بالحياة ولكنهم يشْقَوْنَ بالحياة والموت ؛ ومن ثَمَّ ظلموا التعاسةَ فجعلوها أصغرَ مما هي كما ظلموا السعادةَ فتوهموها أكبرَ مما تكون .

« قال الشيخ على » : واعلم يابنيَّ أن القَدَر وإن كان من السماء ولكن تاريخه ثابتٌ في الأرض وما كانت المصائبُ جديدةً في الحياة ؛ وهذه المحابرُ التي كُتِب منها تاريخُ الانسان لاتزال كما كانت من قبلُ تَشْرَقُ بالدماء وبالدموع ولايزالُ الدهرُ يَمُدُّ منها ولايزال يكتبُ من هذا المِداد . فمَّ يخافُ هذا الانسانُ الجديدُ وليس فيما ينزل به إلا ما نزل بمن قبله وما هو بخالد ولا هو بمتروك لما يُحاولُهُ ؛ ولقد علم يقيناً أن الله لم يخلق فيما خلق مِقْرَاضاً يُقَلِّمُ أظفارَ الموت ؟ يريدُ من قدَرِ الله زُلالاً صافياً كأنه ماءٌ مُرَشَّح . . يُصَبُّ من حياته في كأس من البلور . . ! ويبتغي أن يكون في الأرض تاريخاً جديدا سلساً مُنَقَّحاً ليس فيه شيء من تلك الألفاظ الجافية في نبوِّها

وخُشُونتها: ألفاظ التخريبِ والتدميرِ والتقتيلِ والجوعِ والمرضِ والأحزانِ والهمومِ ونحوها .

فأما أن يكون من ذلك التاريخ القديم الذى تُمْليه قدرةُ الله على الطبيعة ثم لايكونُ الا كالطبيعة نفسها فى النظْم والنسقِ ولايجىء الانسانُ الجديد فيه الا طباقاً أو ناسخاً أو منسوخاً ؛ فهذا هو موضعُ النَّفْرة ومكانُ الأَذاة ومنه مَثارُ الهمِّ واليه مَسْرَبُ الدمع ؛ وذلك والله معنى أن لم تنشأ منه تعاسةُ الانسان فهو على كل حال من تعاسته .

الانسانُ كله يابنىَّ مُنْطوٍ فى رأسه وما هذا الجسم إلا أداةٌ منها مايحملُ الرأس ومنها مايحملُ اليه ومنها مايحملُ عنه ؛ فالجسم دابَّةٌ من الدوابِّ لا أكثر ولا أقل . والرءُوسُ لايمكن أن تُوزَن بميزان حتى يُعْلَم فرقُ مابين رأسٍ ورأسٍ آخر ؛ فالانسانُ مختبىء مُحتَجِبٌ وكأنه لايزالُ منه جزءٌ عند الله فما ينفكُّ يجدُ من نفسه مايبعثه على النُّزوع الى الغيبِ والفكر فى المستقبل لأنه هذا المستقبلَ تمامٌ له ؛ ولايبرحُ يشعرُ بالحياة شعورَ المتألم أو المتعَبِ أو المكدُود أو المغيظ أو المُفَزَّع أو أىّ ما يكونُ من أشباهها لأن هذا الحاضرَ غيرُ تامٍّ به ولا كاملٍ معه وليس ذلك بعجيب ولا من العجيبِ أن يألمَ الانسانُ لحياته . ألا يرى أنه فى جسم لاراحةَ للروح إلا بعد تحطيمه ؟

ومن ههنا تفاوتَ الناسُ فمنهم من تراه كأنه يحاول أن يكشفَ عن جزئه الذى فى الغيب و يصل بينه وبين حاضره فيتوهم فى الحياة ماليس فيها ويُسخّرها لأوهامه باطلا؛ ومنهم من يقبل على شأنه ويأخذُ الحاضرَ بما فيه ويعرف أنه حيّ ولكن على شروط لابدّ منها للحياة .

فأما الجاهلُ الأحمقُ المخدوعُ فكأنما يرى فى مرآة خياله الغيبَ كلّه أو مايظنه الغيبَ كلّه فلا يعْدُو أن يسترسلَ فى ظنونه وأوهامه استرسالاً أشبهَ بالأبد الذى لاحدّ له ؛ ومن ثَمَّ لا يرضيه شيء مادام فى هذه الحياة شيءٌ لا يُرضيه ، ولا يُقنعه شيءٌ مادام فى الدنيا شيء لايناله، وكلُّ مصيبة يخشاها أو يتوقعها فكأنما هى نازلةٌ به أو قد نزلتْ ؛ وعنده ان كل مايمكن أن يكون فينبغى أن يكون ؛ وما هو جائز فليس مايمنع أن يكون واجباً ، وماقيل إنه غيرُ جائز فهو غير مستحيل ، وما الذى يمنع أن تُخْسَفَ به الأرضُ أو تقعَ عليه السماء أو ينحدرَ اليه رجْمٌ من الشهُب أوْ ينهتكَ حجابُ قلبه (١) أو يسلّ البلاءُ خيطَ عِظامه أو يُخالطَ جوْفه كلُّ داءٍ دَوِىّ ثم ماشئتَ من أو بعْدَ أو . . الى أبعد حدّ مما انتهى اليه أهلُ الفقر فى الفقر وأهلُ الأَمراض فى الأَمراض وأهلُ الأحزان فى

---

(١) كناية عن موت الفجاءة

الأحزان وأهلُ المصائب فى المصائب؛ فيذهبُ العمر باطلاً بالذى عليه والذى له ويجنى هذا الانسانُ على نفسه من أثر الخوف والطمع مالا يستقبله أبدَ الدهر فلا يهنأ بموجود ولا يطمئنّ الى مَرْجوّ ولا تكون آماله إلا مَخاوفَ مُشْتَبِهةً لا مأتى لها من الحقيقة فيجد رُوحَ التعاسة فى أشياءَ كثيرةٍ ولا يكاد يُصيبُ العَزاء فى شىء قليل .

وهنا يابنىّ الحفرةُ التى يقبَر فيها بعضُ الأحياء ليعيشوا عيشةً وهميةً أو ليموتوا موتاً وهمياً تلك الحفرة التى يقضى الأحمقُ شطراً من عمره واثباً فى الأوهام بين شاطئي الدنيا والآخرة حتى اذا انتهى اليها تردَّى فيها وكان الرأىُ لو ادَّخر لها بعضَ تلك الوثبات . . .

وأما الحكيمُ الذى يعرفُ الحياةَ كما يمكن أن تكون ويعرفُ أن كل حي من الناس فانما هو حي على شروط لواهب الحياة ، ثم للحياة نفسها ، ثم لأهل الحياة — فهو أدرى بالمصائب من ذلك الأحمق ولكنه لا يُثيرُها ولا يبحثُ عنها ولا يَختلقُ لها العلَلَ (١) من نفسه ولا يعترضُها فى غيره . وما نزَلَ به منها فانه يفتحُ لها من قلبه سبيلاً تمرّ فيه بين العزيمة والجُرْأة ، والا فبين الثبات والصبر ، والا فبين

(١) يخترع و يستنبط

التوكل والايمان ؛ وما أهونَ مصيبةً تُفتح لانصرافها ثلاثُ طُرق واسعة .

وهذا الحكيم يجد في محْنته لذةً تشبهُ لذةَ الدرس لمن همُّه الحكمةُ واختيارُ الاشياءِ ومعاناةُ خواصّها وأسرارها كأنه من مصائبه في « معْمَل » للتجربة والاختراع ؛ فانما هو يتلقّ عن الله مالا يُصيبه به إلا هُوَ وما لايصرفه عنه إلا هُوّ وانما يستعمل رأسه للفهم لا للوهم . وهو يعرف أن علم الله أَزَليٌّ يَسَعُ الأَزلَ كلّه وأن الأَقدار من علم الله فهي مقسومةٌ على الدهر كلّه وأنه هو في جانب الدهر لا يبلغ أن يناله ما تنالُ الشرارةُ من ماء البحر اذا هي انطفأَت في البحر .

هذا الحكيمُ يعرف أن الحياة ليست هي الانتهاءَ الى الموت . على أى وجهٍ ولا هي بالهرَب من الموت في كل وجه ، فهو لا يبالى الموتَ ولا يخافه ولا يعبأ بالحياة ولا يرجوها ولكنه يمشى على صراطٍ من فضائله وعلى نورٍ من ربه فما دامت فضيلته لا تنكرهُ ومادام قلبه مطمئنًّا بالايمان فكل مابين الأَرض والسماء وما بين الآخرة والأولى هو مادةُ العزيمة في نفسه ومادةُ القوة في روحه ومادةُ الابتسام على شفتيه ؛

فان نزَل به همٌّ وأدركه خَوَرُ الطبيعة وضعفُ الانسانية فلم يستطع أن يَخلُص منه ، صرفه الى جهة غيرِ جهته ، واستخرج

منه معنى غيرَ معناه ، وقابَلَ بين راحة الرضا به وتعبِ السخط عليه ، ونظر فى مبلغ شرِّه وما عسى أن يكونَ حالهُ لو نَزَل به ماهو شرٌّ منه ، وجمع بين الدعاء لله أن يصرفَ عنه ماوقع وبين الحمد لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع ؛ ثم لايزالُ يعالج الهمَّ مستأنياً رَبيطاً جأشهُ حتى تثوبَ اليه القدرةُ على نفسه فتسكنَ اليه النفسُ من نَفرتها ، وحتى يرى هذا الهمَّ كأنه مما لابدَّ منه فى رياضة أخلاقه وتنزيهِ شمائله ، وكأنَّ صدْعَ الجانِب الذى بينه وبين الناس أو بينه وبين نفسه إنما كان لتقويةِ الجانب الذى بينه وبين الله .

وأشقى الناسِ من يتوقَّعُ الشقاءَ وهو لايعلم من حاضره ما الله صانعٌ به ولا من مستقبله ما الله قاضٍ فيه ، وكأنه يتظَنَّى بالله فيرى أنه تعالى قد وَكَلَه الى نفسه وأيأسه من رحمته وصرفَ عنه تيَّارَ الغيبِ المتدفِّع بالحوادث والأقدار ، بين شاطئى الليل والنهار ، فلا يدفعُ اليه جديداً ولايصرفُ عنه قديماً ؛ وكأن الزمنَ كلَّه يتحرك وهو ثابتٌ قارٌّ قد حصرَه الهمُّ من هذا الفلك فى زواية ، ووضعه الدهر من بيت الأحزان موضعَ القافية ؛

والمصيبةُ فى مثل هذا أكبر من كل شىء لأنها لاشىء . .

ولا ينفع المرءَ أنه من الناس اذا لم يكن من نفسه ، وهذا لانفسَ له أو كأنه لانفسَ له إذ لاثقةَ به ولا قوةَ فيه ؛ ولو كان وجههُ جِلدَةً مما بين عينىِ الأسد لما ظهر الا جباناً ، ولو اختلط الحاضرُ

والمستقبل على شيء لما اجتمع منهما مايجتمع من غُضُون جبهته فى تعاسته التى يظن أنه خُصَّ بها ؛ فهو يتوهم الخوف ثم يخاف مما يتوهم ثم يخاف أن يكون الأمر أكبر مما توهم . ثم يخيفه أن تخذله الأقدار فلا يقوى على ذلك ثم يكون أشد خوفه من أن يستمر له ذلك . فمن خوف الى خوف الى خوف وهو تتابع يصور الرِّعدة التى تعتريه لجبنه كما يصور ضحك القهقهة من هذا الجبن (١)

وذلك يابنى ضَرْبٌ من ضُرُوب استحالة النفس كأنها ليست فى صاحبها أو ليست له ، فهو يمرّ على الحقائق فزعاً كما يمرّ الطائر على الأخْيِلة التى تنصب له على الثمر ، ويجزع منها كما يجزع الطفلُ من أرواح المردة والشياطين التى تسكن ألفاظ التهويل ونحوها مما يُفزَّع به ؛ ثم هو من المصيبة الواحدة فى مصيبتين : أما الاولى فشدةُ الخوف التى تُفقِده لذة مايكون فيه من النعم — والنعم لاحصر لها — فلا يشتهيها ولا يجد لها مساغاً بعد أن لبسه مرضُ الهمّ : وأما الثانية فقوةُ اليأس التى تُضعف قدرته على

---

(١) من المقرر ان الافكار تتداعى ؛ فالخوف لا يجلب على الفكر الا ما يشبهه ان استمر به فتكون المصيبه واحدة ولكن الخوف يكون بها و بما تتصل به و بما يمكن فى العقل ان تتصل به فكأن النفس قد ركبتها رعدة

الحيلة للخلاص مما نزل به فكأنما شدَّ عزمَهُ وثاقاً ثم لا يكون من اجتماع المصائب الثلاث (١) معاً الا أن يورِثَنهُ الذلَّ وسقوطَ الهمة وتخَلْخُلَ الفؤاد واضطرابَ النفس حتى كأنه من هذه الوساوس بين جدران وثيقة محكمة لانافذةَ منها على فضاء الغيب والغيبُ مِلْءُ الأبد، فيصبح جِلْداً بلا جلادة، وعظماً أَوْهَنَت منه البلادة، ورجلاً لو أطاعته كلُّ قوة فى الدنيا لما أطاعته الإرادة، وصنماً من اصنام الحياة يعرفهُ العاقلُ للتحطيم ويحسَبُهُ الجاهلُ للعبادة .. ..



---

(١) هو نفسه مع المصيبتين مصيبة ثالثة .. ..

الفصل السادس

وهمُ الحياة والسعادة

قال « الشيخ علي » : ولقد عرفنا الحياةَ ماهى لأننا نحن أمثلة عليها ولكن البحثَ فى معنى هذه الحياة لم يَنتَهِ بعدُ لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوقَ السموات ، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يَخُطُّوا فى كُتُبِهم بمدادٍ من أضواءِ النجوم التى يَسكبُها الخلودُ كلَّ ليلة على الارض ملءَ محْبرَة الليل لكان عسى أن تَستَنِير مباحثهم فى ظلمات الحياة . وأنَّى لهم ذلك وليس وراء النفس الانسانية الا الذى هو وراءَ السماء ولا وراء السماء الا الذى هو وراء النفس ؟

ألا فاعلم يابنىّ أنه مادام هؤلاء العلماءُ يتعاقبُون على تفسير المعانى الإلهية ولم ينتهوا بعدُ فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاءَ أنهم لم يبدؤا بعدُ ....

وما هى الحياة ؟ أما إنها ليست طريقاً مَسافَتُه كذا ، ولا قياساً ذَرْعُهُ كذا ، ولا وزناً مبلَغُه كذا ، ولاشيئاً من هذه المعانى التى تَضربُ الأقلامُ والألسنةُ فى مَفاصلها بل هى فيما وراء ذلك من عالٍ الى بعيدٍ الى غامضٍ الى مُبْهَمٍ حتى تنتهيَ الى

منبع النور الذى تلتطم على ساحله مَوْجةُ الأبد

وان أبيتَ إلا ماهو دون ذلك وُضُوحاً وانكشافاً وبَسْطاً فى التأويل فقل إنها فى كلمةواحدة فتحُ السماء بفكرة واحدة(١)

ولتَدَعْنى يابنىَّ من لغة هذه الكتب فانها متى انتهت الى السماء رأيتها أكثرَ ماتراها ألفاظاً لامعنى لها إذ ليس هناك من جلال الله إلا مايشبه أن يكونَ معنىً لا ألفاظ له .

ودعنى أُحدِّثكَ عن الحياةِ بما أفهمه أنا الرجلَ الطبيعىَّ من فَلَقِ الصبح ومن رَوْعة الشمس ومن إقبال الليل وإدباره ؛ وبما أعرفه من هذه اللغة التى تَنْزِل بها السماءُ مايتصل بنامن معانيها ، لغةِ القضاءِ حين يسألُ ولغةِ القَدَرحين يُجيب ؛ وبما أَستَوْحيه من معانى هذه الإشاراتِ التى تتحركُ بها جوارحُ الطبيعة وهي مَزِيجٌ من لغة البقاءِ الأرضىّ الذى يريدُ أن ينتهىَ ولغةِ الخلود السماوىّ الذى يريدأن لا يَفنَىْ ؛ فالحياةُ ياشاعرى العزيزَ لاتخرجُ من الدواة ولاتَقْطُرُ من القلم ، بل أنا أحسبُ هذا المدادَ الكثيرَ الذى أراقَه عليها الناسُ هو الذى جعلها كمايقول الناسُ سوداء . . . . .

ولا يكفى أن يعلم الرجلُ كيف يسوقُ المقدّماتِ وكيف يُحْسِنُ

---

(١) يكاد يكون المخ مادة سماوية أودعتها السماء هذا الانسان تصل روحه بها وتصله هو بروحه فلو وقف على سر الحياة لفتح السماء . ولكنه يتقدم أبدا ليكشف عن الروح والروح من ورائه . . . . . فهيهات

القياسَ وكيف يُخرجُ معنىً من معنى حتى تكونَ النتيجةُ على ماتوهَّم والحقيقةُ على مايقيسُ والصوابُ كما يستخرج . وفى علم الحياة خاصةً ـ وهو العلم الذى لامادة له إلا من الحوادث ـ أن بناءًا من المنطق لايتَّخذه بيتاً إلا ساكنٌ من الخيالات . . . .

لستُ أعرفُ الناسَ قد غالَوْا بشىء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة · فقد والله استجمعوا لها كلَّ مافى الرغبة من الحرص ، وكلَّ مافى الخوف من الحَذَر ، وكلَّ مافى الأمل من الترقُّب ، وكلَّ مافى الحب من الخَيال ؛ واستجمعوا فوق ذلك تلك المعانىَ التى لاقرارَ لها فى الأرض ولا فى السماء : معانى النظرات الوهمية التى يُرساها المخلوقُ من أرضه الى عرش الله كأنه لايَجْرُؤ على أن يشكَّ فى نهاية الحياة إذ هي تنتهى على أعْيُن الناس ، ولا أن يجزَم بهذه النهاية إذ هو لا يريدُ الموتَ وكأن الحياةَ لاتكفيه ·

ومادام للحياة غدٌ يُرتَقَبُ وهو الذى يسمونه المستقبل ، فكلُّ وهم يَسهلُ على الحقيقة أن تُهلكَه أو تُمرِضَه أو تُضْعِفَ منه إلا تلك المغالاةَ الممقوتة فانها أبداً فى خِصْبٍ وعافية ما بَقِيَ لها غذاءٌ من ذلك المستقبل المحجوب .

« قال الشيخ على » : وأنت اذا سألت رجلا عن مسئلة فسَدَّد الجوابَ وأحكم الصوابَ قلتَ هذا جوابٌ يَحْسُنُ السكوتُ عليه ؛ ولكنك إذا سألتنى أنا ماهى الحياة كما يفهم الناس ؟ قلتُ

لك هذا سؤالٌ يحسنُ السكوتُ عليه . . . . لان اللغة هي هي التى أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيهُ من أوهام الأحياء ، وكم فيما وراء السماء من معاني تملأ الأبد ولعلها لا تملأ سطراً أو سطرين فى معاجم اللغة . ولكن دع هذا وسلنى ماهو الزمنُ الذى يقضيه الانسانُ من يوم يولدُ فلا يقدرُ أن يرفضَ هذه الدنيا الى يوم يموتُ فلا تستطيع هذه الدنيا الآن ترفضه ؛ وما هو هذا المهدُ الذى يكبرُ شيئاً فشيئاً حتى يصيرَ فى الآخر قبراً ؛ وما هو هذا العمر الذى يمتلىء قليلاً قليلا حتى ينتهىَ الى الفراغ فيغيبَ فيه ؛ وما هى هذه الحوادثُ التى تزلزلُ الناسَ (١) فى طريق القدَر حتى يخرُّوا على وجوههم فتتحول أجسامُهم فى الأرض الى تراب فى طريق المنفعة ويتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة ؟

سلنى كذلك يابنىَّ أُجبْك : هذا الفناءُ المحتومُ وهذا الشقاءُ المقضيُّ وهذا الأملُ الباطلُ وهذا النَّصبُ الضائع وهذا العملُ الذى لا يُرادُ لنفسه ولكن لما بعده ؛ كلُّ ذلك هو الحياة . أفلا ترانا نخادعُ أنفسنا اذا سألنا عن الحقيقة التى يسوءُنا أن نعرفها فنحرفَ السؤالَ الى جهة بعيدة لكيلا نرى الجوابَ الصحيحَ مقبلاً علينا ولكن مدبرا عنا ؟

---

(١) تسوقهم بعنف يقال جاء بالابل يزلزلها

فما عسى أن تكون هذه الآمالُ وهذه المنافَسَاتُ وهذا النزاعُ وهذا الصراعُ وهذه الأفراحُ وهذه الأتراحُ وكلٌّ ما الى ذلك مما هو من مدلول الحياة — إلا باطلا نَستَمْتِعُ به قليلا ثم يظهر أنه مَتاعُ الغُرور ؟

ما عسى أن تكون الحياةُ بكل ما فيها الا مدةً محدودةً على ظهر الأرض تجعلها أوهامُ الانسان ومطامعُهُ وحماقتُه وجهْلُه وكبرياؤُه كأنها الأبدُ كلُّه ، فيكدُّ ويكيدُ ، ويعملُ ويدَّخِرُ ويهنأُ ويحزنُ ، ويطمعُ ويحرصُ ، على نسبةٍ من ذلك لامن نفسه أي نسبةٍ أبديةٍ لا انسانية . ألا إنما مَثَلُ هذا الانسانِ المغرورِ مَثَلُ رجلٍ جمع الله عليه المصيبتين فى باصرَته وبصيرته فضَلَّ فى مكان فهو يُقبِلُ ويُدْبِرُ فى دائرة من فضاء الأرض لا يهتدى الى الوجه ولا يذهبُ على السَّمْت ، فيتوهم أن الطريق لا ينتهي وأنه وقع فى صحراءَ لم تَدْرُسْها عكّازته .... وليست من علم رجليه فى جغرافية هذه « المسكونه » . . . . وكما لا تكونُ الطرق عند هذا الأعمي إلا من علم رجليه فاكثرُ طرق الحياة عند هؤلاء المغفَّلين الذين يَطْمِسُ اللهُ على بصائرهم هى من علم بطونهم وما أدراك ما علمُ بطونهم ...؟ وما رأَت الحكماءُ أحداً قط جهل حقيقة معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة فى بطنه . . ، ولذلك قالوا : من كانت هِمّتُه ما يدخلُ جوفَه كانت قيمتُه ما يخرج منه . . . .

وانما البطن جوعٌ فشبع وشبع فجوع ، وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء الا جوعاً في الشهوات والآمال فلا يطفئه إلا ما يسعِّره ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لا بد أن يرجع التعب به ؛ جوعٌ في الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن لأن علم الحياة عندهم علمٌ بالبطن لا بالعقل وكلاهما مثلثةٌ بهذا الانسان (١) ويالله كيف يريد الانسان أن يحيا كما يحب ثُم يحب ما لا يتفق مع سنن الحياة ؟

من أجل ذلك شقى أكثرُ الناس بالعقل إذ يقلِّبون به الأمورَ ويحتالون منه الحيلَ ويُكرهونه أن يعملَ على السُّخْرَة في لذة الجسم ويُحْضِرونه من هَمِّ الشهوات الحيوانية ما لا قِبَل لهذا الرُّوح الالهىِّ أن يستَكْلِب فيه ؛ (٢) وإذ يُخْضِعُونه بدلاً من أن يَخْضَعوا له ويسيرون به بدلاً من أن يسيرَ بهم ؛ فكان من ذلك طُغيانُ الحواسّ وطَمْسُها على الروح وتَعْفِيَتُها على آثارها الانسانية ، ولاجَرَمَ كان من وراء ذلك طغيانُ هذه الفوْضَى المترامِيَةِ في الاجتماع وانْبِثَاقُها بالشر من كل ناحية ؛ وتداخَلَتْ حُدودُ المطامع بعضُها في بعض فصار الناسُ كالأمواج لا تقوم القائمة إلا من سقوط الساقطه .

---

(١) المثلة التنكيل

(٢) أى يظهر من الحدة الحيوانية كأنما اصابه الكلب (بفتح اللام) وهو جنون الكلاب

وكان الناسُ يتعلمون كيف يَسبحون فى بحر الدموع ليأمنوا الغَرَقَ فيه وليَستَنقِذوا الغَرْقى منه (١) فجدّتْ بهم الحوادث حتى تعلموا القتالَ عليه وصار من لم يستطع أن يُنقذ نفسه يجتهدُ أن يُغرق غيره . . . !

الانسانُ حيوانٌ لولا العقلُ ، فلما أخضع لشهواته العقلَ صار انساناً لاحدَّ له فى الحيوانية فهو من هذه الجهة لا انسانٌ ولا حيوان ؛ وان كان الشيطان مطرودا من رحمة الله فخيرُ مايقال فى هذا الانسان أنه شيطانٌ فيه موضعٌ للرحمة . . . .

ولقد خلق الله هذه الحواسَّ ولا ضابط لها إلا العقلُ يُحْكِم تحديدها ، ويتولّى تسديدَها، ويستعين فى أمرها بكلٍّ على كلٍّ ، ومن ثمَّ يستقيم من هذا الانسان شىء معقول ويُصبح قد ضُربت عليه الحدودُ لا يتعدّاها ورُسمت له دائرةٌ فى الانسانية لا يُجاوِزُها فيقرُّ كلُّ امرىءٍ فى حيِّزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائقُ من العقل وبيّناتٌ من الحق اذا هو حاكَمَ اليهم ضلالةً منهم أو حاكموا اليه ضلالةً منه ؛ (٢) وهنالك يرى كلٌّ

---

(١) كناية عن المواساة فى الأحداث والمصائب والاحزان ومساعفة بعضهم بعضاً وهى من شروط الأيمان

(٢) متى لم يكن انسان فى حيزه وطغت به شهواته وأسرفت عليه حواسه ، انقطعت الصلة بينه وبين الناس من جهة أو من جهات ، وحينئذ

عمل طيّب ثوابَ نفسه لأنه هو من فضائله كأنه شريعةٌ لنفسه ومتى كان العملُ الطيبُ مما يُجْزِىُ في ثوابه عند الرجل من الناس أنه عملٌ طيبٌ ، فقد أصبح ولا غروَ من سعادته إذ لو لم يجد به سعادةَ لما لقى منه ثواباً ؛ وبذلك ـ بذاك وحده من دون كل الوسائل الاخرى ـ تُصبح السعادةُ عملاً من الأعمال يمكنُ أن يُمارسه الانسانُ فيَسعدَ ماشاء الله أن يَسعد ، ثم تكون الحياة على ذلك واجباتٍ يَقضيها فان تحققت أو لم تتحقق فإمّا دَخَلَتْ على نفسه بسرورها وإما خرج منها بعذره وقد أَبْلى عُذْراً . ومتى صارت

لا يجد فى الرذيلة معناها إذ هى رذيلة فى تحديد الناس وفيما تواضعوا عليه من معناها وحدّها ، فيضع هو لها تعريفا جديدا تكون الرذيلة فيه كل مالا يوافق هواه ولا يساعف أغراضه ، ويصبح كأنه وحده دنيا وكأن الناس دنيا أخرى فكل مااعترضه أو صادمه من مصالحهم ومراشد أمورهم عده عند نفسه رذيلة . . .

ومن ههنا ترى بعض (فلاسفة الشهوات) فى التمدن الاوربى الفاسد يعدون حياء المرأة المحصنة ضعفاً وعفافها مرضا من أمراض النفاق ووفاءها لزوجها أثراً من العبودية ، ثم يرون الاديان كلها أوهاما يقيد بها الانسان نفسه ، و يتتابعون بمثل هذه الآراء فى كل ما اصطلح الناس على أنه فضيلة أو انسانية . ولو هم حققوا و رجعوا الى مأتى ذلك فى انفسهم لرأوه أثرا من أعصابهم المريضة ولرأوا أنفسهم في جنون الشهوات صورة أخرى من مجانين العقول . . . . . .

حياةُ رجل من الناس الى أن تكون واجبات يتنجزها ويستقضيها من نفسه فما ثمَّ لشهوات البدن موضعٌ الا كموضع النار من يدى المصطلى ، لايُراد منها الا حرُّها ولا يُطلبُ من حرها الا قدرٌ معلوم ، ولا يبتغى هذا القدرُ الا مدةً بعينها ، ولا تكونُ هذه المدة الا بمقدار ما يُصلحُ أو يدفعُ الأذى لا سرفَ فى كل ذلك ولا هوانَ ولا مضيعة

قال « الشيخ على » : ولكن كل شر العالم يابنىّ فى لفظ واحدٍ هو طغيانُ الحواس ، وبمعنى واحدٍ هو إذلالُ العقل ، ولغرضٍ واحدٍ هو هذا الموتُ الادبىُّ الذى يسميه المغفلون سعادة الحياة . منذ طغت الحواسُّ أصبحت الحدودُ بين مطالب الانسان من فضائله الى رذائله ولأَثرَ لها الآن الشاطىء لا يُعرف تحت السيْل (١) اذا طمَّ عليه ، فما أنت ولا أنا ولا أحدٌ يدرى ماهو حدُّ الكفاية

(١) كل الشر فى هذه الدنيا أو ما نعتبره شرا يرجع اليه نكد الانسان وبلاؤه — انما يأتى من زيغ الحاسة فى فرد فرد من الناس ، فتكون الطاقة محدودة بحدود كثيرة من قوة صاحبها ومن أحوال الناس ومصالحهم ، ولكن الرغبة تجرى مطلقة متخطية كل هذه الحدود ؛ ومن ثم يقع الاختلال بين مقدار القوة وغاية القوة ، وبين الحقيقة الواقعة التى لا تتغير والحقيقة المتوهمة التى لا تتحقق ؛ ولا يبالى الناس من ذلك شيئا لان الحدود قائمة بينهم برسومها والحقائق مقدرة بمقاديرها ، فلا يحل ضرر ذلك الا بصاحبه

فى رغبات هذا الإنسان وأهوائه، بل صارت هذه الكفاية وما ينطوي تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما اليها ألفاظاً خيالية يُسايرُ ظاهرها ظاهر الانسان، فلاحدَّ لها مادام هو لا يُثبتُ لنفسه حداً، ولا تتأخرُ مادام هو يتقدم. وأصبح أكثرُ الناس فى رغباتهم الخيالية وما يعملون لها مدة الحياة كرجل ائتلى (١) أن يخطَّ دائرة مركزُها ليس فى محيطها فكلما رسم دائرة رأى المركز فى داخلها فيجتازُ به وراء المحيط ثم يُدير يده فاذا واحدةٌ أخرى تُقاطعُ الاولى ولم يصنع شيئاً صحيحاً مما يحاوله. ويمضى على ذلك ماشاء الله ولا يصنعُ شيئاً فلا هو يُخطِّىءُ رأيه ولا هو يرى من عمله شيئاً صحيحاً؛ وما بقى من الارض فضاءٌ لم يخطَّ عليه بعدُ فهنالك، هنالك يرى هذا الأحمقُ الدائرةَ المتوهمةَ

لا يعدوه وهذه مادة السخط والهم والنكد والتعاسة فى أكثر الناس حين لا يتحقق لصاحب الدرهم من قوة الملك في درهمه ما يتحقق لصاحب الدينار من ديناره، ومتى ماطفت الحاسة وفاتت مقدار الجهد والطاقة ونزامت الى البعيد البعيد منهما، كان هذا البعد هو بعينه مسافة انحراف الفضيلة عن نهجها وسبيلها فتخلفها الرذيلة على مكانها. وهنا عمل الايمان وفائدته فهو تحديد الشهوات والرغبات والتخلية بين كل انسان وحدوده التى بلغت اليها فضائله ومواهبه. ففلسفة الايمان والسعادة والفضيلة تجدها كلها في قوله تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم» (١) حلف وآلى

التي يخرجُ مركزُها عن محيطها . . . .

من هذا ونحوه أصبحت السعادةُ وهماً من الأوهام إذ لم تَعُدْ في إشباع العواطفِ وتغذيةِ الشعور ، وليست في موضعها الذى هو بين الضمير والعقل ولكنها فى إشباع جَسَد لايشبعُ مادام حيًّا ؛ وفى تغذية حاسة لا يَزيدها الغذاءُ إلا شرَهاً وضَرَاوةً فلن تكتفىَ الا اذا بَطَلَت ؛ وفى موضع مجهولٍ بين هذه الحواسِّ لاحدَّ له إلا كالحد بين ما يجدُ المُعْدِمُ وما يتمنىَّ .

فالسعادةُ على ذلك هي دائماً فى الاستعداد للسعادة . . . ؟ وكَفَى بهذا عَبَثاً .

ولَعَمْري ماذا تكونُ الحياةُ بل كيف تكون ؟ أليس يعلم الانسانُ أنه سائرٌ الى الموت ويعلم كذلك أنه طالبٌ مالا يموت ؟ فلا جَرَمَ كان شعورُه بهذا التناقض مؤلماً وكان هذا الألم هو منشأ الهموم التي لا تدَعُه لنفسه ولا تدَعُ نفسَه له ، وكانت حقيقةُ هذه الهموم التي يجمعُها كلَّها هي شعُورُ الانسان ـ شعوراً فطرياً جرى منه مَجرى العادة ـ بالمنازعة بين مايطلبه هو فى الحياة وبين الحقيقة التي تطابه هو من الحياة (أى الموت) . ومن ثَمَّ يضطربُ كيانُه العقلي ، فيؤثر كلُّ شيء فى نفس هذا الانسان تأثيراً أكبرَ من حقيقته لأن حقيقة هذا الانسان لم تَعُدْ فى نفسه بل فى مطامعه .. فهو يابنيّ كالوعاء المثقوبِ تَصُبُّ فيه البحرَ ولا يزالُ فارغا ،

والحياةُ عنده دائما هي طلبُ الحياة ، وكفى بهذا عَبَثاً . ولاتحسبنّ أنه لايبالى بما مضى من عمره بل هو يَستشعرُ فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذى مضى هو أكثرُ العمر وأطيبُه ولذلك لايبرح شقياً بما يُحاول ، إذ يُحاولُ أن يجمعَ طيِّباتِ الحياة ويَستحوِذَ عليها فى القليل من عمره ليَستمْتِعَ بهافيماوراءذلك ، كأن الحياة التى قِوامُها من الغِذاء لاتُفارِقُ الانسانَ مادام الغذاءُ فى بيته وكأن الله يبيعُ المستقبلَ لمن اجتمع له من الدنيا ما يتوهم أنه يقومُ ثمناً للمستقبل .. ..

لايبرحُ هذا الانسانُ شقياً وهوأبداً من الهمّ والغيظ والتوقّد واشتِعَال الأمل والاضطرابِ فى أسباب الحياة كالسِّكّةِ المحْماة ، (١) يحسبُ ذلك من نفسه قوةً وفضلاً وسَعةً فى الحيلة ولايدرى أن هذه النار المشبوبةَ فى صدره تقطعُ منه أكثر مما تقطعُ به ، وأنها كما تُعطيه قوةَ المُضِيِّ فى هِناتِ الحياة وهَيِّناتِها تُعطي الأقدارَ الصَّاْبَةَ مثْل هذه القوة عليه فلا تكاد تَصدِمُه من أيِّ أقطاره (٢) حتى يَتَثَلَّمَ ويَتَفَلَّل .

وهل تحسبُ مثْل هذا يكونُ عِدادُه فى أهل السعادة وهو من الحرص على الحياة يكاد يَشَمّ ترابَ قبرِه فى كل حادثة تُلمّ به؛

(١) نصل يحمى في النار فيكون ذلك أشد لمضائه

(٢) أى من أى جهاته فى الحياة كالصحة والغنى والامن ونحوها

ولا يزالُ يُصْلَبُ على كل باب من أبواب الأَيام حين يفتحُها الصباحُ وحين يُغلقُها الليلُ ، ويُرْمَى بالنَّبْل المسموم من فَضُوحِ الدنيا وشهواتِ النفسِ الدنيئة ، ويُقتَل ضميرُه كل يوم قَتْلَةَ الكَذِب والغَدْرِ والإثم لان ذلك من وسائل الحياة التي تبَسط عليه الدنيا ؟

وما ظنُّك بسعادة أولها حبُّ النفس وآخرها بغضُ الناس ؛ ومن مقدّماتها منازَعة الفرد للمجموع ومن نتائجها منازعةُ المجموع للفرد ، ومن مبدئها درسُ الشر علماً ومن غايتها مُزاوَلة الخُبْث عملاً ؛ ولها اسمُ السعادة وفيها معنى الشقاء ؛ ومن شروطها على صاحبها أنها لا تُمْتِعُه الا بما يُملّه ولا تتبرَّج له الافيما لاينالُه ولا تظهره للناس أبدا الا ليرَوا فيه رذيلةً من الرذائل ؛ ثم لا تكون مع ذلك في موضعها الا كالفقر في موضعه : هذا يُوازِنُ بين نِعم السماء التي تنزل على الضمير وبين هموم الأرض ، وتلك توازن بين هموم السماء التي تنزل على الضمير وبين نعم الأرض ؛ وآخر أمرِها أن لا يعرفها صاحبُها الا على الضِّد مما يعرفها الناس ، فهم يسمعون لها الأَصواتَ العاليةَ مِن الأمرِ والنهي والجاه وما اليها وهو يعلم أن هذه الاصواتَ لم تخرج منها الا لأنها كبيرةٌ فارغة . . . .

قال (الشيخ علي) : وبذلك يا بنيّ خسر الناسُ لذةَ الحياة فلا أدري أهمْ بشَرٌ أم آلهة لأنى أرى كلَّ حي كأنما يريد أن يَرِمَّ صَدْعاً

فى الكون وأن يصلح من هذه الدنيا ونظامها مالم يصلح له . ولماذا؟ لأن الدينار الواحد نواة ذهبية ولكن هذه النواة لا تخرج لكل انسان نخلة من الذهب.... ولماذا أيضاً؟ ولأن أكل هذه النخلة حين تؤتى أكلها لا يكون الا مراً .

ولكن أليس فى الارض غير المال ما يمكن أن يستلذ وأن يسمى نعمة ؛ وأين هى تلك السوق التى تعرض فيها النعم الهنيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار ؛ يبيعون المريض من أولئك الاغنياء عافية والضعيف قوة والحزين مسرة والخائف أمناً والفزع اطمئناناً والهرم شباباً والمهزول جسما روياً والميت رجعة أخرى .....؟

ألا فليعلم الانسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لابد منه لنظام الحياة فسيأتى إن خيرا وإن شرا ، فكأنا يسمى الصعاب التى تعرض له فى طريق الحياة عقبات لأننا لا نبصر ما وراءها ولا نعرف فى أي موضع تقر من نظام الحاضر أو نظام المستقبل وهى لو تعلمون وسائل لما بعدها فما تراد لنفسها أكثر مما تراد لغيرها، وهي بأن تكون مقيدة بهذا أحرى من أن تكون مقيدة بذاك . ورب صخرة حالت فى طريقك لتلفتك الى هاوية من ورائها أو لتتقى بها عدوا يدلف اليك من ورائك.

والأَعرجُ الذى يتأبَّطُ سنادَه (١) ويتخذ منه رِجلاً تبدأ من الكَتف لايكادُ يعرجُ بضعَ سنين حتى يستفيض صدرُه وَيكْتَنز عضَلُه ويَتفتَّل ويصبحَ لحماً بادناً كأنما جمع فى زَنْده حجمَ يده الى حجم رجله التى رُمِي فيها وكان مُرْهَفاً دقيقاً متَهدِّمَ الصدر بارزَ الأَضلاع خاوِيَ العُروق ممسوحاً فى جملته ثمَّ أنت لا تراه الا ساخطاً متبرِّماً يكاد يتحطَّمُ غيظاً وهو يلعن سِنادَهُ وما حملَ .... واليومَ الذى حمله فيه والسببَ الذى حمله به ويرى كأَن العرجَ هو الذى قطعه عن شأْوِ المعالي وكان سبَّاقا ....

ويظن عند نفسه أَن هذا العرج قد جعله فى مِشْيته المثّلَ المضحكَ على مَسْرح الحياة.

ولا كلَّ هذا يارجل ؛ فهل نسيتَ ويحك أَن السُّعال كان يَنْفُضُك نفْضةَ الموت وان البرد كان قد اتخذمن أَضلاعك سقفاً يأْوى اليه وأن الأمراض لم تبرح ترميك آوِنَةً بعد أخرى كأَنها تُليِّنُ عظامك العاسيةَ للضَّجْعة الأخيرة وأنك كنتَ لامَحالة هالكاً تنفُثُ رِئتَيك من شفتيك ، وتبصقُ روحَك تحت رجليك ؛ وأنه لولا الداءُ الذى يسمى العرجَ لهلكتَ بالداء الذى يسمي السّل ؟ (٢)

---

(١) وضعناها لهذه الحالة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله لانها تسانده (٢) انتهى الطب اليوم الى معالجة الشلل باحداث الملاريا

هذه واحدة يابنىّ وما من واحدةٍ إلا هى أختها، وحكمة الله لاتختلف بل هى هى فى كل شىء وان كنا لانعلم وما خُلق شىء عبثا فتعالى الله الملك الحقّ ، ولقد أعرف ان ما لم يقض لى فهو مقضىٌّ لغيرى وأنه لابد أن أذهب فى هذه الحياة بقسط من مصائبها لأنه جزءٌ من نظامها يتوقّف على وجودى ويتوقف وجودى عليه ، وهل أنا بدنٌ يملأ الأرض ورأسٌ طبّق السماء فيكون الفلك عمامتى ، والقضاء غمامتى ، وكلٌّ خير لهامتى ؟ .

إنْ أنا يابنىَّ من هذا الناس فى أقدار الحياة المكتوبة إلا كالجندىّ فى العسكر نصبته الحرب آلة حيةً تحركها الألفاظ والاشارات من حيث تأتى ؛ فهو يندفع الى الموت ويَشوى من لحمه على النار متى أرادتْ خطةُ الحرب أن تنبعث وتتحرك ، وانما هو بجسمه وروحه وعقله نقطةٌ صغيرةٌ فى خط صغير من خُطط كثيرةٍ مثله رُسمتْ بها فكرةُ أمير الجيش على صفحة الميدان؛ فليس للجندىّ أن يسأل عند الحركة لماذا ....؟ إذ هو لا يجدُ عندئذ من يقول له لأن ....! ولكن متى ازفتْ الآزفة وحقّتْ النهاية بالنصر أو الهزيمة رأى العملَ الذى وراءه كأنما انقلب أحرفاً وكلماتٍ يستوضحُ منها فكرةَ القائد كما رسمها .

قال «الشيخ علي» : ومن الأسئلة فى هذه الحياة مايولدَ حين

يموت جوابُهُ كما رأيتَ (١) فهو حمقٌ من السائل ومَضيَعَةٌ لأنه لا جوابَ عليه ، وربما اعتدَّه الاحمق مُعضِلَةً من المعضلات وكَدَّ ذهنَه فيه وقَصَر همَّه عليه وجعل يَلقَى به الناسَ ويَفتَتِح له الاحاديثَ ، وذلك سُخفٌ لا يوجد به الجوابُ الصحيحُ ولكن يضيع فيه السائلُ إذ يَستنفدُ من وُسعِه وعمله وحيلته ثم لا يَردُّ عليه من كل ذلك سوى الخيبة . وهذا أعزك الله سرٌّ من أسرار ضيق الناس بالحياة وتَبرُّمهم بأقدارها لأن أكثر أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال فما أقلَّ من يَنتهزُ من يومِه قبل أن يذهب يومُه وما أكثَر من يريد غداً قبل غد ...

ولكأنى بهذا الانسانِ يودُّ لو أسرع الفلَكُ فى دَوْرَته وجعل يَرْمى به المرامِىَ البعيدةَ لينهبَ ما فى الغيب نَهْباً ولينال الممكنَ كلَّه وشيئا من المستحيل أيضا ... .فيحيا بعدذلك حياةً طيبةً عذراءَ لاتلد لياليها من مواليد الغيب قليلاً ولا كثيراً ...

دونك آمالَ الناس فانظر هل تجد فى هؤلاء الحمْقَي من يصُبُّ آماله إلا فى قالَب يسَعُ ضِعفَيْها على الأقل وهو يحسب أنه بتوسيعه لها يُخفى جانبَ الاستحالة فيها ولايدرى أنه يُخفي جانبَ الممكنِ المعقول أيضا . يصبُّها فى قالبِ التمنى وما موضعُ التمنى فى عالَم الحِسِّ وفى هذه الحياة الارضية التى لا

(١) أى فى مثل الجندى وسؤاله لماذا ؟ عند مايؤمر بالحركة الحربية

تزال تضربُ جيلا بجيل . وتدفنُ قبيلاً بأيدى قبيل، ويُهملها الانسانُ فى الكثير وهى لا تُهمله فى القليل. وهل التمنى أن تكونَ حوادثُ الحياة ما أريد أنا وماتريد أنت وما يريدُ فلانٌ، الا كما يتمنى كلُّ انسان من هؤلاء أن يكونَ غيرَ نفسه وكما يتمنى الطفلُ حين يُجيبُ معلمَه خطأً ويعلم أنه أخطأ ـ أن يكونَ الجواب حقيقةً كما أخطأ . . .؟

وقد يقال إنه ليس فى العلماء أحمقُ ممن يَكدُّ ذهنَه فى ابتكار جوابٍ غريبٍ لمسئلة لا تقع لانسان ولا يحتاج أحدٌ الى جوابها ؛ فكذلك لم أر فى الجهلاء أحمقَ ممن يسأل الحياةَ سؤالاً لاجوابَ عليه أو لا يفهم الجوابَ عليه . كلُّ ذلك حمقٌ وكل ذلك سخفٌ وكل ذلك عبثٌ وباطلٌ ، ولكن يا أسفا على الناس؛ كلُّ ذلك أيضا من مذاهب الحياة وكلُّ ذلك من الواقع .

فالناس من بين طامع جرىء إن نفعته الجراءةُ ذهب بمنفعتها الطمع ، وقانع ساكنٍ ان أفادته القناعةُ ذهب بفائدتها السكون ومُتَحيِّلٍ على الغيب يستجمعُ له والواقعُ قد نفذَ فيه، ومُتَبرِّمٍ بحاضره يبنى على السماء والأرضُ تهدم منه ؛ وقليلٌ من الناس المؤمنُ الوثيقُ الذى يشعرُ بقوة الله فى كل ضيق ؛ فان لم ينصره الله على الحياة لا يخذُلهُ فيها ، وتراه لايشك فيما يعرفُ ولا يريد أن يعرفَ مايشك فيه ، وهو يعلم أنه ليس شىء من المصائب والنعم

يمكن أن ينزلَ في غير موضعه المهيَّأ له إذ ليس في هندسة الله مكانٌ مختلٌّ (١) ، وأن النعمة الصحيحةَ ليست في لذّات الانسانِ الحيّ ولكن في حياة هذا الانسان إذ الحياةُ الصحيحة هي التي توجِدُ اللذة ، وأن القوة التي تسمو بالحياة حتى تُسخِّر لها الطبيعةَ تسخيراً انما هي قوةُ العقلِ فان وَهَنَ العقلُ صارت الحياةُ طبيعيةً حيوانيةً لا لذة فيها مما خُصَّ به الانسانُ دون الحيوان من رَوْح الله ، بل تكون اللذةُ كلُّ اللذةِ هي فقدانَ الالم أو اطفاءَه إن تَسَعَّرَ (٢)

---

(١) لو أن الله تعالى مد في نظر الانسان فاخترق الكون كله وأصبح إن يرم بعينيه يبصر كل ماوسعته الارض ، ثم بسط من سمعه مثل ذلك فعادت الاذن الانسانية وعاءا لكل صوت يتكلم به متكلم أو يصيح به صائح في كل ماوسعت الارض — لو كان ذلك لما عاش الانسان لحظة واحدة ولو عاش لكان من كثرة مايرى ويسمع لايرى ولا يسمع .

فكذلك هو في الشهوات يحدها الله بحدود من رحمته فيما يوسع أو يضيق وما يعطي ومايمنع ، ويأبى الانسان لحماقته وجهله إلا ان يمدها ويبسط منها أنواعا وفنونا وما يدرى انه بذلك يزحزح الحجر الذى هو اساس بنائه شيئاً فشيئاً فيهلك نفسه ويفقد سعادته ويضيع انسانيته ويخر أعلاه على أسفله . . .

(٢) من سنن الطبيعة أنها تجعل اللذة شرطاً في كل عمل لا يقوم الكيان إلا به . فاذا لم يحدث هذا العمل ضربت الآلام على الجسم . فالطعام ضرورة من ضرورات الحياة اذا فقد كانت آلام الجوع واذا تيسر كانت لذة الاكل ، فكأن هذه اللذة ليست في حقيقتها شيئاً غير انطفاء الألم وقس على ذلك

وتالله لو أُفْرِغتْ طيِّباتُ الدنيا فى جوفِ هـذا الحيوانِ الانسانىِّ الذى وصفْتُ لك ممن يسمونهم الأغنياءَ والمستمتِعين وأهلَ الحظ والهناءةِ مازادت فى لذته على ما يكون من إفراغ حقْلٍ من البرسيم فى جوفِ حمار . . . .

قال « الشيخ علي » : وكما يفقدُ أكثرُ الناسِ السعادةَ فى كثرة الاستعدادِ لها والإغراقِ فى وسائلها يجدُها بعضُهم فى إهمالها حين لايبحثُ عنها ويذهبُ باحثاً عن حقيقة الحياة .

وياعجباًللناس كأنهم ملكوا الأعمار ،وضمِنُوا لأنفسهم دولتَي الليل والنهار، فقلَّما يفكرِّ أحدُهم إلافى زادِ الدهرِ البعيدِ والحياةِ المُتَطاوِلةِ والأمَدِ الواسع وهو لايرتابُ فى أنه لايعيشُ غيرَ عمرٍ واحدٍ محدود ، ولـكنه لا يدرى أنه يحملُ على نفسه من تلك الأطماع شقاءَ بِضْعَةِ أعمارٍ طويلة عاليةِ السِّنِّ ويسوقُها بين يديه ظالِعَةً عرْجاءَ تطلبُ السعادةَ فى طريق لاآخرةَ لهُ ، فهى تسيرُ لأن بين يديها غرَضاً ماينفكُّ ماثلاً على بُعْد منها ثم تنبعثُ لان الطريقَ لاتنتهى ، ثم تقفُ عاجزةً لأن الحياةقد كلَّت ، ثم تقعُ وما بها حركةٌ لأنها انتهت الى الحفرة المجهولة التى تنشقُّ تحت قدمَىْ كل انسان فى الساعة التىهو رَهْنٌ بها ولوكان طريقُه فىالنِّعم واللذَّاتِ على وادى الجنة بين الشمس والقمر .

كلُّ شيء هو ماشئتَ أن تتوهم ولـكن الحياةَ هى الحياة .

هي الحقيقة التي تريد أن تُعرَف ، والمدة التي تعملُ على أن تنقضي ، والمعنى الذى تطير حوله الأقدارُ وتقع لتلفتَ الناسَ اليه . هي الحياةُ التي لا تتسع لأكثرَ من قضاء الواجبات ولا تَحْملُ جسدَها إلا ريثَما تُبْليه ، واسمُها الحياةُ ومعناها النجاح ، وهي الحياةُ لا المالُ ، والحياةُ لا الشهواتُ ، والحياةُ لا المطامعُ ، وانما قيمةُ الحياة فيما تذهب فيه لا فيما يذهبُ بها ؛ فكلُّ لذة لا تجدُ لروحك أثراً فيها لذةٌ ميِّتة وحقيقٌ بك عندها أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو من فضيلتك قد مات فيها (١)

ولقد نقلوا فى أساطير الاولين عن (ميداس) أنه بلغ من فَرْط الغنى أن لا يلمسَ بيده شيئاً الا استحال ذهباً فأرادت آلهةُ الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يَسْحَرَ أعينهم أو يَسْتَرْهِبَهم وان يعلموا أنه انسانٌ وأن فَرط الغنى مُثْلةٌ به فمسخ « أبولون »

(١) السعادة فى رأينا : هى كل ما استشعرت النفس أنها زادت به أو زادت فيه ؛ وهذا التعريف يجمع كل أنواعها لا يشذ منه شيء فهى على ذلك تكون فى الاخذ وتكون في العطاء ، ألا ترى الاصل الطبيعى فى الحب يجعل سعادة ما يناله المحب من حبيبه كسعادة ما يبذله له حتى إنه ليبذل روحه فى ذلك اذا علم ان نفسه تزيد بها شأناً عند من يهواه ؟

ومن هذا فالتعاسة فى كل ما استشعرت النفس انها نقصت به أو نقصت فيه ، ومن ثم فكل فضيلة هى من السعادة وكل رذيلة هى من ضدها ولو كان الالم والحرمان فى الاولى وكانت اللذة والمنالة فى الثانية ، هكذا (قال الشيخ على)

أذنيه فكانتا . . . . أذُنَىْ حِمار. ولعل فرط الغنى يابنى لايكون في الأعم الأغلب إلا مع هذه الآذان . . . . وما أملحها نادرةً وأبدعها إشارةً وأحكمها مُلْحَةً فان كل مافى الحمار لابد منه لتكوينه حماراً سوياً إلا أذنيه الطويلتين (١) . فلو حملهما إنسانٌ كميداس رُزِقَ غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بانسانٍ صحيح ولم يستطع أن يكون شيئاً حتى ولا حِماراً من الحمير .

وأىُّ شيء هذا الغنىُّ الذي يأكلُ ويتمتّع ولا يرْتعى من لذات الحياة إلا الخضراءَ الناضرةَ ، وقد سُلِّط على هلَكَةِ ماله أو سُلِّطَ مالُه على هَلَكته (٢) فان ذهبتَ تعتبره إنساناً لم تر فيه من الانسان إلا النصفَ الأسفل ....

أهو حيوان ؟ فأين عملُه الطبيعيُّ إذَنْ ؛ فانى لا أرى هذه الحيوانات (٣) كلَّها إلا عاملة لنظام الطبيعة كما تعملُ الطبيعةُ لها أم هو انسان؟ فأين عملُه الاجتماعيُّ الذى يُسنِّى منزلتَه اذا أصبح

(١) يتنابز الناس بأذنى الحمار الطويلتين ويجعلون طولها مسبة ويقولون مثلا : فلان حمار بأربعة آذان ؛ وماذا ونقص الحمار طول الاذنين؟ لاشيء إلا اعتباراً أدبياً يخدع الناس فيوهمهم بأذنيه القصيرتين المرهفتين أنه يشبه الجواد الكريم في حين هو لايشبه إلا •• إلا البغل العقيم •••

(٢) يريد أنه متلاف أوشحيح

(٣) لم يعرف العرب الحيوان بالمعنى الذى نعرفه به ولم يجمعوه على حيوانات وانما ذلك على قياس كلامهم فهو إذن من كلامهم

الناسُ على منازلهم، وأين الحدُّ الانسانيُّ الذى يصله بمجد الماضى. أو يدلُّ عليه فى عمل الحاضر أو يُلحقُه بأمل المستقبل ؟

إن الطبيعةَ يابنيّ لا تُغفلُ خطأً ولا تنسى مُذنباً ولا تصفحُ عن إساءة ولكنها تضربُ بيدٍ ألطفَ مساً من الهواء وأخفَّ موْقعاً من الضوء على حين أن صفعتها زلزلة لا يقوم لها بناء حيّ ؛ فلو أن مثلَ هذا الغنيّ قد أُعطي معدةَ حمار أو أعصابَ بغل أو قوةَ فيل أو نحوَ ذلك لتمَّ تمامُه بالمال فوجد فى هذا المال مسَدَّ حاجته كيف مسَّتْ . غير أنه أعطي شرَهَ الحمار دون معدته وأعطي فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون ما يحملُ ذلك وما يبعثُ عليه فكأنما مسخَ من باطنه مسْخاً على حين أن طبيعته الانسانية لا تخْلو على هذه الابواب من هذه الشهوات (١) ولا تصلح بها ولا تطعَمُ فيهما من الحياة. وقد حدَّثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى أمريكا اتخذتْ كلباً فوقع منها بموضع محبة شديدةٍ فاستصْفتْه وتحفَّتْ به وذهبت كلَّ مذاهبها فى ترفيهه وفتحتْ عليه من دنياها العريضة فنصَّت له السرير ، وفرشت له الحرير ، وأبدلته سماع الموسيقى من سماع الهرير ؛ ومنعته العظمَ يعالجه ويقرضُه ، وحرَّمته على الجوع يقعده وينهضُه ؛ ومازالت به ترأمُه وتحنو عليه فاذا هو يذْوي ثم

(١) أى لا تقوم عليها ولا تصح بها

يضعف ثم يمرض ثم هلك، وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة شر قتلة وتصب عليه العذاب صباً من ألوان ذلك النعيم، فكيف بصاحبنا الغنى حين تبالغ الطبيعة فى ترفيهه على مايشاء له الهوى من سنة الحمار والبغل والفيل وجماعتها كما بالغت صاحبة الكلب فى ترفيه كلبها على سنة الانسان ؟

قال « الشيخ علي » : الحياة يابنى مدة، والمدة ضائعة لولا العمل، والعمل على مقدار المنفعة، والمنفعة بآثارها، وهذه الآثار هى تاريخ الحياة. فالاحمق الشره الذى يعيش مقبوراً فى بطنه، والغنى اللئيم الذى يعيش مقبوراً فى خزائنه، والفاسق العاهر الذى يعيش مقبوراً فى رذائله ومخازيه، والدنىء السفلة الذى يعيش مقبوراً فى جرائمه وآثامه؛ كل أولئك لاتاريخ لحياتهم ولا حياة لتاريخهم فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب؛ يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس، وإنما يعان المخذول منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغرور وما يطوع له، وما كان الغرور وصاحبه فى عاقبة الحياة ورجع الامر إلا كرجلين من الحمقى ضمهما طريق فاصطحبا ثم أفضى بهما السير الى جبل قطع عليهما، فقال أحدهما لصاحبه إنى أراك شديد الأسر قوى البضعة وما أرى إلا أن تحمل هذا الجبل وتلقيه بعيداً من هنا فلا مذهب لنا إلا من ورائه... قال له صاحبه أما إنى كما وصفت وان بى لقدرة على حمله

فما عليك أنت إلاّ أن تضعه على ظهرى .... (١) فلا الحامل أطاق فحمل ولا المعين استطاع فأعان ، وانما هما كحمارى العبادى الذى قيل له أى حماريك شر فقال هذا ثم هذا ....

وهكذا يعين الغرور على طلب الدنيا ويزين للمغرور فلا تراه أبداً الا على زينة من أمره (٢) حتى تذهب الحياة فى باطل كالحق أو حق كالباطل ، فاذا حسم الموت عنه مادة غروره وجاءه باليقين الذى لا مرية فيه قال ويحى لو رجعت لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ؛ وآه لو عرفت حقيقة الحياة قبل الموت أو عرفت حقيقة الموت وأنا بعد فى الحياة !

أيها المغرور : ما أراك إلا دائباً فى طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ماهى ، فاياك وإياها ، لا تأخذ معنى الحياة من نفسك إن لنفسك أغراضاً حية تريد أن تكون هى الحياة ؛ ولا من الناس إن فيهم أغراض نفسك ؛ ولا من مدة عمرك فانها لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ .

ولكن أعد نظراً على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة

---

(١) سألنا بعضهم عن هذا المثل و مأخذه يظنه منقولا ؟ فهو من كلام « الشيخ على » وقد وضعنا أمثالا عدة فى كتابنا « المعركة »

(٢) أى فرحا بما لديه

آلاف سنة عُرفت من تاريخ الحياة نفسها (١) ثم من عمر الأرض، كلّه ثم من تاريخ الموت المجهول أوّله وآخره ؛ خذ معنى الحياة من هذه الافواه الصامتة التى لاتكذب لأنها تحفظ الحقيقة الانسانية ؛ من هذه القبور التى تملأ الرحب ؛ من هذه الهاوية التى ينصب فيها فراغ الحياة دائماً دائماً لأن تحتها مجرى التيار المتدفع من النهاية الأرضية المعروفة الى الأبد الذى لا تُعرف له نهاية . خذها من هذه الكلمة التى وضعتها السماء للارض ، هذه الكلمة الأزلية التى تحقق الإخاء والمساواة فى الناس جميعاً بلا شذوذ ولا تأويل ، الكلمة التى يكون القبر زاوية فى معناها ، كلمة الله عز وجلّ فى قوله تعالى « كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك »

أيها المغرور . خذ الحياة حقيقة لا وهماً وعملاً لاعلماً واسمع للحياة ان كنت تعرف لغتها أو اسمع للموت الذى يعرف كلّ انسان لغته ؛ فان كل ذلك يعلمك أن الرجل الحرّ لايعرف على أى حالة يعيش إلا اذا قرر لنفسه على أىّ حالة يموت ؛ وأن الحياة ليست فى الوجه الذى توجد عليه من الغنى الى الفقر ولكن فى الوجه الذى تنتهى عليه من العمل الصالح الى العمل السيىء ؛

---

(١) الغرض من تاريخ العمران وهو فيما كشفوا لا يتجاوز هذا الدهر، اما مدة ما قبل التاريخ فيقدرونها فى الحياة الانسانية بنحو مئتى الف سنة أكل إنسانها التاريخ فيما أكل ...

وليست فى ترفيه الحواس الغليظة ولكن فى النفس والضمير : الضمير التقى ، لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير ؛ والنفس الطاهرة ، لثواب الآخرة ونضرة الخلود ورحمة الله

قال « الشيخ علي » فلا تسأل يابنى ماهى الحياة ولكن سل هؤلاء الاحياء أيكم الحى ....

الفصل السابع

سَحق اللؤلؤة . . . .

قال « الشيخ علي » : وإني مُحدِّثك الآن حديثاً يَشفي نفسَكَ من الخَبر ويفتحُ عليك أبواباً من العِبْرة والموعظة، ويُخْبِرُكَ طرَفاً من الدنيا بأقداره وعِلَله ومذاهبِ حكمةِ الله فيه كأنما أنت شاهدُ أمرِه؛ فلتعلَمَنَّ أَن في المال مشْغلةً عما سوى المال، وان الحرصَ عليه حقَّ الحرصِ لا يُداخِلُ أمراً من أمور الحياةِ فيعترضَ بين وِرْدِه وصَدَرِه الاساءَ أحدُهما أو كلاهما (١) وفسد الأمرُ فعسى أن يتصلَ بما هو أجلُّ منه خطرا وأسنى منزلةً فلا يكون ذلك الحرصُ إلا مضْيَعَةً ولا تكونُ الرغبةُ فيما يُستَخلَفُ إلا سبباً في ذَهاب مالا يُستخلف

ولتعلمنّ أَنَّ المالَ شيء غيرُ الحياةِ وأن الحياةَ شيء غير المال وأن مايَخْتَدِعُ الانسانَ فيتلَوَّنُ له من سَرَابِ هذه السعادة انما يكون أكثرَ ماهو كائنٌ من بَريق المال يَحْسَبُهُ شيئاً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً؛ وعسى أن لا يكونَ فيما أقبلَ من نعيم الدنيا الا ما يُدبِرُ بصاحبها، وأن لا تصيبَ فيما زُوِيَ عنك

---

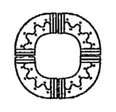
(١) أي الورد والصدر وهما كناية عن مبدإ الامر وغايته

من حظها الا ما يُقبل بحظ نفسك على نفسك

ثم لتعلمنَّ أنه إن كانت للقدر فترةٌ عن رجل من الناس، فقيراً أو غنيا أو بين ذلك فما هي غفلةٌ ولا معجزةٌ ولعلَّ الرجلَ إنما يُمَدُّ له في الغيِّ مدًّا طويلا حتى اذا جاء يومُه انفجرَ عليه بما لا يُطيقُ له سدًّا ولا يستطيعُ له ردًّا . وأنه رُبَّ كلمةً تعارفَ الناسُ معناها وأجروها على مذهبها في كلامهم فاذا هي نزلتْ بعضَ منازلها من الحياة كان لها معنى آخرُ لا تفسره الا الحياةُ نفسُها ثم لا تفسره الا على ضدِّ مأخذِهم ومقصدِهم ؛ فيقولُ الناسُ « فلانٌ الأمير » ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث الحياة وأقدارها فلان النذل . ويقولون « هذا الغنيُّ » ومذهبُ الحياة أنه الشقيُّ بغناه ، وفلان أعزه الله وانما هي أخزاه الله بعزه ؛ ويحسدون فلانا إذ يرون أن الله عز وجلَّ قد مكَّن له وآتاه من بسطة المال والجاه فهو يستعد للحياة بأفضل عُدَّتها ثم تقعُ الواقعةُ ويتغشَّى فلاناً هذا ما شاء اللهُ من الحوادث والأقدار فاذا هو إنما كان يستعدُّ للموت بأقبح عُدَّته . . . .

ولتعلمنَّ كذلك أن الغايةَ من هذه الحياة كمالُ الحيِّ في جسمه ونفسِه فان تمَّ بالفقر فذلك غناه وان نقصَ بالغنى فذلك فقرُه ، ولا شأنَ لاصطلاح الناس فيما هو خاصٌّ بين المرء وذات نفسه . وهذا معنى بسطتُه لك آنفاً ولكني مُتلقِّيكَ بمثاله من

رجلٍ وامرأةٍ ولاعليكَ أن لاتسمعَ حديثاً عن الباشا و«ها نِمه» أو أبى زيدٍ وأم الخير ، ولا علىَّ أن أجيئك بالمثالين على باخرة (١) أجعلُ ذلك من صَرَف الكلام وتزيينه (٢) وما بلادُنا من هذه المخازى بمُنتزَحٍ ولكنى أردتُ إمتاعَكَ من لذة الحديث على مقدار إمتاعِك من حكمة الحادثة ؛ والكلامُ عن رذائل الحياة فى بلادنا هذه كلامٌ غثٌّ يتحاشى عن الرقة فى أكثر مناحيه ، واذا وجهتَهُ الى أكثر قومك فانما أنت تشتمُهم به أوهم يتلقونه من هذه الجهة ، ولا مَناصَ أن تقع بك ظِنَّةُ السِّباب وان كنتَ واعظاً ويقالَ عاقٌّ وإن كنتَ برّاً وغاشٌّ وإن كنتَ من الناصحين .



(١) من خارج البلاد لان الرواية عن (فكتور ولويز)

(٢) صرف الكلام أن يزاد فيه ويحسن

﴿ الرجل البخيل ﴾

أما فلانٌ هذا فهرمٌ بخيلٌ لو مُسِخَ حجرا لتحطّمتْ من غيظها الأحجار ، ولو كان على بخله حديداً لما لانَ الحديدُ في النار ؛ ولو صوّره الله طِيناً أجوَف لما طنَّ في يدِ أحدٍ على نقْر ، ولو خلقه مرةً أخرى من تُرابٍ لما جُمِعَ هـذا « الترابُ » الا من ثيابِ أهلِ الفقر ....

وهو نبيُّ أُمَّه البخل . أما مُعجِزتُهُ فهي قدرتُه على أن يَستَنبِطَ غيرَ المألوفِ من المألوف ، ويَستَغلَّ الصِّفْر فيُخرجَ منه ألفاً الى أُلوف ؛ وإنه على ذلك لآيةٌ فارآه المؤمنون الا قالوا اللّهمَّ غفْرا ؛ ولا رآه الجاحدون الا زادوا عُتُوًّا وكُفرا .

وكم تمنّى وهو يتهالكُ حرصاً أن يكون كإبليسَ في أنه لا يموتُ الا متى هَرِمَ الدهر ، ولا يذهبُ من الأرض الا حين لا يبقى في تاريخ الأرض عامٌ ولا شهر ؛ واذا خوّفتَه الموتَ والحسابَ قال ويلكَ دعْ عنك ، واذا علِم انه سيُعطَى كِتابَ أعماله في الآخرة قال ياليتَ صُحُفه من « ورق البنك » . .؟

على أن دِرهمه في أيدى الناس هَمٌّ ، واسمَه في أفواههم سَمٌّ ، وكم لأمواله من قتيلٍ فمن (استَلَفَ) ، فقد ذهب به التّلفَ ؛ ومن اقترض ، فقد انقرض ؛ وكم من بائسٍ فشَعَتْ غمامتَه ،

ثم غَالَتْ هَامَتَه ، (١) وقَضَتْ دَيْنَه ، ثم أبكتْ عينَه ، فو الذى نفسى بيده إنَّ دراهم هذا الخبيث لتُعدُّ من اللُّصوص ، وإنها لَلئيمةٌ على العُموم أما هو فلئيم على الخُصوص ؛ يُرسِلُ الدرهمَ فى يَدِ المحتاج فيذهبُ فيه ديناره ، ويَقدَحُ فِكرَه الملتهبَ فلا تقعُ إلا فى بيوت الفقراء نارُه ؛ ولو كان مخلوقاً يومَ عَرَضَ اللهُ الأَمانةَ على السموات والأرض والجبال فأَبَيْنَ أن يحْمِلْنها لحملَ وحده الأَمانة ، واذا كان مَبْلَغُ القول فى وصف كل غنِىٍّ كريم أنه « صرَّافٌ » فى خِزَانة الله فجُهْدُ القولِ فى هذا اللئيم أنه لِصٌّ الخزانه . . . . (٢)

وهو على غِناه كأَنه فى الناس بُؤْسُ المُفْلس فى القِمَار ، وكأَنه لِحقَارته ذيلُ الحمار ؛ إن طلع عليهم فطَالِعُ زُحَل ، وإن غاب عنهم فوَبَاءٌ رَحَل ؛ ومتى ذكروه ، فكأنهم نكروه ، واذا قُضِيَ عليهم أن يُسَمُّوه ، فكأَنما شتموه ؛ واذا وصفوه

(١) أى قتلته والمعنى انها تنفس كرب المحتاج حيناً ثم تكون له كرباً لا نفس فيه لانها دراهم تأكل دنانير ودنانير تأكل أرضاً . . . .

(٢) الغنى الكريم الذى يعرف حق الغنى عليه انما يعرف أنه مؤتمن على مال الله لا نفاقه فى وجوه الخير على نفسه وعلى الناس ولكن البخيل يدخر ولا ينفق . وقد ظن بعضهم ان (الصراف) عامية عر بيتها (الصيرف) ولكنهما صحيحتان فصيحتان

قالوا وَجعُ الأظفار ، وذنبٌ بلااستغفار، واللهمَّ قِنَا عذابَ النار

أما وجهُهُ فلو أنزلَ اللهُ مرآةً من السماء فنظرَ فيها لصدِئتْ من قُبْحِ خياله، كَصَدإِ ذلك المخزونِ من ماله ؛ وأما رَوْعتُه فلو خرَجَ على الحسانِ لابتلاهُنَّ بما يَفجأ الظِّباءَ من رؤية الفَهْد ، وامتلكهنَّ بما يعتري المُرْضِعَ اذا كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبانَ في المَهْد ؛ وأما جِهامتُه فلو نظر اليه البدرُ لَغرَب ، ولو اطَّلعَ عليه الفجرُ لهرَب ؛ وأما رُوحُه الخفيفة ... فلو بُعِثَتْ في خَلْق آخَرَ لما كانت إلا بَقّةَ صيْف ، في رَقَبةِ ضيْف ؛ أو بعوضةً تَلْسَعُ العاشقَ المهجورَ فتُوقِظُه وقد ظَفِرَ بالطَّيْف ؛ وحياتُه كالبلاء المحتوم ، وغناه كالكَنْزِ المختوم ، وأما هوفكالقبر المكتوم .

وأحْسَبُ لو رَسَمَهُ أمهرُ المصورين فأبدعَ في خُطَطِه(١) وألوانه ، وأنطقه من عَيْنِه وعُنْوانِه ،(٢) وجعله آيةَ فَنِّه وافتِنانِه ؛ وترَكَ من يراه لا يحسبُ إلا أنّ المصوِّرَ قد سرَقَه ، أو أنَّ الله تعالى مسَخَهُ على وَرَقَة ؛ لَبَقِي مع ذلك في رسمه مَغْمَزٌ لا تُصْلِحُهُ إلا يدُ الشيطانِ الرجيم ، ولا تُلَوِّنُه الا

---

(١) أى الخطوط (٢) أى جعل خفيات نفسه ودخائل طباعه ظاهرة فى نظره و معارف وجهه من الصورة ، و عنوان الشيء ما استدللت به مما يظهر لك على حقيقة هذا الشيء

شُعْلَةٌ من نار الجحيم؛ ومن للمصوِّر بشرارتين من الصاعقة يُنزِلُهما في الرسم لتظهرَ بهما عيناه، ومن له برَقَبَتَي البخل والرذيلة يُطبق عليهما يسراه ويمناه، ومن له بلونين من غضبِ الله ونقمته يَظهر بهما في الصورة معنى فقره وغناه؟

ولستُ أطيل في القول فما أنا ببالغٍ من القول بعضَ صفاته، وهيهاتَ أن يصفه على الحقيقةِ الا من يعلم لغةَ الملائكة فينقلَ الى لغةِ الناس كتابَ سيئاتِه ....

***

قال « الشيخ علي » : ذلكم هو (الكونت فيكتور). رجل أَمْلَقَ أموالَ الناسِ وزادها في ماله، وجمع بين سوءِ حَمْلِ الغنى وسوءِ حملِ الجاه، وعَرَفَ النعمةَ ونسى المُنْعِمَ بها فكأنما فَتَحَ اللهُ عليه من هذه الدنيا ومكَّنَ له في أبوابها وأفشى جاهَه ونعمته على ما ابتلاه به في خاصَّةِ نفسه من المحْقِ ليجعله واحدا من أولئك الذين يُخرجُ للناس من تواريخهم قِصَصاً في الأَخلاق محكَمةَ السَّبْكِ في نَسَقِ التأليف الالهيّ المُعْجزِ الذي يأتي بالحادثة الى موضعها حيةً وميِّتةً ، ويُنزلُ الكلمةَ في مستقرها من الموعظة ولو أَنَّ فيها ذَهابَ نفسٍ وإدبارَ نعمة، ويُديرُ المَثَلَ والفلَكَ بأسلوب واحد.

وقد أَسْنَدَ هذا الرجلُ في حُدودِ السبعين وكادت

تحطمه السن ولا يزال متأبداً (١) لم يستتر سقف بيته امرأة ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يتبسم . وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم الا ببغض النساء لأنه أكثر ما يجمع لهن وأكثر ما ينفق عليهن ؛ ولا يرى فى المرأة الا أنها « ثورة مالية » و « سوق فى البيت » و « أزمة يحتال الرجل للخلاص منها بالوقوع فيها » . ويقول إنها منذ أكلت من الشجرة الملعونة فى السماء جعلت الرجل شجرتها الملعونة فى الأرض، فهو ما عاش ينبت وينمو وهى ما عاشت تحصد وتأكل .... وقال مرة « إن الرجل لا يزال عقلاً حتى يتزوج فاذا هو فعل فقد صار من زوجه وأولاده سلسلة بطون . . . . فقيل له ولم لا يكون يومئذ من زوجه وأولاده سلسلة عقول ؟ قال الى أن يصبح أطفاله القدماء رجالاً يكون هو قد صار طفلهم القديم ....

وجاءه يوماً سمسار يساومه فى أرض له وجعل يراوغه ويترقى الى خديعته بما أوتى السماسرة من خبث ودهاء ويقبل به مرة ويدبر به مرة ، والكونت فى كل ذلك يعبث به ويتمرى له (٢) ثم صرفه على طمع كاليأس ؛ فلما ذهب مدبراً قال

(١) يقال تأبد اذا طالت عزبته وقل أربه فى النساء ، ويقال حطمته السن اذا أبلاه الهرم .

(١) يتركه فى قليل الخطأ حتى يبلغ أقصى الخطأ

ويحى لو أن هذا السمسار كان امرأةً جميلة إذن لأَدارنى فى يده كما يرقصُ الدينارُ على الظُّفْر ؛ فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل فى هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب ....

ولما بلغ الخمسين — بعافية من الله — قال أحسبنى لو كنت متزوجاً يوماً فان امرأتى فى هذه الساعة تلتقم ثدىَ أمها . . . . فسأَنتظر حتى تَصلُحَ لي. فأَجابه بعضهم وحتى تصلُحَ لها أيضا . .

وتَوَاصفُوا عنده الجمالَ مرة وأَفاضوا فى حديث النساء والنعمة بهن ، وقد تَعاَلَم الناسُ ذلك البغضَ منه — فلما أضجروه قال حسبُكُم يا قوم ما أراكم إلا تخلقون إفْكاً ؛ إن هذه المرأة فى حقيقتها غيرُ تلك المرأة فى وهم الرجل؛ فهي هى حتى يبعثَ عليها وهمَه ويصبغَها بأَلوان نفسه و تَستَضيء به فكأَنها منه أَمام الفانوس السحرى . إن المرأة َخصمٌ عنيدٌ لا يَقتَل بالغضب ولكن يَقتلُ بالضَّحك ، وشرٌ مافيها أنها ان لم يكن منها قتلٌ فليس معها حياة(١) .

تقولون إن الرجل محتاج الى المرأة . فقد كان ذلك أيام كانت المرأةُ كأَنها فى عملها للرجل رجلٌ آخر . . . . فتلك حاجةُ اليد الى اليد وحاجة الظَّهير الى الظَّهير ، ولهِيَ مُناَقلةٌ طبيعيةٌ فى

---

(١) يريد بالتى لم يكن منها قتل المرأة لا تكون جميلة فاتنة فاذاهى لم تكن جميلة لم تطب معها الحياة فى رأيه

الجنسين بين قوة تحتاج الى ضعف يخفف من سَورتها وبين ضعف يحتاج الى قوة تشدُّه منه؛ فلو كان العالم كله رجالاً إذن لطالت أنيابهم كثيرا ولما وجد على الأرض من يخترع مِقصاً للاظافر ....

أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعيّ وماهي بهولة من الهُوَل (١) ولا مسخ من المسوخ ولا أنا آسف على خروج آدم من الجنة بذنبها فاني رجل اقتصادىّ ولقد كان من هذا الذنب رأسُ مالٍ كبير ؛ فاياكم واياىَ لا تظنوا أني أكابرُ أو أُمارى ولا تحسبوني جِلفاً يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلاً من رأسها النحيف المكلل رأسُ جاموسه .... وبدلاً من يدها الرَّخصة الناعمة ظِلفُ بقرة (٢) .... حسبكم ياقوم — حسبكم الله — لا أُطيقُ هذا العبثَ بي ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدّثون وتصفون، بل أرى مخلوقةً غريبةَ الاطوار فى هذه المدنيَّة وارى خرقاءَ ان لم يكن معها الإفلاس فلا أقلّ من أن يكون معها الندمُ أو الغيظُ أو السخطُ ، وربما كانت بلاءً ماحقاً يُزَفُّ الى الرجل يوم زواجه باحتفال .... يخيَّل اليها من الفكر فى المال أن الرجل

(١) الهولة كل مايفزع به الصبيان

(٢) انظر كتابنا (السحاب الاحمر)

هو مال أيضاً وتريد أن تتزوج ولماذا ؟ لأن المحراث لا يلتمع نصله إلا بعد أن يجدوا له الثور . . . .

امرأة متأنقة لا تريد إلا أن تطلع الشمس كل يوم على زي جميل ليكون لزوجها كل يوم هم جميل . ثم هي أحسن ما تكون حين تخرج من بيتها كأن بيتها منخل لا يمسك منها إلا الحثالة . . . .

إننا ياقوم لقاء المرأة لا تلقاء معجزة من معجزات الأنبياء ، فنحن نستطيع أن نقول هذا خطأ فيها وهذا صواب منها ولكنها على أي أحوالها لا تريد أن نكون معها أبداً إلا على حالة واحدة . تريد أن تشبه نفسها لأنها لا ترى أكمل من نفسها ؛ أما الرجل فهو اذا رأى فيها نقصاً فذلك عندها لأن عينه عين رجل وتكاد أهدابها تكون من شعر اللحى والشوارب . . . . (١) فمن هنا لا يرى الخبيث تلك الحسنات النسائية التي تترقرق من المرأة في كل شيء صافية جميلة كنور القمر .

ترى هذه المرأة أن كل حسن في أعمالها لا يكون إلا أحسن شيء لأنها حسناء ؛ ولكنها لا تقر أبداً أن كل قبيح في أعمالها ينبغي أن يكون أقبح شيء . ولماذا ؟ لأنها حسناء أيضاً . . . .

---

(١) مبالغة في خشونة الرجال لان اللحى والشوارب من خصائصهم فكأن العين التي هي من أسرار الجمال في الجنسين هي في الرجل أيضا خشنة

هذه المرأةُ الجميلةُ قد ظنّت عند نفسها أنها شيء مقدّس ، ولذلك لا تريد أن تعملَ عملاً كبقرة البراهمة ؛ فياليت الرجل كان شيئاً مقدّساً أيضاً كعجل المصريين القدماء . . . . ولكن البقرةَ المقدسةَ في المرأة لاتعرف العجل المقدس في الرجل . . . .

ياهؤلاء انما الرجل مخلوقٌ قويٌّ ولكن معظم قوته منصرفٌ الى حواسه ، فمن ثَمَّ كان في يد المرأة ضعيفاً لأنها على ضعفها ينصرفُ مافيها من القوة الى عواطفها فلا يلتقى الخصمان إلا كانت الهزيمةُ على الرجل وقد كان لولا سفاهُ رأيه في مَنظرٍ عن هذا ومُستَمَع (١) ، فما رأيتُ قط رجلاً يهوَى امرأةً إلا اعتدَّ سلطانَه في أنه يشعر بسلطانها عليه ، وكان رضاه في أنها راضيةٌ عنه فهكذا هكذا . جعل الرجلُ حاجتَهُ الكبرى في المرأة. وبالغ في توهمّ هذه الحاجة وافتَنَّ في تصويرها ألواناً وضروباً فجعلت المرأةُ حاجته اليها سببَ كل حاجةٍ لها ، وبالغت في الطلب. واحتكمتْ فيما تطلب ، وانصاعَ الرجل في يدها كالبهيمة السائمة. وجعله التمدنُ الفاسدُ في رأيها كآلة الساعة ، علامةُ ضبطها وإتقانها « أن لاتقدّم ولاتؤخر » .. ! وإن تعجبْ فعَجَبٌ أن هذا الرجلَ نفسَه اذا هو كبَحَ جامرة عن حاجة تطلبها أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها ؛ فكان هذا المسكينَ إذ تعبّدَ لها يأبى الا أن.

---

(١) المراد بعيدا عنه

يكونَ عبداً بشهود وأدلة .... وتحسب المرأةُ اليومَ أنها غيرُ المرأةِ من قبلُ وغيرُ ما كانت حالُها ، كأنها رُقيٌّ في التاريخ فقد غيّرت نفسَها بالفنون والعلوم والأزياء وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة ، وأنا أول المؤمنين أنها غيّرت نفسَها ولكن هل غيّرتها الطبيعة ؟ (١)

أيها السادة : إن مع كلمة هات كلمةَ خُذْ ؛ لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمورُ والأحوال ؛ وكلٌّ عملٍ وكلٌّ عامل يتركبُ منهما فالدنيا كلمتان « هات وخذ » ، والحياةُ كلمتان « هات وخذ » ، والمرأة التي تصفونها كلمتان أيضا ولكنهما « هات وهات » . . . .

قال « الشيخ علي » ومرَّ هذا الكونت في فلسفته يمضُغُها مضغَ الماء ، وربما أصاب شيئاً ولكن ماذا تنفع كلمةُ الحق يُرادُ بها الباطل ؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابنُ شجرة لا ابن امرأة . . ! على أن من تعلّق شيئاً من أمور الحياة وُكِلَ اليه ؛ وهو بعْدُ لم يعرف غيرَ المال يجمعُهُ ويدّخره وقد خلقه الله رجلا ماليًّا ويسَّره لما خُلق له ؛ وكثيراً ما رأى وجهَه في المرآة فكان يُعجبه من منْخرَيه أنهما في تفرْطحهِما « كحافِرَى حصان الجنيه الانجليزى » . . . .

---

(١) أنظر في كتاب (السحاب الاحمر) رأينا فى مثل هذا من مثل هذه

ولما استوفى عمرَ السبعين وأَصبح فى يُبْسِه وموتِه كأَنه جِذْرُ قَرنٍ من الزمن ؛ خرج فى عيد مولده الى سواد المدينة(١) منحدرا الى قرية يملكها ؛ وانطلق يجْتَلِى مناظرَ الطبيعة فكان لا يرى فى السائمة والطير والنبات والأَزهار إلا شبابا وطُفولةَ وكان وحدَه منظرَ الهَرَم المُسْتَمِيت فى هذه الطبيعة كلِّها . وأعجبته شجرةٌ قائمة على مَسيلِ الماء وأَعجبه أن يَتَفَيَّأَ ظلَّها وقد تَحَفَّى بروحه المُتْشَعّبَة بَرْدُها ونسيمُها ، فانطرح يتثاءب هُنَيْهَةَ وأَحبَّ أن يسافر الى شبابه البعيد على مَطِيَّة النوم فكَبَسَ رأسه على ذراعه فاذا هو نائم كأَنما جَرَعَ السمَّ فَخَمَدَ من فَوْره . ورأى فيما يرى النائمُ كأن الأرضَ تُرَقِّصه على أَعشابها لتمسحَ عن أَعضائه التعب ؛ ثم أبصر السماء فى مثل تَحاسِين الطاووس من ألوانها وأَصباغِها كأَنما أَشرقَ على الأَرض فجرُ يوم من أيام الجنة ؛ ثم نظرَ فاذا ضَوءٌ رَطْبٌ يتَنَدَّى وقد تَرَقْرَقَ فأصابَ شفتيه الذابلتين ، ولمَح على أثره وجهَ حسناءَ كأَنها فِلْقَةُ القمر فكان ذلك الضوءُ قُبلتها وابتسامَتها وكان على قلبه « بَرْداً وسلاماً » ؛ فنَصَب لها يديه يتناولُها فاذا هى تتخطَّى الغَمامَ هابطةَ اليه ، واذا هي على الأرض نحوه مقبْلة ، واذا هي أمامه ضاحكة واذا هى ملءُ صدره وذراعيه ؛ فارتجفَ جسمُهُ رَجْفَةَ شديدةَ

---

(١) ريفها وما حولها من القرى

كأن فيها شوقَ سبعين سنةً من الهَجْر وما لَبِثَتْ عُقدةُ أجفانه أن انحلَّتْ فنظر فاذا يدُ فتاة قروية ناعمة تهزّه برفق .

فانتهضَ السكونت كأنما نَشِطَ من عِقَال ، ولمَّا تَصْحُ عيناه من سَكْرة الحُلُم ، فكان يُخَيَّلُ اليه أنه يرى جمالَ السماء والأرض معاً في طلعة هذه الفتاة وعلى غُرَّتها. ثم كشف لها عن رأس كَفَرْوة الأرنب البيضاء وانحنى متأدبا وقال بلطف : أشكرك ياسيدتي .

أما هي فابتسمت له وقام في نفسها أنها هي ردّت عليه روحه وانها لو لم تنبهه لما انتبه آخرَ الدهر كأنما حسبته ميتا ؛ وظهر هذا الفكر في ابتسامتها فأكسبها شيئاً من قوة روحها وجعل لشفتيها الحمراوَين جمالاً كجمال الشفَق اذا افترَّ عن نور الفجر .

وتأملها الرجلُ بمبلغ مافي نفسه من لذة الحُلُم وما في صدره من ضَجْعَةِ تلك الحورية التي تلوَّتْ عليه وتقاسَبَتْ فيه ؛ « وبعث عليها وهمَه وصبغها بألوان نفسه واستضاءتْ به فكأنها منه أمام الفانوس السحرى ! . . . وماخلق الله لذةً أهنأ للنفس من لذة الأحلام فكأنما ترى فيها النفسُ شيئاً من تحقيق المستحيل ؛ وإن في أعقاب هذه اللذة بعد اليقَظَة مايُشْعِر المرءَ بالأماني كيف جاءت وكيف ذهبت ، فكأنما كان في حياة أخرى ، وكأن نفسه تتمسك بهذه الحياة ولاتريد أن تُسْلِمها فتكون ذكرى.

الحلمُ أرْوَح للنفس من الحلْم نفسِهِ على الحقيقة ، لأَنها نتاجُ ما بين لذةٍ لم تكن شيئا ولذة صارت شيئا .

وثبتت صورةُ الفتاة فى عينه على ما اشتهى ، وكانت زهراءَ اللون ، حَوْراءَ العينين ، ساجيَةَ الطَّرفِ ، أَسِيلةَ الخدِّ باسمةَ الثَّغْرِ ، حسَنَةَ التكوين كأنها ريحانةٌ تَرِفُّ رَفيفاً ، وتكاد من فَرْطٍ رقتها تتكلم ابتساماً حتى لا يحسبُ من رآها أن الشمس طلعت يوماً على أبدعَ من ثغرها واللؤلؤ ، ولا أحسنَ من خدها والورد . وكأن الطبيعة يعتريها أحياناً من سُوءِ الحرص وسوءِ الخوفِ وسوءِ الحيلة بعضُ ما يعترى الشحيحَ الذى يخبأ أنفَسَ ذخائره فى أخسِّ الأَمكنةِ وأقبحها منظراً وفيما لا حفْلَ به من الأَداة والمتاع ، فكانت « لويز » على ما وصفنا من الجمال والظَّرْف ولم تكن مع ذلك إلا قَرَوية

أما صاحبُها فما أشْبَهَهُ بعُنُق النَّسْر . شيخٌ مَضْعُوف ، كالعِرْق المَنْزُوف ، والعَظْم الملفوف ، مَمْسُوحُ العَضُدَين ، نَاسِلُ الفَخِذَين ، كأَنما يَتَوكَّأُ منها على عَصَوَيْن (١) . . . غير أن له عيناً يَتَوَقَّدُ فَصُّها ويَسْتَنْفِضُ الناسَ طَرفُها (٢) فلا يملك من تقع عليه أن يضطربَ وكذلك اضطربت الفتاة .

وما كاد الرجلُ يلمحُ اضطرابَها حتى طَبَعَ الله على بصيرته

(١) ليس عليهما لحم وكذلك ما بعده (٢) اذا رأوها أرعدوا هيبة

فحسب ذلك معنىً من الغزل وانطلق وراء خياله يمرُّ به على آمال الشباب الفانية ؛ وكان لحظُ الفتاة ينساب في عروقه دماً يغلي فحسب أن جسمه قد ثاب اليه (١) وأنه بُعث خلقاً جديدا لهذا الحب الجديد . ويبالغُ في التنظرف ويجلسُ قريبا منها يستنبئها وهي تُطرّفُ له من أخبارها (٢) ؛ فعلم من روايتها أنها شريفةُ النسب خالصةُ العرق وقد نبا بها المنزل وانحطَّ الدهرُ على أهلها فهي ذاهبةٌ الى المدينة تلتمسُ حياةَ التقوى في دير العابدات . . وعلمت هي من رؤيته أن في هذا الموت الماثل أمامها حياةً وأنه لامذهبَ لها من ورائه اذا هي أفلتته إلا مذهبُ القدَرِ المجهول ورأته كأنما يتشرّبُ لفظها ولايسمعُهُ وأبصرت هواها في حماليق عينيه فجعلتْ حيناً تبسمُ له وتلحظُه ؛ وحيناً تلحظه وتبسمُ له، وما تلفظُ من أنّةٍ في بثِّ حزنها الا أحسَّ المسكينُ أنها نقرةٌ على أوتار قلبه ، ولعل الانسان لا يمكنه أن يُحب الا اذا هيأت له الطبيعةُ مجلسَ الحب على ما يشتهي وعلى ماهو مذهبُ الحب في نفسه .

وقد مذَعتْ له الفتاة من خبرِها (٣) وكتمت عنه أنها طريدةٌ

(١) تذكر له طرفا منها وتخفي عنه مابقي مما لاتحب أن يظهر عليه

(٢) رجع اليه بعد الهزال مما أثر في أعصابه ودمه

(٣) ذكرت له قطعة منها دون سائرها .

منبوذةٌ اسْتَنزلهَا فتىً من عشيرتها على أن يَتحلَّلها وكان منها مَعْقِدَ فؤادها زمنا ؛ ثم طوَّح بها عارُهُ وغدرُهُ ولؤمُهُ جميعاً فخرجت هائمةً على وجهها ولفظَها قومُها كما تطرحُ الثمرةُ اذا دبّ فيها الفسادُ من عبَثِ الطير .

قال « الشيخ علي » : وانقلب الاثنان كلاهما صيدٌ وصائد . أما هي فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حبّ الجَدّ والأبِ والزوج والعشيق ، فان ثاب اليه عقلهُ من جهة بقي مجنونا من ثلاث جهات؛ وحسبتْ أن الموتَ مُصبِحُه أو مُمسيه فهو همُّها عشيَّةً أو ضُحاها . ولقد كانت من الضائقة والعوَز وشدةِ الاختلال بحيثُ لو عُهِدَ اليها أن تغسلَ الزنجيّ حتى يبيَضّ لقاءَ درهمين لطمعتْ فيهما . . . . وأما هو فقد ظفر فى زعمه بالمرأة الطبيعية التى نبتَتْ مع الأزهار ، وطلعت فى سماء الحياة مطلعَ ضوء النهار ؛ وحسب أن هذه الفتاةَ التى تناهز العشرين انما هى زيادةُ عشرين سنةً فى عمره ينتهبها من القَدَر انتهابا ، ويَقضى بها دَيْنَ الحب طفولةً وشبابا .

ولست أدرى كيف عزَبَ العقلُ عنه ولا كيف خذَلَه رأيُه ولا كيف وهى ركنُ فلسفته وكان من قبلُ وثيقاً ، ولا كيف أحبّ منذ الساعة وقد كان يتصاونُ عن النساء ويحسب أن بغضهن عقدٌ لا يحلُّه الا من يحل عقدة نفسه

ولكن الحب يابنيّ لا يكون عجيباً بلا شيء يُعجَب منه ،

وكثيراً ما يتمثَّلُ الرجلُ بغضاً ليحبَّ بعد ذلك بمقدار ما أبغض(١) فمثله كمثل من يبحثُ عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التى لا تؤدّى اليه فمتى أصابه كانت قوةُ البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشدَّ منها فى البرهان نفسه .

وهى الأرواحُ ما يزالُ بعضُها يتسلَّط على بعض وما إن يزالُ فى كل روحٍ معنًى هو الوسيلةُ الى هذا التسلط ومنه مساغه ومأتاه ؛ فلو قلتُ إن فى مسلاخ ذلك الرجلِ معنى الحمار لما كان فى الفتاة الا معنى العصا ؛ وكذلك انطلقت وهى تسوقه فى طريق مصائبه ، وعند العصا تفرغ حيلة الحمار ولو كان الحمار أبيًّا .

*
* *

فى (الحب)

مَن هذه الهيفاءُ التى تَستميلُ ولا تميل ، وقد استبدَّت بالجمال فلا يُرى فى غيرها شىءٌ جميل ؛ طالعةٌ كالضُّحى فكل نجمةٍ من ضوئها كاسفة ، لاهيةٌ كالنسيم وفى كل قلب من حبها عاصفة ؛ وقد عبدَها العشّاق باطلاً كما يعبدُ المجوسُ الشمس ، وتمنَّوا فى دلالها المحالَ كما يتمنّى المرءُ من أمس ، وكتبَ عليهم هواها المحتوم ، « جندٌ ما هنالك مهزوم » .

---

(١) انظر فلسفة الحب والبغض فى (رسائل الأحزان) (والسحاب الاحمر

وكم تمنوا لو ان لين أعطافها ، يتعدّى الى انعطافها ؛ ولو أن بعض ابتسامها ، يشرق على ظلمات اليأس من غرامها ؛ وهى تقتل منهم برضاها وغضبها على السوّاء ، كأن حبها الموت متى قضى جاء به الداء ، وجاء به الدواء ؟

(فى الحفلات)

ومَن هذه الطالعة فى غلائلها ، المعروفة فى الحسن بدلائلها ؛ المشرقة كالبدر فى ظلمة الحلك ، الضاحية كالشمس فى قبة الفلك ؛ تعترف بالهوى فى ألحاظها ، وتنكره فى ألفاظها ؛ وتقبل بعينها سائلة عما بين جنبيك ، وتلتفت بجيدها مائلة عن جواب عينيك ، وقد حسرت عن زندها ، ووضعت رمزا للحب تلك الوردة على نهديها ، فلاحت للمحبين كأنها روح القبلات من خديها ؟

(فى الرقص)

ومَن هذه الزّهراء كالنار المشبوبة ، الحسناء كالدّمية (١) المنصوبة ؛ المشرقة فى زينتها كغرّة الدينار ، اللائحة فى ميناء الدموع كما يلوح المنار ؛ وقد شفّ قلبها عن الجوى ، كما يشف الزجاج ، وتدافعت من طرب الهوى ، كما تتدافع الأمواج ؛ وهى ترقص على حركات القلوب فى الضلوع ، وتسترسل فى سهولة كأنها جسم خلق من الدموع ؛ والأبصار قائمة على قوامها ، والنفوس

(١) التمثال الجميل

حائمةٌ منها على حِمَامها؛ وما هي في عين المحب الاَّ خَطَرَاتُ الطَّيف، أو رِقَّةُ نَسَماتِ الصَّيف، ولا رقصُها الا معركةٌ في الحب قام فيها اللحظُ مَقامَ السيف؟

(في الموسيقي)

ومَن هذه الباسمةُ كالازهار، الساجعةُ كالأطيار، التاركةُ عشاقَها كالشمس بين طرَفي الليلِ والنهار؛ القائمةُ كالكاس في اليد، الناعمةُ كالحُمْرة في الخد؛ وهي تُحْيِي بالصوت لأنه يخرجُ من صدرها، وتُسْكِرُ باللفظ لأنه يَمُرُّ من ثغرها؛ ويكادُ يخلق من سِحْرِ نغماتها القلبُ المفتون، ومن حركاتِ أناملها العقلُ المجنون؛ اذا صَدَحَت فحمامة، واذا رقصتْ فغمامة، واذا أرسلت من يدها (صيحةَ) الأوتار أقامتْ للطرب (القيامه) ؟

* **

تلك هي دُرَّةُ الصَّدَفة المطروحةِ على ساحل الموت؛ وهي حمامةُ ذلك القفَصِ البالي المصنوع من العظام؛ وهي خطيبةُ الكونت فيكتور . . !

وتلك هي « لويز » القَرويَّة الساذجة؛ كانت نَبْتَةً في الطين، فأصبحت زَهرةً في وعاءٍ ثمين؛ ولأَن تكونَ نبتةً مُهمَلَةً وتنمو، خيرٌ من أن تكون زهرةً مَرعيَّةً وتجفُّ .

ولقد رأى الكونت أخزاه الله أن أحسنَ مايكونُ

الاستمتاعُ بالجمال حين يكونُ الجمالُ فَنا وفتنة ؛ فأما الفتنة ففى عينَي لويز وجمالِ تسكوينها ، وأما الفنُّ فلا سبيلَ اليه من هناك ولا من فلسفته وليس الا أن يَبسُطَ يدَه كلَّ البَسْط حتى تَنْبتَ له تلك الزهرةُ من أغصانِ الذهب والجوهر ؛ فأنفق واتَّسعَ فى الإنفاق وجعل آمالَ شيخوخته كلَّها مُقترَحاتٍ فى زينة الفتاة ؛ فبرعت البراعةَ كلَّها فى الرقص والموسيقي ، وأحسنت من الفنّ النسائي في أساليب الظرف والجمال والزُّخْرُف على جسمها ، ماترك هذا الهَرِمَ المتصابىَ المفتونَ يَفاخرُ الناسَ كافةً بأنها خارجةٌ من قريحته . . . .

وأعجبُ ما فى أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل ما بَذلَ ، لم يكن يرى أنه أنفق على لويز مالابد منه لمثل لويز . . . . وهو منذُ أصبحت فى كَنَفِه استبدلَ من الحرص على المال بالحرص على الحياة ، وعرف أنه لابد في الحب من وسيلة وأن قلب المرأة ليس فى يد أحدٍ ولا فى يد المرأة نفسِها بل هو يحتكم فيما يختار ويختار على مايحتكم ؛ وأنه ليس أشدَّ عُنفاً من هذا القلب ، فهو ان لم يُحْيِ قَتَل . يحبُّ المرأةَ عاشقٌ غير مُحبوب منها ويريد مُراغمتَها على حبه فيقتله قلبُها لوعةً وضنىً بمايطُوِّعُ لها من صدِّه أو بغضه ؛ وتحبُّ المرأة ثم يمنعها قومُها ويُرغمونها على غير من تحب فلا يقتلها الا قلبُها وان (فكتور) ليعرف أنه فارغُ الخِلقة . . . . من وسائل

الحب كلها ويعرف أنه فى أحمض أنواع الهوى . . . لا يَعْدِلُ أكثرَ مما تعدلُ قِشْرَةُ الليمونة المعتصرَة ، فكيف به فى الثمر الحُلْوِ وكيف به فى حب لويز !

لم يبق إذن الا أن « يُخرِج الوسيلةَ من يده » والمالُ أضعفُ الوسائل فى الحب الصحيح وان كان أقواها فى الحب المكذوب ، على أنه لا يجعله قوياً من ضعف الا أن يَظَلَّ يُمِدُّهُ بعضُه بعضا . فاذا انْفَضَت اليدُ أو أمسكتْ فلأَن يقبضَ المحبُّ على الريح أيسرُ من أن يضع يَده على ظبية شاردة ...

ومن أجل ذلك توسع الكونت فى البذل حتى كأنه كيسٌ مخروق ، ولم يعرف لها طلباً إلا بلغ فيه رضاها وحسب أن فى رضاها محبتَها فكان يأتي بالحاجة التى تطلبها والحاجة التى لم تطلبها ويجعل كل شيء شيئين « وأبى إذ تعبّد لهـا إلا أن يكون عبداً بشهودٍ وأدلة » .

وبقيت « لويز » تترَبَّصُ به الأَجلَ فكانت له كحرف التسويف ، ولا تزال تُدافِعُه عن نفسها وتَروُضُه على الصبر وتُمَنّيه أنها تستتمّ فنونَ الجمال من أجله وأن هـذا القمر متى تمَّ فسيدخلُ معه فى المحَاق .... لامحالة . وتظن باطلاً أنه لم يبق منه إلا كما بقي من ذَنَب الوزَغَةِ (١) تضربُ به يميناً وشمالاً ثم

(١) هى دويبة معروفة وهى وسام أبرص جنس واحد ولكن

تموت ، بيد أن الموت لم يستنقذها منه وان كان يرأف بها أحيانا وتدخله الرقة عليها فيذيب عنه (الروماتزم)[1] ليريحها بضعة أيام . . . .

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع فى رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه ، ويعلم أنها ترى الصبر أحسن مافيه فيترك أقبح مافيه جانباً ويصبر . فلما استوت فتنتها ولم يبق من باطلها ما تتعلل به أو تختلق به علة ، ورآها قد أخذت زخرفها وازينت واهتزت وربت بصارمنها كحرف الجر[2] لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور (متعاقين)... وفرغ صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبته لا تزال فى أول دلالها ؛ وكانت تحسب الدهر نائماً عنها فاذا عينه قد انتبهت فى أجفان هذا الشيخ فنظر اليها نظرة لا صواب فيها .

وباغتها الرجل نخيرها بين أمرين خيرهما شر : إما طريق الى صدره ، واما طريقة من غدره ؛ ومع الأولى الوصية بالمال ، ومع الأخرى أن تذهب فى الحال .

سام أبرص كبأره و هذا الاخير هو ما يسميه العامة (البرص) واذا قتلت الوزغة حركت ذنبها قليلا ثم ماتت

(١) هو فى العربية الرثية بفتح الراء وسكون الثاء ولكننا آثرنا هذه اللفظة لموضعها (٢) سبق أنها كانت له كحرف التسويف....

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر فى معركة كان لابد أن يخرَّ فيها أحدهما صريعاً. وقد استحال أن يكونَ المغلوبُ غيرَها ، وإنَّ عثرةً تَنْتَهِضُ منها بعد حين خيرٌ من عَثْرَةٍ لا تَسْتَقِيلُها ؛ ورأت الظَّبيةُ أن لا مَنَاص ، فوقعت فى يد القَنَّاص . . . . . .

(ياليل)

الليلُ مُنْسَدِلٌ كأنه حجابٌ مضروبٌ بين الحياة والأحياء ، مجتمِعُ الظلمةِ كأنما هي ذُنوبُ الناس فى نهارهم جعلت الملائكةُ تُرسلها الى السماء ؛ وتَغَشَّى الأرضَ معنًى من خشية الله فَنَفَرَتْ له دموع المساكين ، وأقبلت عليه أنفاسُ المحزونين ، وبرزت له فى آثار الظلم دَعواتُ المظلومين ؛ وقد ارتفع الى الله صوتٌ يتقطعُ زَفرات ، ويتلهَّب حسَراتٍ ، ويسيلُ من الدمع قطرات ؛ وكان صوتُ « لويز » وهي تزفر الزفرةَ تكاد تنشقُّ لها وتُرسل الأنَّة تكاد تُدْفَنُ فيها ؛ وما بها الغيظُ فتُسْكِتَه عنها ولا بها الحزنُ فتَمسحَه بدمعها ولا بها الهمُّ ولا بها الغضبُ ولا أمرٌ مما يتواصَفُه أهلُ البلاءِ ويبثُّونه فى شكوى أحزانهم ، وانما ذلك شيء إن يكن من الحياة فليس بالحياة وإن يكن من الموت فليس بالموت ، ولعله منازَعةُ الحياة والموت على قلبها

ما بكِ يالويز وقد بتِّ زوجَ الكونت الذهبيِّ وهو عما قليل آخذٌ ما أَمامه وتاركٌ ما وراءه ؛ ومابكِ أيتها المسكينة وقد كنت

فقيرةً بائسةً لا تملكين قوتَ يوم فقبضت على أعناق سبعين سنةً تجمع المال وتكنزه ؛ ومابك عَمْرَكَ اللهَ وقد خرجتِ من الكوخ الى القصر وصعدت من العريش الى العرش ، وان كانت حواءُ قد طُرِدَتْ من الجنة فقد طُرِدتِ أنت الى الجنة .. وفى الجنّة قومٌ يقادون اليها « بالسلاسل » ..!

قالت المرأة وهي تناجي ربَّها : إلهي ماذا قضيتَ عليَّ ؟ لقد وضعتَ الدنيا على راحتي وكأن مملكة آمالي مرسومةٌ فى كفي ، ولكن أيُّ فرق بيني وبين تمثالٍ من الذهب الخالص فى منزل هذا الرجل . لقد رددتَني من فقري وذلتي الى رجل رددتَه أسفلَ سافلين (١) فما يُريني الدنيا التي أعرفُ أنها الدنيا ولكنه يُريني الآخرة . . . .

يا وَيْلَتَا إن لم يخجل الرجلُ من شيء أفلا يخجل من أنه لايخجل ؟ . أَبِي هذا الموتُ لشقائي إلا أن يتخذني زوجتَهُ وكنتُ خليقةً أن أجعله أسعدَ رجل فى الدنيا لو اتخذني ابنته . اللهم إنك رزقتني العافيةَ فى كل جوارحي ولم تصبني إلا فى القلب .

ياويلتا ما أنا الا لعبةٌ فى يد هذا الطفل لايلذُّه شيء أكثر من تحطيمها فى طُرُقِ لذته ، وقد خلقتَ يارب من يحطم القلوبَ الصحيحةَ ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوبَ المكسورة ،

---

(١) أى بلغ الغاية من الهرم أو التلف أو الضلال أو ما اليها

وأنه ليس فيما برأتَ وذرأتَ مخلوقٌ أشدُّ تعباً ممن يفتش في قلبه عما ليس في قلبه ، وهل في الممكنات أو في أشباه الممكنات أن أجدَ في ناحية من قلبي حبَّ هذا الزوج ؟

لقد عرفَ الناسُ أن قلب المرأة كثير العَبَث ، وهذا الذي يسمونه دلالاً ويحبونه في الحب انما هو شيء من عبثه ؛ وأن هذا القلبَ انما خُلق ليحب ولذلك أُعطي قوةً يخلق بها الحبَّ من العدم ؛ غير أنهم جهلوا فيما يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلبَ انما جاءه العبثُ بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبثَ به أحدٌ من الرجال ، ومتى وُجد من هؤلاء من يُريده بنادرته ويجعله من هزله مَعرِضَ السُّخرية وموضع العَبَث لم يكن في الدنيا أحدٌ أبغضَ الى المرأة منه وان كانت الدنيا كأُنها في طلعته وان كان مخلوقاً من رَوْنَق الشمس .

أليس النساءُ يُحبِبْن حتى الكلابَ ويُرفِّهْنَها ويغالينَ بها ويُنزِلْنها منزلةَ الوَلَد في الحب والانعطافِ والتوجُّع والتحزُّن ، فسبحانك اللهمَّ إن هذا القلبَ الذي يسعُ حبَّ الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأةَ حبًّا ليس فيه شيء من روحها — حبَّ الزينة أو الاستمتاع أو الخدمة — فكأنهم بذلك يبغضونها بغضاً فيه كلُّ روحها . ياوَيْلَتَا أَعَجِزْتُ أن أجد في هذه العاجِلةِ نفساً أرَى فيها نفسي ؛ وهل حُرِّمَتْ

علىَّ كلمةُ الحب فلا يَفيضُ بها صدرى ولا ينطلقُ بها لسانى ، وهل خُلقتُ لؤلؤةً لأَكونَ في عِقْدٍ من الحَصَى وَوَسَمنى الله بهذا الجمال ليعذبنى بهذا القبح ؛ وماعسى أَن تَرُدَّ عليَّ هذه النعمةُ مادمتُ لا أجدُ لها سبيلاً الى قلبي ومادام هذا القلبُ لا يأكل ولايشربُ ولايلبس ولا يُعَامَلُ بالمال . . ؟

ضَلَّ ضلالُكم أيها الناسُ إذ تحسبون النعمةَ حقَّ النعمة فى الغنى وحده وتُمْضُون الأَمرَ على ماتخيلتم من ذلك ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشدَّ مما ينتقم بالفقر . فلو أنى ابتُليتُ بالمصيبة وأنا امرأة خاملةٌ لاحتملتُها وقلتُ خمولٌ عرفته فما يَبلُغُ بى ولا يزيدنى بنفسى ولا بنفسه معرفةً . ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن في كل بلاء يَعتَرِيهم مايعينهُم على حمل بلاء أشدَّ منه ؛ ولكنَّ الضربةَ اليوم لاتَصدَعُ الصَّدفَةَ بل تَسحقُ اللؤلؤةَ . . فاللهم لاقوةَ إلا بك .

وما أَشبَهَنى إذ قَتَلَ هوايَ هذا الكونت ، بزَنجيٍّ من زنوج أمريكا اغتال سيِّدا من البيض فلم يجدوا له عذابا إلا أن يَشدوا قتيلَه في وثاقِهِ وتركوه يَبْلَى تحت عينيه ويسيلُ جَوْفُه تحت أنفه ويَتَنَاثَر لحمه علي صدره ؛ وهكذا يقتله القتيلُ وحده بالرُّعْب والجنونِ قِتْلَةَ لاوصف لها فى لغة الحياة .

ولقد كنتُ بائسةً يطير بها القضاءُ ويقع فلا تزال دَهْرَها

تحت جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل في رحمته ؛ فلما وجدت الغنى واستشرفت للسعادة شغلني الله بهم نفسي، فشغلتني نفسي عن النعمة، فلا تزيدني النعمة إلا همًّا . وقد كتب الله عليّ أن يقتلني بغض هذا الرجل فوهبني الغنى من يده وحسب الناس أن ذلك لكيما أستمتع به وعلم الله أن ذلك لكيما أتصل بقاتلي . فاللهم قد أحيط بي وليس ورائي منفسح فمن حيثما التفت لا أرى غير ماقضيت على أن أرى ؛ وهذا امتحان أينما أتوجه في الحياة لاتقابلني الحياة إلا بمسألة من مسائله المعضلة .

إن كلمات القضاء لا تقرأ لأنه لا ينزل بالناس إلا معانيها. على أن الكلمة الأزلية التي يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لابد أن تكون جملة كاملة من غضب الله في السماء لا يقابلها إلا سيرة كاملة من ازدراء الناس في الأرض .

***

قال « الشيخ علي » : وتفرت دموع هذه المرأة تخفف من يأسها وانه ليأس أكبر مما تحتمل نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده . . . . فكيف به ومع ذلك الوجه شبابها الهالك، وآمالها الضائعة ، وغصة من شماتة الناس وازدرائهم، وبلاء من نعمة سابغة ستنقلب فضيحة وسخرية ؟

واهاً لك أيتها المسكينة . إن مصيبة الأغنياء لتنكشف نفسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها ، وان المصيبة لتكون واحدة ولكنها ترتد اليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكأنها مصائب كثيرة لا تعد

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط ؛ فان كان فى الغنى تلك النعمة ففى الغنى هذا الهم ؛ وما رأيت أيسر اضطرابا من الماء الراكد قذف بحجر ، الا الغنى الغافل قذف بمصيبة .

ويحكم أيها الاغنياء ! متى رأيتم ثمرة لا تسقط أبداً من غصنها الأخضر ، وثمرة تسقط من الغصن ثم ترد اليه فتعلق به وتنضج عليه ، فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزيئة فيه ولا مصيبة ، لأن هذا الكون حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار .

***

وانصدع الفجر وأقبلت الحياة تتنفس من مباسم الأزهار ، وتتغنى بألسن الأطيار ، والفتاة موجسة أن ترى طلعة شيخها كأن هذه الطلعة صبح غير الصبح ؛ وودت لو وقف الزمن ، فان لم يكن فوقوف الأرض ، فان لم يكن فوقوف

قلب هذا الشيخ ؛ وخيل اليها أنها ستقرف بإثم منكر اذا هو بادرها قبلة الصباح على مثل شفق الشمس من خديها ، وأنها لا ترمى بمسبة أوجع ولا أمض من قوله حبيبتى . . . .
وانسلخ الليل ، وطارت الأحلام ، وأفصحت الحقيقة ، واستيقظ الكونت .

(على المائدة)

زهرات ناضرة كأنما اختبأت فيها ابتسامة الفجر ، عاطرة كأنها رسالة اللقاء بعد الهجر ؛ بديعة التنميق تحسبها قصيدة من شعر الألوان ، متفتحة للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان ؛ متلائمة مصففة ؛ متلائمة كالشفة على الشفة ؛ قائمة فى جلالها وحسنها ، كأنها فى خلقة الجمال آيه ؛ وكل زهرة فى لونها ، كأنها لدولة من دول الحسن رايه ؛ وقد جلست اليها غادة فتانة كأنها فى رقتها روح النسيم وفى نضرة شبابها روح الحديقه ، ولاحت الأزهار كأنما هى خيالات جمالها وظهرت الغادة كأنها هي الحقيقة .

تلك هي « لويز » فى صبيحة عرسها على المائدة وقد أثبتت فى كل زهرة لحظاً من لحاظها ، ولا يشك من رآها فى تلك الحال وهي ترتقب ظهور زوجها أنها تنفس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسن ملاءمتها وتحسدها على أن ليس فيها أعواد .

من الحطب .... تفسد نظامها وتتنكر بهجتها وتغض من حسنها كما ابتليت هي بزوج من عود ....(١) وإنها لكذلك اذا خفق أقدام وضوضاء وموكب وشيء كالموسيقى ، فما التفتت جيدها حتى أبصرت الكونت داخلاً يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف .... وآهات وأنات ، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل . وكان (الروماتزم) قد دب دبيبه في مفاصله تلك الليلة وبات يفتل في عروقه وأعصابه ، ووعكته الحمى واجتمعت اليه علل الشيخوخة كلها تهنئه بالزفاف . . . . غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة ، فحفزه الشوق وعاوده الصبى فطار اليها بجناحين من خادميه . . . .

ولما بلغ ظلالها أفلت الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها رياءً ومصانعة ، ثم تمسك بها يستند اليها ، ثم انحط الى يمينها ، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه . . . . حتى غمره الألم وهاج داؤه ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات وأنات ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل . . . .

ورأت «لويز» ذلك فرقصت أحشاؤها .. ! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة الى حجرتها

---

(١) في المثل (زوج من عود خير من قعود) وقد أصابت الكاملة حقها في هذا الموضع الذي وضعناها فيه

وانطرحت في غَمْرة أخرى من الألم؛ وبقيت هناك مُلْقاةً يُدار بها وكانت لم تَغْتَمِض في ليلها فاصطلح على جسمها همٌّ الليل والنهار

—﴿ فصلٌ خامسٌ في السنة ﴾—

وزالت هذه الغَشْيَةُ عن الكونت بعد أيام كانت العروسُ فيها من رَوْح الأمل كالمختلعة (١) اذا أخذت كتابَ طلاقها، أو الأَمَةِ اذا وُعِدت بعتاقها، وكان دعاؤها لله كلمات لا تَعْدُوهُنَّ؛ تقول اللهم رُحْماكَ فأنتَ المصيبُ وأنا المصابة، تلك قوّتُك وهذا ضعفي. وكانت اذا حمدت الله تَوارَدَتْ مع زوجها فيما يحمد الله به من حيث لا يشعرُ أحدُهما أو كلاهما، كأَن للحب الشديد والبغض الشديد لغةً واحدة. فكان هو يقول الحمد لله إذ لا ترانى، وتقول هي الحمد لله إذ لا يرانى ....

وباغتها الرجلُ مُنتصبًا عليها فلو أن ميتاً طالعها من قبره ما كان أروع لها منه. قلبٌ حيوانيٌّ يسكُنُ من أضلاعه الخَربة في شُقوق، وظهرٌ كالقوس يحملُ من روحه سهماً ليس له الا المرُوق؛ وعُروقٌ ناشِرَةٌ كأنها في جلده المتغضّن خُيوطٌ في خُروق... ودخل عليها كما يدخلُ الشتاءُ بكلوحه وبَرْدِه، على

(١) هي التي تكره الرجل فتختلعه لتتزوج بغيره وهذه الكلمة في الاصل يراد بها الطلاق ببدل

الروض النَّضِرِ والبقيةِ الضعيفةِ من وَرْدِه ؛ ونظرت اليه فلم يقع من نفسها الا موقعَ الهموم على الهموم ، ولم يكن فى عينها الا كما يكون الحلمُ فى رأس المحموم

وجلس اليها الشيخُ يتطفَّل ويقترح ؛ وكانت لويز تعرف أن السنة أربعة فصول ، أما سنتُها هذه فكانت فصولها بعد اقتراح هذا البغيض خمسة : الربيعُ والصيف والخريف والشتاء وشهرُ عسلِ الكونت . . . . فقد لجَّ الرجل فى عناده وأبى إلا أن يكونَ له ولها «شهرُ عسل» ؛ ومما زاده لجاجا وعتوًّا أنه كان يخشى أن ينسلخ الشهر فقد ذهب نصفُه فى تجرُّع « الدواء » ولم يبق «للعسل» الا ريثما يُمْحَق القمرُ ياماً معدودات. ثم انصرف من لَدُنْها على أن ترصدَ للسفر أُهْبَتَه وأن ينطلقا على جَناح غراب(١)

واستقبلت العروسُ ليلتَها وجعلت تقلّب وجهَها فى السماء وترنو الى النجوم بعينين قد ثبتَت فى انسانيهما خيالُ ذلك الرجل كما يثبتُ خيالُ القاتل فى عين المقتول ؛ (٢) فلم ترَ فى هذه النجوم الا هرَمَ الدهر وتحجُّر الايام وقد استيقنت أن نجمَها طامسٌ لا محالة(٣) وكأنما

---

(١) أى باكراً جداً . (٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت فى انسان عين المقتول حتى ليمكن علاجها و نقلها بآلة التصوير .

(٣) أى ذاهب الضوء قد مات وانطفأ فلاحظ لها

خرج عن الفلك ، وضلّ فى ذاك الحلك .

وماهى إلا خطرةُ الفكر حتى لاح فى مرآة نفسها خيالُ ذلك الشاب الذى اختلبها أياماً بالهوى، وكان لها منه الداءُ وكان له منها الدوا ، وأغواها فى عُرْف الناس ولكنه هو ما ضلّ وما غوى . وكان هذا الفتى قرَوياً فحْلاً ظريفَ الهيئة مستوىَ القامة عريضَ الصدر تامَّ الخِلْقَة وثيقَ التركيب قد ارتوتْ مَفاصِلُه واستحكم نسْجُه وله مع ذلك خِلاَبه ، وفى لسانه دُعابه، فما أطلّ حديثه وأنداه ، وما أحلى خبرَه اذا كان من الغزَل مُبتداه .

وقد أحبّ الفتاةَ أكثر مما أحبته ولكنها كانت غَريرةً لاتتبيّن منزلةَ مابين الحب والاستسلام ، وبين مايعدُّه الرجلُ وعدا بالفعل وما يراه وعدا بالكلام ؛ ولم تعرف أن هذا الحب سلاحٌ ذو حدين فالمرأة تقتُل به من ناحيةِ الرجلِ فان غفلت مرة عن نفسها قتلتْ هى به أيضا من ناحيتها ؛ وأن حب الرجل حبٌّ مجنونٌ بطبيعته فاذا لم يكن حبٌّ المرأة عاقلا انقلب كلاهما حيواناً طامسَ القلب (١) لا يبالى ما جنى على نفسه ، وان الرجل يُقاد من رغبته مادامت أملاً فى قلبه فهو يعِدُ المرأة ماشاءت وشاء لها الهوى حتى اذا انقطع هذا الزمامُ انقطع مابين لفظ الوعد ومعناه فأَخذَ منها ما أخذ وترك فى يدها ما أعطى ؛ وماعسى أن

(١) لايعى شيئاً

يكون قد أعطاها الا آمالاً ومواعيدَ وغروراً من زُخْرُف القول؟ وكذلك أمرُ الرجلِ والمرأة ؛ تحسبُ الفتاةُ اذا هي أحبَّتْ فاستأسَرَتْ لصاحبها أنها تَبذلُ في مَرضاته أعزَّ ماتملكُ وتُنَوِّلُهُ خيرَ ما استُؤمِنَتْ عليه وتُعطيه مالا تَستَعيضُ منه آخرَ الدهر، وأن ذلك أحرى أن يُؤْدَمَ بينهما (١) وأن يكون ميثاقاً للحب غيرَ منقوض . ويحسبُ الرجل أنها لم تُنِلْه إلا شيئاً هيِّناً قريبَ المَنَالة هو عندها وعند كل امرأة ؛ فان كان سَرِيَّ الخُلُقِ نبيلَ النفسِ رَثَى لها مما صارت اليه ونَدِمَ كما يندم على الإثم ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرجَ من أمرها، فان طارحتْه حديثَ الزواج رأى أن من فرَّطتْ له حريَّةٌ أن تُفَرِّطَ فيه، وبَهَتَها بهذه الكلمة (٢) وسلم وقد مات الذى بينهما ؛ وان كان لئيمَ الطبع خسيسَ النفسِ شَدَّ على رِقِّها واتخذ من ضعفها قوةً ومن خوفها أمْناً حتى إذا ملَّها تنكَّرَ لها ثم أنكرها فان استقضَتْهُ ما وعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوانَه.... فلم تَعُد تصلُحُ له ولا يصلُحُ لها . وكلا الرجلين سافلٌ دنيء زَمِرُ المرُوءة (٣) وان قال الناس فيهما سَرِيٌّ ولئيم .

فالسحابة تَنْهَلُّ بمائها، ثم تجتمع مرة أخرى فى سمائها ؛ والزهرة تُقْطَف لحسنها، ثم تنبت مرة أخرى فى غصنها ؛

---

(١) المراد المحبة والاتفاق (٢) اتهمها فى وجهها (٣) قليل المروءة

ولكن العذراء حين تفرّط في خدرها ، وتضع نفسها دون قدرها ، لاتبرح شقية حتى تنزل في قبرها.

وهكذا لايزال الرجل في عتوّه وظلمه كالساحل ، ولا تزال المرأة في ضعفها ولينها كالموجة ، فلو أن ألف موجة عاتية يصدمن الساحل لاستبا كهن وما سلبنه مقدار شبر من الرمل . وما اشترك رجل وامرأة في خلق العفة الا كانت هي الساقطة وحدها في الاعتبار ، لأن العفة انما عرفت بالمرأة من أصل الخلقة وانما يتصاون الرجل تشبهاً وتقليداً ، فان هو زلّ مرة وقارف الإثم فقد أخطأ في التقليد ولم يفقد شيئاً من طبيعته ؛ ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيّرت في تكوينها وأخطأت في الأصل الذي بنيت عليه طبيعتها وقامت به شرائع الله ومرّ فيه نظام الأمم ؛ فلا جرم كان عقابها على الخطأ عقاباً نفسياً يجمع من شدة الطبيعة الى عنت الشرائع الى قسوة الاجتماع ، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها (١)

قال « الشيخ علي » : وانطاقت نفس « لويز » لمسرى خيال حبيبها وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مسعدها ومشقيها

---

(١) أنظر فلسفة هذا الباب في فصل (الربيطة) من كتابنا « السحاب الاحمر » والربيطة المرأة تقوم مقام الزوجة (maitresse)

فصارت بعد زواجها تحبه فوقَ الحب إذ لا ترى لها مسعداً غيرَ ذكراه ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غيرَ السكونت .

ولما ذكرته انهمات دموعها فجعلت تبكى حتى انحلّت سحائبُ همها ثم أشرقتْ كما تصحو السماء فى أعقاب المطر ، فلو رآها أشعرُ الناسِ فى ذلك الجمالِ المشرقِ الحزينِ الذى تورّدَ حتى التهب ، لوقف عندها وقفةَ العابد فى المحْراب يشعر بالقوة الأزلية ولا يُحسن أن يصفَها . وأى شاعر تحيطُ نفسُهُ بهذا الشقاء الذى رفعهُ جمالُها الساحرُ من بين آلام الأرض وألحقه بذلك الألم المنفصل من السماء الذى لم تشهده الارضُ الا مرة واحدةً يوم جلست حوّاءُ تبكى أولَ بكائها بعد خروجها من الجنة ؟

ويالله ما أروعَ الجمال حين يتألم ويحزنُ ويحْضُر الجميلة همُّها . إنّ مَثَلَ من يُحاول أن يصف دموعَ هذه الجميلة وحسَراتِها وصفاً ناطقاً يتنفّسُ به القلبُ كمَثَلِ من يريد أن يخلق من سحر البيان زِلْزلةً ترْجُفُ بها الارضُ حين يبالغُ فى وصف الزلزلة ؛ وما اللغة الا أداةٌ فكيف وَيْحك تستعملُ هذه الأداةَ فى صفة قوة تعجزُ عندها كلُّ وسيلة حتى الشعورُ الذى أبدع اللغة ؟

لقد جمعت المقاييسُ بين أقطار الأرض ، وطوَتْ ما بين الأرض والسماء ، وداخلَتْ مابين أنجم السماءِ بعضِها من

بعض ؛ ولكن أية أداةٍ تعيّن لنا درجةَ الاحساسِ بين نفسٍ عاشقة مدنفةٍ تشهد آلامَ نفسٍ معشوقة ؛ وبين عينيْ شاعر غزِلٍ وثابِ الخيال تنظران فى عيني امرأة جميلة باكية ؛ وبين ألم جامدٍ جافٍّ يضطربُ فى نفس الرجل وألمٍ سائلٍ متدفقٍ تضطربُ فيه نفسُ المرأة ؟

إن هذه الأنفسَ انما تشعر بمقدار ما فيها من الاحساس لا بمقدار ما فى الحقيقة من مادة الشعور ؛ وكأيٍّ من رجلٍ أبلهَ متغفّلٍ يدورُ مع الآلام والأوجاع دورانَ الغبار فى العاصفة فاذا رأيتَه توجعتَ له وداخلتْكَ الرقة عليه وثارت نفسُك من أجْله ثورةَ السخط على هذا الاجتماع الانسانى ، وتمرُّ بالرجل ثم تنساه . ولكنّ هناك طفلةً صغيرةً قريبةَ العهد بالغيب (١) قد ضلّت بيتَ أبويها فى المدينة المترامية فمشت ذليلةً ضائعة يتحيّرُ الدمعُ فى عينيها ، كما تتحيّرُ الألفاظُ بين شفتيها ؛ وقد ساورَها الخوف ، وتوثّبت نفسُها فزَعاً لهوْلِ ما هى فيه ، وجعلت عيناها تتوسلان الى الناس بالبكاء ، ولسانُها يتلجلجُ بألفاظ مرتعِدة كأنما ينتفضُ عليهن قلبُها الصغير ؛ وهى فى ذلك لا تبرحُ تتمثّل أبويها فتضطربُ اضطرابَ الفرْخ اذا سقطَ من وَكْره ولم ينْتهِض ؛ وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس فتبكى بكاءً

---

(١) كناية عن صغر سنها وحداثة عهدها بالوجود

تكاد تنشق له ثم تعود الى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة ؛ (١) فانظر وأنت أبو مثلها ماعسى أن ينزل بك من الحسرة ويتغشاك من الهم اذا رنت اليك هذه الطفلة من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبويها الماثل فى رأسها الصغير ، وهى تحاول بذلة ومسكنة أن تنقله الى نفسك وتبنيه فيها بألفاظها واشاراتها الضعيفة لتهتدى أنت اليه ؟

فالمصيبة ليست مصيبة بمادتها ولكن بما يقابل هذه المادة من نفوسنا ؛ ، ومن ثم فهى لاتؤثر فينا بنفسها ولكن بالكيفية التى تقابلها بها .

« قال الشيخ علي » : ثم سكنت « لويز » هنيهة لذكرى أيامها الأولى وهى تعلم أن لارجعى لها فقد استيقنت أن هذا الغنى ضرب بينها وبين الفقر حجاباً ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجاباً آخر كان ذلك الفقر وحده هو الذى يمنعها منه ؛ وكأن القدر لما اختط لها التعاسة رسم هذه الخطة بقلم من ذهب.

واستشرفت نفسها لخاطر غريب ألم بها فأضحكها على مابها من الهم ؛ فقد أحضرت خيالها ذلك الحبيب الأول فى شبابه الغض ؛ وقوته الثائرة ؛ وفورته العنيفة ، ونشاطه

(١) أنظر فى كتاب « السحاب لاحمر » الفصل الذى عنوانه « الطفلان » فان فيه بقية هذه المعانى وقد بنى على طفلين ضلا بيتهما

المهزوز وأرادته على حب امرأة فى أرذل العُمُر وهو عمر «الكونت» يلوحُ وجهُها فى العين ، كما تلوحُ القِفَار ؛ ويمتدُّ أنفُها بين الوجنتين ، كأنه جُحْرٌ فى أحجار ؛ ويضحك ثغرُها الأَدْرَدُ (١) فلا تشك أنه فى تلك الصحراء « غار » ؛ وقد ثابَرَتْ عليها الأوجاعُ والأمراض ، حتى أصبح جسمُها بين يدى الموت كالخيط بين شِقَّي المِقْراض .

ثم جعلت ذلك الحبيبَ يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصابَ عندها ملءَ أطماعِهِ ذَهَباً وفضة ؛ ثم وصلت بين شُعلة فؤاده الملتهب هوىً وشباباً وبين هذا الجسم الفانى الذى يُشْبِهُ حُطامَ اليَبِيس ؛ (٢) ثم أرادته على أن يعتقد أنها « السكَّرةُ » التى وُضعتْ فى كأس حياته لتُحْلِيَها ؛ ثم نظرتْ لترى ما يكون من أمره وأمرها من الحب حين لا يكون الحبُّ الامُرّاً غَمَةَ وإكراهاً فاذا الحُلُمُ قد انهال ، واذا الوهمُ قد استحال ، واذا الشاب لا يُحبُّ تلك المرأةَ ولا فى الخيال . . .

فجَهَدتْ أن تذكر فى تاريخ الناس من يكونُ قد امتُحِنَ بمثل هذه المصيبة وصَبَرَ لها كما يصبر من ذات نفسه على آفةٍ أو عاهة أو مُثْلَةٍ ، فأبى عليها الواقعُ أن يخرجَ لها مثالاً واحداً .

---

(١) الذى سقطت أسنانه (٢) كالتبن ونحوه من يبيس النبات

فكدَّت ذهنها فى تصوُّر هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة فلم تستقم لها صورة صحيحة ؛ وثبَتَ عندها أن حب شابٍّ قوىٍّ فى الثلاثين لعجوز هالكة سبعين هلكة [1]... أمرٌ يكاد يكون فى استحالة الجمع كطرح السبعين من الثلاثين فى حساب العَدد .

وعجبت أن يستأثر الرجلُ وحده بهذه الأنفة ويلتمس لنفسه فى هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره كأن هذه المرأة عجماءُ لاتبالى من صاحبها الا العلف ، ولو انتهى بها الى التلف ؛ وكأن كلَّ امرأة انما هى اسم ، على جسم ؛ فليس على الرجل إلا أن يختار اسماً ثم يُثبِتَهُ فى وثيقة الزواج بعد أن يُساوِمَ عليه ؛ أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف التمييز بحيث لاتأبى أن تتخذ أعوادَ فرشها ، من أعواد نعشها ؛ وأن تقيم لها قبرا فى البيت ، وتنظرَ كلَّ صباح فى وجه مَيْت ؛ وإلا فكم من فتاة كالقمر أخفاها نهارُ المشيب ، وكم من عروسٍ للحب زُفَّتْ الى غير حبيب ؛ وكم من وجهٍ صبيح ، يقبِّله ثغرٌ قبيح ؛ وكم من كعاب ، سال عليها اللُّعاب .... وكم من حُسْنٍ هو رمزُ الحياة قرَنَ به الموتُ رمزَه ، وكم من قدٍّ أهيفَ كالألِفِ لايرى إلا شيخاً أعجفَ كالهَمْزه ....

وهنا انتبهت « لويز » الى زوجها المتهدِّم الذى هو همزةُ

(١) كناية عن بلوغها السبعين

القَـطْـع والى تَصَابِيه المضحك وحماقته العمياء وحبه الأخرق ؛ فانتفضت من الغيظ وكاد بعضُها يَحْطِمُ بعضاً وجعلت خواطرُها تَنْبِضُ في رأسها كلمح البرق . وأخذت تلتمس الوسيلةَ لرد هذا البلاء عنها أو مدافعته ، بَيْدَ أنها كلما ابتدأت فكرا انتهى بها الى قولها : ماعسى أن أصنع ؟

هي لاتفكر الا فيما ينبغي أن تصنعه ولكن الفكر يُفضِي بها الى هذا السؤال بعينه فكأنها من الهم والحَيْرة منعزلةٌ عن نفسها وقد نَفَرَ منها فكرُها وقلبُها وحظُّها جميعاً ولم يبق معها الا روحُها المعذبة ، وهي كذلك بينها وبين زوجها وبين القَدَر

ولبثت زمناً لاتجدُ من رأيها الا قِطَعاً وأَشْلاءً حتى لمحتْ من نافذة القصر مركبةً تَدْرُجُ في الطريق ورأت سوطَ الحوذيّ يتلقى الامر منه الى الجوادين فلا ينزلُ عليهما الا انطلقا ملءَ العنان كأنما يحاولان الهربَ منه ولايعلمان انهما يهربان به ؛ فرثَتْ المسكينة للبهيمتين ثم كأنما حشرَتْ لها كلُّ مركبة على الأرض في صَعيدٍ واحدٍ فلم تذكر أنها رأت قطُّ سائقاً ليس في يده سوطٌ مادام بين يديه حيوان .. ..

وظلت واجمةً عند هذا الخاطر هنيهةً لأنها مابرحت تتاقى من ضربات القدَر وهي تَعْدُو في الحيـاة عدواً فيه من السرعة بمقدار مافي هـذه اللَّذعات من الألم . ثم قالت

ترى أيُّ حيوانٍ فى مِسْلاَخ (١) هذا الهَرِم ؟ وما كَذَّبتْ ان قلبت الخاطرَ على وجهه الآخر فتناولت السوطَ واستوت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها الا سبيلُ الحياة وظهرُ السكونت ....

وكذلك فاءَتْ من غضبها الى رضاً أقبحَ من الغضب ورأت أنَّ هذا الشيخ المأفونَ الذى يَتَطاوَعُ (٢) للصِّبَى وقد جاوز السبعين وهَلكَ فى الدهر ثم لايستحي أن يجعلَها مُثْلَةً على أعينِ الناس وأن يكونَ لها مُخْزِيةَ ولا كالمخْزِيات — جديرٌ به أن يجدَ منها كِفاءَ ماوجدتْ منه وجديرٌ بها أن تُبدله من شهر العسل شهراً هو أحقُّ به وأهلُه وهو على ذلك أقربُ الاشياء من العسل لأنه . . « شهر النَّحل » ! . . .

«قال الشيخ علي » هكذا يُفسِدُ الرجلُ المرأةَ وهويدرى أو لايدرى ، فهو يبتغيها مَتاعاً ويريدُها مَلْهاةً ثم لايقدِّرُ فيها غيرَ الطاعة لما ابتغى وأراد ، كأن الطينةَ الإلهيةَ التى جُبِلَ منها الرجلُ شديداً متماسكاً ، بقيتْ منها بعده هِنَةٌ ضعيفةٌ فتُركتْ حتى رَكَّتْ وانسحقتْ ثم خُلقتْ منها المرأةُ ذليلةً طائعة ..!

وإن أقذرَ خلقِ الله ليكونُ معه الدرهمُ فاضلاً عن حاجته فلا يجد مايمنعه أن يبتاعَ به الزهرةَ الناضرة ، ولكن العجيبَ من

---

(١) أى جلد (٢) يتكلف حتى يستطيع

أمره أنه اذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يُدنيها من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلاً قليلاً بل إنه ليستحي لقَذَره من طُهْرها، ولنَتَنه من عطرها؛ فلا يحملها حتى يتجمَّلَ لها، ولا يظهرُ بها حتى يكونَ فى الجمال أهلَها؛ وما أدرى كيف أدَّبته الطبيعةُ هذا الأدبَ مع شِبْهِ الجمال ولا تؤدبُ مثلَ ذلك الهَرِم الأحمقِ مع الجمال نفسه ؟

ويَعْمَدُ الرجلُ متى أصاب مالاً الى الطيِّبات من صُنُوف الطعام ومَلذَّات الشراب فيَتَضَلَّعُ ويَتَملأُ وليس فى ذلك من حَرَج إذ هو مالُه ينمو فى باطنه، فان ربح أو خسر فانما « المُضاربةُ » فى مَعِدته . . . . ثم يعمدُ أقبحُ خلق الله وجهاً وأظلمهم سِنَّةً وأشأمُهم طاعةً، بذلك المال نفسِه الى أجمل النساء فيُرْخي عليها أستارَ بيته [1] ويُساهِمُها قبحَه وجمالَها، وانما هى فى رأيه بعضُ الطيباتِ وصِنْفٌ شَهِيٌّ من طعام القلب، فترى فى أى جهة ينمو هذا المال الذى بذله وتَندَّى به فانى لا أرى له نمواً فى قلبه ولا فى قلب تلك الحسناء ؟

أما هو فما إن يزالُ يعرفُ منها البغض، وأما هى فما إن تزال ترى فيه القبح؛ وأحسبُ لو أنفقتَ ما فى خزائن الأرض كلِّها على التأليف بين الحُسن المبغِضِ وبين القبح المحبِّ ما ألَّفتَ ذاتَ

---

(١) كناية عن البناء بها أو احتظائها

بينهما ولازدتَ كلٌّ واحد إلا من طبعه (١) وكيف يرى هذا الدَّميمُ أن مرآةَ بيته التي اشتراها وبَذَلَ فيها واختارها على عينه لاتُظْهِره أبداً إلا دميماً وهو كلما بالَغَ في رَوْنقها وصَقْلِها بالغتْ هي في إظهار قبحه ودَمامته، ثم يريد أن لاتراه امرأته الحسناءُ الفاتنةُ إلا جميلا فاتناً ولاتكلمَهُ إلا في الحب ولا تقبلَه إلا قُبلةَ الهوى؛ كأنه هو الذي خلق لها عينين ولساناً وشفتين ..؟

ولَعَمْرُ الله لو أن في أضلاع هـذه المرأة قلبَ رجل من صيارِفة اليهود قد جَثَمَ على مَنْكِب الطريقِ وسرَّحَ الذمةَ والدين، والظنَّ واليقين، وجنُودَ إبليسَ أجمعين؛ في طلبِ الدِّرهم يأكلُه سُحْتاً، وينْحِتُه من أيدي الفقراء نَحْتا، لما رأته على ذلك المالِ وذلك القبح إلا كالخِرقة فيها دينار؟ فهي هي لم تُخرجها قيمةُ الذهبِ الغالية، عن كونها في اليد والعين خرقةً بالية.

أيريد الرجلُ لسعادته امرأةً لانَفْسَ لها ولاقلب؟ لعله يحاولُ ذلك ولكن كيف تُسعده إذن؟ إني رأيت في معاشرة الحزينِ للحزين شيئاً من الفرح يتنفَّسُ به الحزنُ على الحزن،

---

(١) تشذ الطبيعة في هذا المعنى أحيانا فيكون من بين النساء من لا تعشق إلا القبيح الخلقة ثم لاتهواه إلا لقبحه؛ وذلك واقع ولكنه نادر وله تعليل لامحل له في هذا الموضع

فليت شعرى أىُّ مَهْنَأٍ (١) أكثرُ لذةً وأحسن إمتاعاً من معاشرة اثنين كلاهما يَهْنَأُ الآخر ؟

أيها الهَرِمُ الأحمقُ الذى يستبدُّ بالجميلة الفاتنه ، إنكَ تعبثُ بذَنب السفينة فاذا انحرفت هُنا وهُنا زعمتَ أنها تَضلُّ الطريقَ لسوء تركيبها . . . . ألاَ فاعلم ويحك أنك لاتصلح أن تكون رُبَّانَ هذه السفينة ، واذا كنت تستطيع أن ترفع شِراعاً أو تحرِّك مِجْدافاً فما أنتَ وهذه الباخرة ؟ ماذا تصنعُ ويلك فى آلات هذا القاب الذى صنعته يدُ الله ليخوضَ لُجَجَ الحب فى بحر الشباب إلى ساحل السعادة ؛ وليس بينه وبين الهلاك إلا أن يرتطمَ فى ذلك البحر بصخرة الموت التى لاتكون أكثرَ ماتكونُ إلا من رأس رجل هَرِم .

عَسَيْتَ تقول إنك غنىٌّ مِلْءُ الأمل الواسع وإن هذه الحسناءَ ستُفضى من طريق مالِكَ الى طريق حبك لأن المالَ زعمتَ أوسعُ طرق الحياة وأطولُها وفيه مَنْفَذٌ الى كل طريق شئتَ أو شاء الهوى ، فلَعَمرى إن هذا المال كما تزعم ولكن لايذهبنّ عنك أنك لاتعرفُ الا فاتحةَ الطريق الى هذه

---

(١) هو ما يعبر عنه الناس بلفظ الهناء ولم يرد الهناء فى منقول اللغة بهذا المعنى الذى يستعمل فيه ولكن المولدين أجروه فى أدبهم وفشت الكلمة بينهم فى النظم والنثر

الحسناءِ وان خُطَطَ الآمال ليستِ من « شوارع التنظيم » أو الطرقِ السلطانيةِ التي يُفضِي كلٌّ منها الى جهة بعينها أوجهاتٍ لا يخطئها من انطلق بسَبيلها ؛ فقد تبدأ تلك الحسناءُ من طريق هذا الغنى الذى تفتحه لها ثم لاتلبثُ أن تنعطفَ الى مذهب من مذاهب قلبها ثم تأخذُ من هناك في ناحية من نواحي مصائبك لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية ؛ ثم تُفضِي من كل ذلك الى طريق من الحياة اذا هي أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك لبعض مَذهب ورأت وجهَكَ ثَمَّةَ كأنه صفيحةٌ مما تُكتَبُ عليه أسماءُ الطرقُ ، وقد كتب عليها «شارع المَقبَرَة » ....

أنت أيها الأحمقُ استنقذتَ هذه الحسناءَ من الفقر ثم جعلتَ تباعِدُ ما بينك وبينها ، فأخذتها خادمةً وجعلتها سيدةً وبصَّرتَها بما كانت تجهلُ من فنون الجمال وأساليب الهوى ، ثم جعلتَ غايةَ كل ذلك إمتاعَ جسمك الفاني ولذةَ قلبك الخَرِب ، فنسيتَ نفسَك بادىء الرأى ولم تذكر إلا الفتاةَ فاتخذتك صديقاً ، ثم نسيتَ الفتاةَ آخرا ولم تذكر إلا نفسَك فاتخذتك عدوًّا . فلولا تركتَها على جهلها و غرارتها مادام العلمُ بالحب لا يكشفُ منك للحب الا عن خُرافة ..؟

وياعجباً من غرام الشيوخ بالفتَيات : فان أكثر من أنت واجدٌ من المحبين وأهلِ العشق متى أصابهُ الكِبَرُ وذكر حوادثَ

حبه رأى فيها ما يسميه جهلاً وما يسميه حماقة وما يسميه غفلة وما يسميه خطيئة ؛ كأن الهـرَم يجعلُ الاشياء نفسَها هرِمةً إذ ينزعُ منها أوهامَ الشباب وغرورَه فلا تظهرُ من ثَمّ الاحقائقَ مُخلَّصةً فما عسى أن يرى الشيوخُ فيما يسمونه غراما . بل ما عسى أن يرى الحبُّ فى هؤلاء الشيوخ « المتطفلين » (١) الا مايسمي حماقةً وجهلا وغفلةً وخطيئة ؟

يحب الفتى الناشيءُ حبًّا طاهرا يَستَوْجِفُ قلبَه (٢) فيقول أكثرُ الناس : أحبَّ قبـل زمن الحب . ويعشق الرجلُ الهرمُ عشقاً فاسداً يستَوِقدُ ضلوعَه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقولَ عنه أحد إنه أحب بعد زمنِ الحب ، مع أن الفتى رجلٌ يُبْنَى والهَرِمَ رجل يُهدَم .

ولو لم يَضرِبِ الله على بصره لعلم ممـا تَشْرِعُ الطبيعةُ أن أحقَّ الناسِ بالخيبة رجلان : رجلٌ وُجِدَ قبل زمنه فلا يُحسنُ أن ينفع أو ينتفع ؛ ورجل أتى بعـد زمنه فلا يُحسن أن ينتفع أو ينفع .

متى كان الرجلُ حقوقاً فقط وكانت المرأةُ واجبات لاغير ، فقد خلا الرجلُ من العقل وخلَت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحيّ الذى يسمى الحب . فان لم يستطع ذلك

(١) من التطفل أو تكلف الطفولة (٢) يذهب به

العاشقُ الهَرِمُ أن يستردَّ لنفسه الصِّبي الذاهبَ حتى تحبه تلك الحسناءُ طائعةً ، فليسترجعْ لتاريخ الأرض وحشيتَه الأولى حتى تلوذَ به تلك المرأة كارهة .

ويلٌ للانسان من هوى نفسه فلولا هذه الحماقة فيه لما وُجد على الأرض خطأ ؛ لأن كل انسان حين يخطيء فانما يريد حقيقةً من الحقائق غيرَ أنه يجعلُ مَركزَها فى رأسه ولا يعتبرها الا من هُناك مع أن مركزها فى العالَم .

﴿ شهر النحل ﴾

قال « الشيخ علي » : كلُّ خطبٍ عَظُم مدةً هان بعدها الا خَطْبَ المرأة فانه متى عظم لا يزال يعظُم ؛ وما رأيتُ فى أصناف البلاء كالمرأة السَّليطة اذا هى استَكْلَبَتْ (١) فكأنما جعل الدهرُ الجائرُ أيامَها خطاً من خطوط مَدَارِه ، واتخذ من دار زوجها مَتْحفاً ثم أودعه تلك المجموعةَ من آثاره .... ويارحمةً لهذا الزوج فهو كلما خرجَ من بيته خَرَجَ خَزْيانَ يَتَنقَّب ، وكلما انقلب اليه انقلب خائفاً يَتَرقّب ،ولا تزال تعرفُ فى عينه نظرةً مغلوبةً وأُخرى مسلوبة ، وفى قلبه مصيبةً مستقرّةً وثانيةً مجلوبة ، وترى على وجهه سِمَةَ استخذاء (٢) كأنها مَسْحَةٌ

---

(١) يقال استكلبت المرأة واستسعلت اذا اشبهت الكلاب والسعالى والمراد البذاءة والشر وسلاطة اللسان (٢) هو الذل والخضوع

استهراء؛ ولروحه ظلاً على فمه ، كانه ظلُّ النَّخْوَة الهاربة من دمه ؛ ولايزال مع امرأته المكابرة ؛ كأنها ذَنبٌ وكأنه ندامة ، وقد جمعتْ عليه الدنيا والآخرة ، فكانه من خوفها فى موت ومن لسانها فى « قيامه » . . !

ومافى خلق الله أعظمُ من المرأة فهي طبيعةٌ وحدها غير أنها الطبيعةُ الدقيقةُ الحِسِّ ، وليس يُدرك الرجلُ حقيقةَ نفسه قبل أن يخلطها بنفسه . فاذا رأيتها خاملةً مغمورة ، أو ساقطةً مزجورة ، أو ميتةً فى الأحياء مقبورة ، فلا تُرَيَنَّ أنها مغلوبةٌ للرجل ولكنها مغلوبة لاحساسها ؛ وقد وفَّر الله عليها من القوة ماشاء ولكنه غمز منها موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وترى هي نفسها كأن لاقوةَ فيها ؛ وهذا سرٌّ من نظام الطبيعة فان أشجع الناس الذى لايخاف شيئاً يخاف أشياءَ كثيرةً من نفسه . فلولا أثرُ يدِ الله فى إضعافها ماقامت للرجل معها قائمة .

وهذا الموضعُ الذى أسلمها ضعيفةً مُستَخذيةً انما هو جهلُها بتصريف احساسها ، فليست القوة إلا شيئاً طبيعياً فى هذا الوجود كائنةً ما كانت ، وانما الشأنُ كلُّه فى العلم بطريقة استعمالها ، وما من رجل يُدارى المرأةَ نوعاً من المداراة فترضى عنه وجهاً من الرضا ، الا رآها في يده أضعفَ

ما خلق الله هيّنةً ليّنة سَمْحةً مطمئنةً إن كانت دون الملائكة فهى فوق الناس ؛ إذ هو انما يستولي على إحساسها فيأمنُ أن تُصرِّفه في غير مَرضاته ومحبته ، ومن ثَمَّ تصبحُ كأنّهاصورة من ارادتهوكأن فى نفسها نفسَه .

فان جَهِل الرجلُ كيف يُدرِايها وانقطعت الأسبابُ المختلفةُ بينه وبين رضاها ولم يكن أهلاً منها لما هى أهلهُ منه ، استَوْقَد إحساسَها وبصَّرها كيف تناله ومن أين تأتيه فابتُلي منها بفتنة ما تَهْدأ وَقْدَتُها ؛ فما السابحُ فى البحر اذا أراد أن يقيِّد الموجةَ العاتيةَ بالحبال ، ولا المصروعُ اذا حاول أن يدفع بيده ماأفزعه من جِنِّ الخَيَال ؛ ولا الطفلُ يبتغي أن يُمسِكَ القمرَ فى الماء ، ولا المجنونُ يتطاول فيقتلعُ النجمَ من السماء ؛ بأقدرَ ممن تُبغضه المرأة اذا زعم القدرةَ على إرْغامها ، وتصريفِ زمامِها ؛ ومَن تَمْضُغُه المرأةُ اذا زعم القدرة على إسكاتها ، والسلامةِ من بَركاتها .. .. ، ومَن تُحَقِّره المرأةُ اذا زعم القدرةَ على ردِّها ، وارجاعها دون حدِّها ؛ ومَن تصولُ عليه المرأة اذا ادّعى القدرةَ على إسقاطها ، والقوةَ على التقاطها .

فليس يُعجز الرجلَ فى سَلاطَة المرأة اذا هي سلّطَتْ عليه ما يكونُ من حِدَّة جِنانها ، وشدة عِنانها ، وشرَّة لسانها ؛ فكل هذه وأمثالُ هذه انما هي ضُروبٌ مما تُحاولُ من إظهار

عظمتها الطبيعية المغلوبة ، ومن أجل ذلك قلّما كانت المرأة السّليطة الاغالبة إذ هي نفس منفجرة .

ولقد يعجز الانسان أحياناً كثيرة أن يكون نفسه إذ لا تنقاد له الطريقة التي يغلب بها على الحوادث أو يجاريها أو ينبّه لها الحذر ومن ثَمّ ينكر نفسه كأنها غير التي يعرف من قبل ، ولكن المرأة متى ثارت لا تعجز أبداً أن تكون نفسها وما نفسها إلا أعظم ما في الخليقة من الخير والشر .

قال «الشيخ علي» : كذلك صارت « لويز » مع زوجها وانحازت اليها طبيعته الغالبة فكانت قوية به وبنفسها وكان ضعيفا بها وبنفسه .

ألا وإن أخلاق المرء انما هي أعصاب أعماله فانظر ويحك ماعسى أن يكون في البغض أشد من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها ، ولحاضرها ومستقبلها ؛ وصارت حياتها كلها من الشر والسوء كأنها لعنة يصبها الله على رأس هذا الهَرِم ؟

وكذلك اندمج في إرادتها كما يندمج الثعلب في فروته الجميلة الناعمة . ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين حلقه والوريد ، ويجيئها وقد أجمع النيّة أن يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره ؟ ويجهد أن تعلم أنه زوجها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلم أنها زوجته ... ويوسع قلبه عزماً أن يفعل ويفعل ، ثم يراها فيخشى أن تكون اطّلعت على أن في قلبه شيئاً من العزم ؛

وهو لايعلم بزعمه كيف أَنكرته وكيف تغيَّرتْ عليه وكيف تنكَّرَت له ولكنه يريد أن يسأل كلَّ شيء عن ذلك إلا وجهَه .... ذلك الوجه الذى جعله الحبُّ أقبحَ ما عَرَف من دائه، وأشدَّ ماخاف من أعدائه ؛ وما أفضى اليها مرةً وهو يحملُه .. .. الاَّ عرف أنه من ذَنْبه فى حبها وأنه من عذرها فى بغضه ، فيُطرقُ إطراقةَ يتكلفُها ويحسبها تَشْفَعُ له عندها لأَن فيها ذلَّ الشَّيْبة ، وألمُ الخَيْبة ، وشدَّة الهَيْبَة ؛ ولكن وجهَهُ يظهر وقتئذ مَظهراً ليس فى معنى السماجة أسمجُ منه إذ يكون كاللص الذى لاينكرَ على مَلأٍ من النَّاس أنه سارقٌ وهو مع ذلك يحرصُ على أن لايؤخذَ منه ما تجشَّم فى سرقته . وقد عرفت المرأةُ أنها لاتغْمزِ منه الا مَكاسِرَ عظمِهِ الواهِن ولا تَطأُ منه الا كلَّ مِفْصَلٍ مَرْضُوضٍ ولكنها عرفت كذلك أنه ظالمٌ لنفسه إذحمَّلها ماليس فى طاقته ، وظالمٌ لها اذ أرادها على ماليس فى طاقتها ؛ فهو ظالم أشبهُ بمظلوم . وما مَثَلُه فى حبها الا كمثَل الفَراشَةِ لاترجع دون المصباح إلا أن تُخالِطَ نارَه فما تحتالُ من حيلةٍ الا أحسَّت منها حَتْفَها وتَلَفَها ؛ غير أنها لا تزالُ تنزِعُ من ذلك الى ماينبغي أن تنزعَ عنه ، وكلما تَهافَتَت انحصَّ جَناحُها من ناحية؛ ومع هذا كلِّه لاتسكنُ مادامت فيها حركةٌ تنبعث .

ومامن شيء الا وقد جعل الله فيه النفعَ والضررَ ؛ فمن

التمسه على حالة منهما لم تؤدِّه الى الأخرى ، وما تغني الانسانَ معرفةُ الاشياء على حقائقها الا اذا عرف مع ذلك فروقَ ما بينها وتبيَّن الحدودَ الفاصلةَ بين الشيء والشيء الآخر وبين الحالةِ والحالةِ فى الشيء الواحد ؛ فقد يكونُ الافراطُ من الدواء داءً مع الداء ؛ وقد يجتمعُ من طعامين بلاءٌ لا يكون من جوع يومين .

والمرأة هي هي فى حاجة الرجل اليها ولكن كلّ امرأة تكاد تكون جنساً بعينه فى حاجتها الى الرجل فمن ههنا أحبت وأبغضت. ولو أن هذه المرأةَ مما تنبت الأرضُ وتسقي السماءُ لقد كانت تصلحُ مع كل رجل كما تصلحُ لكل رجل ؛ ولكن لها قلباً ؛ وحساً مع هذا القلب ؛ ونفساً مع هذا الحسّ ؛ ورقّة مع هذه النفس ، فهى ان لم تحب الرجلَ من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبته ذلك الحبّ الروحيّ العجيبَ الذى يوصف بانه حبُّ المرأة (١)

قال «الشيخ علي» وقد رأت « لويز » أن زوجها خَرِبٌ من كل جهاته، وأكبرُ ما فيه أنه كالأرض الفضاء اذا ضُرِب عليها سُورٌ وجُعِل فى هذا السور بابٌ ووُضع على هذا الباب قُفْل .. .. فما غناه العريضُ ولا ما له الكثير ولا اسمُه فى أهل الغنى الا كتلك

---

(١) نحسب اننا استوفينا كثيراً من معانى الحب وأوصافه الجميله في كتاب «رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب» وصنوه « السحاب الاحمر »

الحدودِ المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء .

وكانت ترتاعُ لذله وترقّ لخضوعه وتودُّ لو استطاعت أن تراه غيرَ من هو فتعرفه غيرَ ماعرفته وتجزيه غيرَ ما جزته ولكنه لم يكن يجيئها أبداً الا باديَ المقتل ولا يريد مع ضعفه أن يعدلَ عن محزّها ؛ وما أماتت من نفسه نزعةً الا انبعثت فيها نزعةٌ أخرى كأنه رأى فى غضبها جمالاً لم يره فى رضاها ، وأحسّ من سورة شبابها وفورة غيظها مايعالج منه خمودَ الهرم وبردَ الموت فى عظامه ؛ فاعتاد منها ما تجزيه ، واعتادت منه ما يخزيه ؛ ومرّا على ذلك دهراً مات فيه الوفاء ، ومرضَ الحياء؛ فاذا تاريخُ هذه المرأة كله لعنات ، واذا عِرضُ ذلك الرجل كله طعنات .... وأصبحت ملكةً عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم : من أرادَ مصاحبةَ الملوك فليدخلْ كالأعمى وليخرجْ كالأخرس .... !

وبعدُ

فان آلام النزْع وان لم تكن هي الموتَ ولكنها أشدُّ منه حتى إن الموتَ ليكونُ راحةً منها ؛ وقد مدَّ الله فى نزع (السكونت) مدًّا طويلاً فكانَ يقظانَ العينِ نائمَ الروح وكأنه مقبورٌ فى جلده ، وكانت زوجه لاتالوه موتاً فليس يراه أحد

الا ظن أنه لِمَا به [1] ولـكنه لا يموتُ لان أيامه كانت بعضَ ما كُتب فى الأزَل من تاريخ هـذه البائسة ؛ وقد حمله الله على الأَمل والأَملُ مَطيَّةٌ دائِبَةٌ لا تكلُّ ولاتنقطع ولو ذهبتْ تقطعُ مَسافةَ ما بين الضِّدَّين لتجمعَ أحدَهما بالآخر ، فما يزال يحسبُ أن لزوجته فَيْئَةً بعد شِرَّةِ الصِّبي ، وأن تَقادُمَه فى الهَرَم وتقدُّمَها اليه سيُصلحان ما أفسد الدهرُ منهما جميعاً ؛ وليس فى الناس أحمقُ ممن يدفع نفسَه الى مايظنُّ فى حين تدفعه نفسُه الى ما يَسْتَيقِن .

أما هي فرأت أن لاسبيلَ الى انهزامها أو تَرَاجُعِها بعد ما أنزلت أخلاقَها الى المعركة . . . . كأَنها ماتت قبل أن تموتَ فليس يضرها أن تقع فى هذه المعركة هالكةً وليس ينفعُها أن تخرجَ منها حية ؛ وكل شىءتستدركُ منه الحيلةُ الاماأفاتت المرأةُ من شرفها النسائى فانه إن فَرَطَ منه فارِطٌ لم يُستَدْرَكْ .

فبسطت عنانَها فى يد الأَقدار وانطلقت على أثرها صاغرة .

وقَطَعَ الفَلَكُ فى دورته عشرَ سنوات حتى تَفَرَّى الليل عن صبح لم يشهدهُ (السكونت) [2] فترك لامرأته ماجمع وترك فيه ذلك الموتَ الحيّ . . . . وتركها فى تلك الحياة شجر

(١) أى فى الموت كأن مابه لابد آخذه

(٢) كناية عن موته

مَرْداء (١) ؛ غير أن اللذات لم تُبْقِ عليها بعده فقد لا تقتلُ الآلامُ اذا أسرفتْ على النفس ولكنَّ اللذات لابد قاتلة ؛ وكأن الطبيعة فرَضتْ على الانسان أن لا يلذَّ بالعيش الا حيث تكون لذته اختلاساً فانما ركِّب على أن يَشُدَّه ما يُؤلمه ، ويَبْني منه ما يحسبُ أنه يَهدمه ، فان هو حمَل نفسه على لذتها وأطلق لها ما بين هواه ورأيه فقد أراد لبنْيته الضعيفة وضعاً ليس فى هندسة الحياة فلا تترك فيه اللذاتُ الا أمراضا ولا تحمل منه الأرضُ الا أنقاضا . ولو لم تكن هذه اللذةُ المُسْرِفَةُ سبباً الى الموت لما ركِّب فى غريزة الانسان كرهُ الموت من حب الاستمتاع بها والحياةُ فى « عمليتها الجراحية » المؤلمة لا تحزُّ إلا بأسلحة الآلام الحادَّة واللذات الحادة .

*
* *

وبيعَ ذلك القصرُ وما ضمَّه ، وكان فيما يحويه بعض رُفوفٍ من الكتب يُباهي الأغنياءُ بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها رسمٌ ليس فى الحائط . . . . فاشتراها أديبٌ تأدَّى اليه خبرُ الكونت وامرأته فانه ليقرأ منها ذاتَ يوم فى كتاب يصفُ البأساءَ والضَّرَّاءَ من هموم الحياة إذ نَدَرَت ورقةٌ كانت بين

(١) لا ورق فيها

صُحُفِه ، فالتقطها فاذا فيها رُوحان تَعْتَلِجَانِ [١] بين هذين السطرين :

الفقرُ خُلُوٌّ من المال ؛ ولكنَّ أقبحَ الفقر الخُلُوُّ من العافية.

«فيكتور»

والغنى أن تملكَ من الدنيا، ولكنَّ أحسنَ الغِنى أن تهنأَ فى الدنيا،

«لويز»



(١) تصطرعان وتقتتلان

الفصل الثامن

الحظ

« قال الشيخ علي » : وإن فى نفسى أشياءَ من كلمةٍ بين الكلام قد ضلَّ بها الناسُ ضلالاً بعيدا ؛ لا أعرف كيف استُحدِثت ولا من أين انصَبَّت على الدنيا وقد خرج الناسُ من أن يهتدوا فيها الى حقيقةٍ مُخلَصةٍ إذ لم تُوضَع فى لغاتهم موضعَ شرح وإبانةٍ ولكن موضع غموضٍ وإبهام .

ويا عجباً للانسان كيف اهتدى الى التعبير عن المعانى الالهية التى يكونُ المعنى الواحدُ منها تاريخاً طويلا لقَدَرٍ من الأقدار المستَكِنَّةِ فى غيب الله من لَدُن يُقضَى الى يوم يقَع ، وكيف تُلقى فى نفس هذا الانسان معانى الغيب فيردُّها ألفاظاً يحملُ منها السماءَ بأفلاكها على بضعةِ أحرف(١)

على أن أعجبَ مافيه أن يُعبِّر عما تناله قوَّتُه بألفاظ صريحةٍ خالصةٍ لا لَبْس فيها ولا اختلاط ، فاذا انتهى الى مايضعفُ عنده أو يعجزُ دونه أشار اليه بحروف مُبْهمَةٍ لايكونُ لها فى نفسه من الدّلالة الغامضة أكثرُ مما يدلُّ المجهولُ على أنه مجهول . فالانسان متى أَحسَّ القوةَ رأيتَه كأنما يحاول أن يُسمِعَ السماءَ

---

(١) ككلمة « حظ » مثلا فهى ثلاثة أحرف وتحمل الغيب.

بطنين ألفاظه المكشوفة عن معانيها أنه موجود على الأرض، ويحاول أن يظهر للأرض بصراحة هذه الألفاظ أن له إرادة تعمل مع الأقدار فى تسخير الطبيعة . ولكنه عند العجز والضعف وعندما يتخيل صفات من القوة الأزلية ولا يحسها ، تراه يرسل الكلمة الخفيفة التى تشير الى كبريائه بشىء من الصراحة اللغوية المحدودة والى ضعفه وعجزه بإبهامها المطلق ، فما إن تزال فى هذا الوجود اللغوى خالية من المعنى على وجه التعيين والنص حتى يقع بها قدر من الأقدار فيكون هو معناها (١)

وضعف الانسان لا حد له فلا حد لما يستعمل من الكلام المبهم الذى يحمل ماشئت أن يحمل ، ولولا ذلك لما صح أن تكون الفصاحة نفسها وسيلة من وسائل التعمية فى محاورة الخصوم .

قال « الشيخ علي » : أما الكلمة التى أشرت اليها فهى لشمول معناها الطبيعى وإبهامه كأنها لغة للنفس الانسانية أين وجدت ولكن ليس للانسان أن يفسرها بل هو يتعلل بها ويتعلق عليها ويعلم أنها كذا خلقت ، لأنه إن قدر معناها قدره على قياس لا يبرح يطوى هو من طرفه ليعرف ماذا يبلغ وماهي

(١) حين ينجح الانسان يقول فعلت وفعلت ولكنه حين يخيب يقول « القدر » ويسكت

مسافته، ويبعد القدر من طرفه الآخر ليفسد عليه ما عرف.

فهي كلمة يستوي عندها خطأ الانسان وصوابه ولهذا يراها واقعة في موضعها وفي غير موضعها ولا معنى لها عند هذا الانسان الا أنها اتجاه حركة القدر، وهي «الحظ».

الحظ يابني كلمة غامضة غموض النفس الانسانية يتعزى بها أهل الارض جميعاً ويظهرون فيها إيمانهم الفطري الذي لا بد منه للقلب، فما دام هذا الكون على تركيبه العجيب، ومادام هذا التركيب على غموضه المعجز بحيث لا يمكن أن يعرف بجملته، ومادام في هذا الاعجاز موضع حيرة للعقل، فلابد في اللغات من ألفاظ تصور كل ذلك وتصفه على تلك الوجوه العجيبة بحيث تكون اللفظة إقراراً من الانسان وان جحد وصورة لايمانه وان كفر.

وهذه الكلمات من أوضاع الالهام فلا تخلو منها لغة من اللغات وهي بعد في تفاوتها وظهورها كدرجات الايمان من أدناها الى أعلاها، فمن لم يؤمن بالله وجد في لغته لفظاً للقدر وهو الايمان بعمل الله؛ فإن كفر بالقدر اعترضته نفسه بكلمة الأمل وهو الايمان برحمة الله؛ فان جحد هذه اعترضته طبيعته الانسانية بكلمة الحظ وهو الايمان بقدرة الله. ولا أحسب أن في الأرض رجلا يكفر بهذه الأربعة جميعاً.

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من إيمان وكان الكافر

كأنه إنما يؤمن من أضعف موضع في الكون (١) ، وما أشبه الإيمان بجبل راسخ يحمل الناس كافة غير أن المؤمن يصعد مرتقياً من جهة والكافر ينزل منحدراً من الجهة الاخرى .

والعجيب أن كلمة « الحظ » نفسها يضعف معناها ويقوى بعكس مايكون في الانسان من قوة الايمان وضعفه . فالرجل المؤمن القوي في إيمانه بالله قلما يفهم من هذه الكلمة الا أضعف ماتريد النفس منها ، فهي تبعثه على تذكر قضاء الله والاستكانة لقدره والتعزي عما فات بما لايزال في الغيب ، ولكنك واجد ضعفاء الايمان لايفهمون منها الا القوة المسخرة لحوادث الدنيا ولا يريدون بها إلا تسخير هذه القوة في منافعهم ؛ ومن ثم تهيج الكلمة في أنفسهم من معاني السخط والارتماض أكثر مما تبعث في نفوس المؤمنين من معاني التسليم والاستكانة ؛ وهذا عجيب من طباع الناس لولا السبب الذي كشفته لك .

وما أراك تحسن معرفة هذا السبب مالم تعرف حقيقة ما أريد بكلمة (الايمان) ، فاست أريد بها ذلك المعنى الذي يتعاون على تمثيله البناء والنجار والحداد وغيرهم من أهل الصناعات حين يشيدون المساجد والبيع والصوامع ونحوها من أمكنة العبادة ، فإن هي إلا بعض مظاهر الدين الاجتماعية لاغير ولا يمكن

---

(١) أو هو اليقين على طريقة كما مر في الفصل الاول

أن يُحْصَر الضميرُ الانسانيُّ بين حائطين.

وانما الايمانُ هو ذلك المعنى الذي يُلقى على روحك السكينة لأنها متصلة بالله ، وفى ضميرك المحبة لأنه متصل بالناس ؛ وهو ذلك المعنى الذى يعلمك ما أنت من حولك وما حيال تلك مما وراءها؛ وهو ذلك الاعتقادُ الكبيرُ الذى تصغرُ عنده الحياة بما فيها من الخير والشر وتهونُ بما فيها من النفع والضر، لأنه قائم على الفكر الذى هو بقية ما نفخ اللهُ من روحه فى الانسان الأول (١) فلا يضعفُ أبداً مادام فى الكون قوة ، ولا يفتقرُ أبداً مادامت الطبيعة غنية بجمالها ،ولا يسقط أبداً مادامت السماء قائمة، ولا يموتُ أبداً مادامت الحياة باقية؛ ومتى خضعت له استحال عليك أن تذل لصغائر الحياة لأنه هو لا يذل؛ ومن مظاهره تلك العظمة التى تكون فى الابطال فيستهينون بالحياة إذ هم أهلُ الموت ؛وفى العظماء فيتنزهون عن الدنايا إذ هم أهل الأخلاق ؛ وفى الحكماء فيزهدون فى حطام الدنيا إذ هم أهل النفوس .

ومن ثَمَّ كان الايمانُ الصحيحُ حريةً صحيحةً لأنه يعصم من ضروب الذل كلها ؛وكان منفعةً خالصةً لأنه الحدُّ القائم بين النفس وشهواتها؛ وكان عزاءً نافعا لأنه العقلُ السماويُّ الذى يُلهم

(١) يشير الى قوله تعالى فى خلق آدم عليه السلام « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »

الانسانَ حكمةَ كل مصيبةٍ أو يلهمه الثقةَ بالحكمة التى يجهلها؛ ولو أن للفضيلة عبادةَ لكانَ لها من أخلاقِ كل رجلٍ صحيحِ الايمانِ مسجدٌ تَعبُد اللهَ فيه .

ولا يصح إيمانُ المرء حتى يتبيَّنَ لنفسه طريقا الى ربه فيرى كأَن قطعةً من السماء فى باطنه تُضيء له الحياة ، ومتى عرف هذه الطريقَ وامتدَّ بها ضميرُه الى حيث يتصل بجلال الله فمن هذه الطريق نفسِها يردُّ مصائبَه الى الغيب كما جاءت من الغيب لأَن للقدَر طريقين : فواحدةٌ يندفعُ منها وهذه لا تُعرفُ الا بعدأن تقع الواقعةُ فتدلَّ عليها بنفسها،والأُخرى هي التى ينصرفُ اليها القدرُ فى حركة الدهر وهذه لايوفَّق الى معرفتها غيرُ السُّعداء ومن كَتَب الله لهم أن يكونوا مظهرَ حكمته أو مظهرَ حمده

فقومٌ يجدونها فى إيمانهم الوثيق ، وآخرون يصيبونها فى حكمتهم البالغة ؛ والمؤمن انما هوصورةٌ قلبيةٌ من الرجل الحكيم والحكيمُ انما هو صورةٌ عقلية من الرجل المؤمن . فاذا نزلتْ باحدهما المصيبةُ وبلغت منه مالا يبلغُ الصبرُ فتح لهاطريقَ السماء من باطنه فيُبصرُها كأَنها مُدْبِرة ، والمصيبة متى وُجدتْ كالحياة متى وُلدت لامحلَّ للعقل أبداً فى أولها ؛ فان هي ذهبت مُدْبِرةَ اعترضها المرءُ على عينه فتنكشفُ له عن معناها فيتبيَّنُ حكمةَ الله منها ويرى حينئذ كيف تُنَقِّحُ يدُ الله فى تاريخه.

وما أرى المصائبَ فى نظام الكون الاحركات ظاهرةً تسير بها نعمٌ مجهولةٌ لاتزال من وراء الغيب ؛ وكثيراً مايكون من هذه المصائب ما ينبّه اللهُ به الناسَ من غفلاتهم حتى لايقعوا فى أشدّ منها اذا تُركوا لما هم فيه. فليست النازلةُ هي المصيبةَ ولكن المصيبةَ من جهلنا وضعفنا ؛ ألم تر الى كل نعمةٍ مع الجهلِ والضعف كيف تَحْمُقُ(١) وتضعفُ حتى لاتكونَ مع صاحبها الاقريباً مما تكون المصيبةُ مع صاحبها؟

قال « الشيخ علي » : والحقيقةُ يابنىَّ أَنّ من لم يكن كفؤاً لما ينالُه هَلك بما ينالُه ؛ فالحظُّ توفيقٌ والتوفيق أن لايكونَ لك إلا ما تَصلُحُ له فأنت بذلك مطمئن ، ومن ثمرة الاطمئنان الرضا ، ومن غاية الرضا أن تستَمْتعَ بما أنت فيه ؛ فأيُّما رجلٌ أصابَ فاطما أَنّ فرِحىَ فاستمتعَ فهذا هو ذو الحظ وان كان عندغيره لم يُصِبْ الاقليلاً ولم يطمئنَّ الا من ضَعفٍ ولم يرْضَ الا من عجز ولم يستمتع الا بأهون المتاع

إنّ كل امرىء يريدلنفسه لا لسواه وإنأولَ التوفيق أَن تريد مايُصلحكَ وأولَ الخذْلان أن تريدمالا يَصْلحك ، وماالطمعُ إلا فقرٌ حاضرٌ ولو كان طمعَ الغني .

وإن هذه النفوس لَتَبْلَى من طول مايلبسها قَدَرٌ ويخلعها

(١) بمعنى تكسد من قولهم حمقت السوق بضم الميم أى كسدت

قدَر ، فلقد رأيتُ غيرَ الموَّفقِ حين يجُور فى إرادته ويضلُ فى مَسْعاَته ويلتمسُ من الغيب ما يُقَدِّر لنفسه دون ماقُدِّرَت له نفسُه ؛ لايبرحُ يكدُّ ويسعى وكلما لَبِسَ حالةً من دنياه فاضت عَليه فخلَعَها أوضاقت عنه فَخَلَعتْه ، ولا يزال ذلك من دأبه ودَأب القدرَ معه حتى يهِنَ ويَضْعُفَ ويصيرَ الى البلى فى نشاطه وحزمه وفى طِماحه ورغبته ، وقد أنفق من حياته مالا يُرَدُّ فى ابتغاء مالا يُدْرَك ، وهذا كلُّه هلاكٌ بطيء يأتى على العمر ، وما العمرُ بمقدار الزمن الذى تعيشُ فيه ولكنه مقدارُ ماتوفَّق من عيشك

وهل سمعتَ برجل كان يحفر قبره منذ عَقَلَ معنى الموت وقد نَذَرَ أن لا يَحُولَ عنه ثم لم يزل يُوسِعُ الأَرضَ من عمله ويُفسحُ فى جوانب هذا القبر وعُمِّرَ طويلاً وغَبَرَ على ذلك دَهْرَه حتى أصبحَ قبرُه يأكلُ القبورَ أكلاً[1] ثم أدركهُ الموتُ فانطرح فيه رُمَّةً باليةً فاذا هو لا يملأُ من جوفه عملَ يوم واحد مما كان يعمل ، وبقيت الحفرةُ كأنها فمٌ مفتوحٌ تصيح منه الأَبديةُ : أين الميتُ العظيمُ الذى أعدَّ كل هذا لجيفته .. .. وما بالُ هذا الساعِدِ وما بالُ هذا المَنْكِبِ وفيم كان ذلك العملُ وما هذا النبوغُ الميتُ الذى ضاعت فيه الحياة ولم يَعْظُمْ به الموت؟

«١» كناية عن السعة كأن القبور فى جوفه

إنك إن لا تكن سمعت بهذا الرجل فلقد رأيت كثيراً من مثله يعملون للحياة عمل ذلك الأحمق بعينه للموت ؛ فهو لم يمت بمقدار ما أعدّ لنفسه وهم لا يعيشون بمقدار ما جمعوا لأنفسهم؛ ومنهم من أنفق العمر فى أكثر من حاجته ومنهم من أضاعه فى غير حاجته والعمر لا يُستخلف ، وكلا الفريقين طرفٌ من قياسٍ واحدٍ فى الخذلان وان كان أحدهما يبتدىء من عكس الجهة التى يبتدىء منها الآخر .

لا يوجد على الأرض من يملك شيئاً فى الارض غير محدود، ولكن ما من أحد يملك طمعاً محدودا فى نفسه ؛ ومن هنا كثر ما يسميه العامة « سوء الحظ » وانما هو سوء التوفيق.

أما حسن الحظ فما أحسب الناس يعرفون ما هو ؛ وما أراه إلا رغبة مجنونة لا يُقرّها العقل ولا يستقيم بها نظام الدنيا ،وانما عرف الناس فى كل وجه من وجوه الحياة كيف تكون الخيبة وكيف يمرض الأمل وكيف يهلك الطمع ؛ وسمّوا ذلك « سوء الحظ» فحسبوا أن لهذه الأحوال ضدًّا وجعل كلٌّ واحد يتمنى لنفسه هذا الضدّ ويصفه ويسميه « حسن الحظ » لأنه زعم لا سوء فيه ؛ كالذى يسمع بالموت فيحسب أنه يعرف ما هو الموت؟ والحقيقة أنه لا يعرف منه شيئا وانما عرف الحياة الهالكة .

يأبى كلُّ أحمق إلا أن يختط لله خطة يبنى له عليها مستقبله،

فكأنما يريدُ أن تمشيَ يدُ الله فى التقدير على أجزاء الصورة التى فى خياله (١) ..! ولو جمع الله أبنيةَ الأمانىّ من أوهام الناس ومثّلها وكشفَ عنها الغطاءَ فأبصرناها لرأينا ثَمّ « مدينةَ المستقبل » التى لا يملك أفخمَ قصورها إلا الصّعاليك . . . .

أما أنا فلا أرى كلمة « الحظ » فيما نأمله وفيما نتعلّل به إلا لحناً من الألحان الطبيعية التى خُلقت فى أفواهنا لنتغنّى بها تحت الأحمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفس كى تجمّ الطباعُ وتَنْشَطَ للسير بأحمالها ، فما الانسانُ إلا دابّةٌ للحمل وعليه أن يحملَ من معانى المادة التى يعيشُ فيها أو يعيشُ بها ، والزمنُ نفسُه بحكمته وعلومه وحوادثه انما يعلّمنا كيف نحتملُ الأسْواءَ والهمومَ أكثرَ مما يعلمنا كيف نتّقيها .

قال « الشيخ علي » : ولكن يابنىّ ماهذا الذى يرتفع بالخامل ويتقدم بالعاجز ؛ ويجعل النَّكِرَة معرفةً والمعرفةَ نكِرةً ؛ ويضربُ وجهَ الحق عن مُسْتَحِقّه ويُفْلِجُ (٢) الضعيفَ وما يسمو به أملٌ ويحرمُ المُجِدّ وما يشكّ فى الظَّفَر ؛ ويخالف فى سبيل الاقدار بين نصيب ونصيب ؛ ويقطعُ فى محاولة الامور

(١) من كتابنا « السحاب الأحمر » فى فصل الصديق : ماالخيبة الا ردالأقدار علينا حين نقول لا . وقد افضنا هناك فى هذا المعنى فانظره

(٢) أى يظفره بحاجته

بين الأسباب والغايات ؛ ويُبعِدُ المنفعةَ مما به تمامُها فاذا هى مَضَرَّة ومَفْسدة ؟

لعلك تقول : إن كل هـذا يجتمع فى كلمتين هما « السعدُ والنحس » وهما تنطويان فى لفظة واحدةهي «الحظ». ألا فاعلم أن هذا من وضع الانسان لامن وضع القَدَر وهي مذاهبُ لغويةٌ تمرُّ بين أنفسنا وبين أفهامِنا ؛ وقد جئتني بجُمَل تنطوى فى كلمتين ؛ وكلمتين تجتمعان فى لفظة ؛ وأنا آتيك بجُمل فى كلمات فى صوت واحد ؛ فما هي صرخة الألم مثلا ؟ أليست قطعةَ طويلةَ من كلام النفس يجمعها الحِسُّ الثائر المتألم وينتفضُ فيها فلا تكونُ إلا صوتا واحدا . وانظر أين هذا الصوتُ مما يشرحه لك الطبيبُ من أسباب ذلك الألم وعوارِضه فى كلام طويل وعبارةٍ سابغَةٍ لايتألم منها حرفٌ مع أن أحدهما انما يفسِّر الآخر كما ترى .

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء(١). لقد خرجت من تاريخ النوع الانسانىّ كله ،فاز هذا الحيوانَ العاقلَ كان يشعر بمعانى الاشياء قبل أن يضع ألفاظها ، وكان السخطُ والغيظُ والحسدُ والمنافسةُ ونحوُها من غرائزه الطبيعية، إذ هي المعانى التى بثّها الخالقُ فى نفسه لتـُنشىءَ فى الأرض تاريخَ هـذه

(١) أى السعد والنحس والحظ

النفس . فكان اذا تعادى رجلان أو فئتان فبغى بعضهما على بعض أحس الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه وأيقن المغلوب أن قوى الطبيعة عليه لأن الانسان لم يكن عرف نفسه بعد وكان هو وحده يمثل فى هذه الطبيعة المخيفة الرائعة فكرة الخوف العاقلة .

فهذه الثقة فى القوى الطبيعية المجهولة من الانسان وهذا الشك فيها والخوف منها هما الأصل فى تاريخ لفظتى السعد والنحس .

ولقد كانت الأمم القديمة كلها تتوسل الى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلاسم والتمائم والتعاويذ ونحوها من الأعمال والعادات المأثورة فى تاريخ كل أمة ، لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتد مع الانسان فخرج من مخافة الطبيعة الى الرغبة فى إخافتها حتى تنزل على حكم الانسان فى اجتلاب الخير ودفع الشر ؛ والزمن لا يأتي على الغرائز فيمحوها ولكنه يحول منها شيئا ويهذب منها شيئا ؛ ومن هنا كانت كلمة « الحظ » فاشية فى المتمدنين لأنها آخر صورة مهذبة من تلك الغريزة الأولى .

أما إن فى حوادث القدر أشياء لا نفهم وجه الحكمة فيها وهي الحظوظ والأقسام فذلك صحيح فى نفسه بمقدار ماهو خطأ فى أنفسنا ؛ والشذوذ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريف القدر أمر معلوم ، ولكن لماذا لا يكون قاعدة لأشياء نجهلها مادمنا نجهل الغيب كله ولا نعرف منه شيئا ؟

ما رأينا قطُّ فى تركيب هذا الكون المعجز شيئاً خارجاً عن موضعه ولاشيئاً زائداً فى موضعه ، فلِمَ نظن مثلَ ذلك فى الجهة التى تتصل بنا من حكمة الله ، جهةِ السعد والنحس ؟

يابنىَّ انما قَربت النعمةُ من فلان لأَن القدَر يسوقُها اليه ، وانما بعدت النعمةُ عن فلان لأَن القدَر يسوقها الى غيره ؛ واذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابَه فربما سعى المرءُ بكل سبب فلم يُفلح ثم يقعُ له سببٌ لم يمْتَهِدْ له وسيلةً قطُّ فاذا هو عند بُغيته واذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يَئِس منه ، فلا يكون عجَبُه كيف خابَ فى الأولى بأشدَّ من عجبه كيف نجح فى الثانية .

وهذا هو مظهر إرادة الله فان صادَفَ من بعض النفوس الضعيفة حسدا أو غيظا أو سخطا أو منافسةً أو نحوَ ذلك مما يكونُ مظهراً لضعف الإيمان فى النفس تحوَّلَ المعنى الى لفظ يحمل كلَّ هذه العواطف الوحشية فالبِس الكلمةَ التى تَسابُ الإنسانَ قوةَ نفسه وتكاد فى إبهامها تساب الأَقدارَ قوةَ الحكمة أيضاً وهى كلمة « الحظ » . ألا ترى أن أحدا من الناس لا يتعلَّل بهذه الكلمة ولا يحتجُّ بها ولا يَسكُن اليها الا من غيظٍ أو سخطٍ أو حسدٍ أو عجز أو ماهو بسبيلٍ من هذه المعانى ؟

قال « الشيخ عليٌّ » : فلم يبق من معنى « الحظ » إلاأن يقال : وَلِمَ وُفّق فلان ولم خُذِل الآخرُ وماهو بدونه وربما كان أحقَّ

منه وربما كانت المنفعة به أكثرَ والنعمةُ عليه أظهر ؛ ولِمَ كان ذلك سعيداً وبأى شىء صار سعيداً ، وهذا شقياً وبأى شىء عاد شقيا ؟ الى نسق طويل من هذه المسائل التى لاتجيب عليها السماءُ ولا تكشفُ عنها الأرضُ أبداً .

ولكن ياهذا لِمَ تُخْفى أنت وحْشيَّتَكَ المهذَّبة وتُكاتِمُ الغيظَ والسخطَ والحسدَ ثم تحتال على أن تُخرج هذه المعانىَ الخشنة فى ألفاظ ليّنة وأن تعترضَ على القدَر فى أسلوب من التسليم والرضا وتطرحَ بينك وبين الله لفظةً ان لم يكن معناها مخاصمة القضاء فمحاسبته ، والا فمعْتَبة عليه .

وهل تعلم أنت ماهى شُعوبُ الحوادث وفنونُها ، وما الذى سيفعله المجدودُ (١) حين تُقبلُ عليه الدنيا والمحرومُ حين تُدبِرُ عنه النعمة ، وماذا يكون مما يترتّب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ وهل تدرى لِمَ أساءَ بعضُ الأغنياء حملَ الغنى دون البعض ولِمَ أحسن بعضُ الفقراء حملَ الفاقة دون البعض ، ولِمَ ابتُليت طائفةٌ بالتمنّى وابتُليت غيرُها بالضجر مما تتمناه الأولى وحُبِّب الى تلك ما بُغِّضَ الى هذه ؛ ولِمَ انتُزعت نعمةٌ بعد أن استمكن حَبْلُها، وأقبلت الأخرى بعد أن استيأسَ أهلُها ؟ أليس من كل هذا يتهيأُ البقاءُ للحياة الانسانية فى نظامٍ لايخفُّ على نو

(١) ذو الحظ

الانسان، فيهملـه فيفسدُ به ولايجورُ عليه فيستأصله فيذهبُ به؟

وهل الناسُ الاّ خطوطٌ في لَوْحِ الغيب، يستقيم مايستقيم منها ويَعوجُّ مايعوجُّ لأَن كل ذلك ممـا لابد منه في جملة الوضع وإحكامه؛ فاذا أردتَ أن تسأل لِمَ استقامَ هذا ولِمَ اعوجَّ ذاك، ثم ماقَصُر وطال، ثم مادقَّ وجلَّ، ثم ماعلا وسفَل، ثم ماانفرد واختلَط، فسـل لِمَ خُلِقت الدنيا ولِمَ خُلِقَ الناس، وسـل الخالق ولا تسل «الشيخ علي» ....

كل ذلك يابنيَّ حكمة وكل ذلك انتخاب، وقد ظفر العلماءُ في حركات النظام بما سموه «الانتخابَ الطبيعى» وعرفوا أَن ذلك سِرٌّ من أسرار التقدم والارتقاء؛ فاعلم أن مانحن فيه من معنى «الحظ» انما هو «انتخـاب الهي» وذلك سرٌّ من أسرار الحيـاة والبقاء؛ وما من حركة لي ولك ولكل انسان إلا هي تمسُّ قطعةً من تاريخ الحياة وطائفـةً من الأَحياء؛ فليس من حيٍّ هو لنفسـه وحدها وليس من حقيقةٍ هي لنفسٍ واحدة؛ وان عرَفَ الانسانُ بعضَ الحقيقة من نفسه فأَكثرُ الحقيقة لايعرفه إلا مِن سـواه؛ ومن أجل ذلك يقضِى نظامُ الحياة بما نسميه «الحظ» وان كنا لانفهمه كمايقضِى به نظامُ هذه الحياة؛ وانما قوةُ الحركة وضعفُها على حسَب ما يرادُ بها في الدفع والجذب. فكن واثقاً بالله مؤمناً بالقدَر خيرِه وشرِّه فالثقةُ وحدها حظ عظيم، والله تعالى يُصيبُ

الناسَ بنيّاتهم إذ هي حقائقُهم الصريحةُ وإذ هو وحده المطّلعُ عليها فهو يوفّق السُّعداءَ للنيّة الحسنة ثم يُسعدهم بهذه النية على الوجه الذي يعلم أنه من سعادتهم، فان لم يكن لهم الحظُّ الذي يريدونه فلهم الحظ الذي يُلائمهم؛ وربما كان زِمامُ العافية بيد البلاء وكانت النعمةُ في عاقبة المصيبة وكان الانسان عابِساً من طلعة القدَرِ والقدَرُ يضحك له.

واذا لم يكن للأقدار نواميسُ أرضيةٌ تجرى عليها وتقع بحَسَبها فان أقربَ مايصحُّ أن يُعَدَّ من نواميسها فيما أرى هو نِيّات الناس.

وما النيّةُ إلا خلاصةُ الفكر والضمير وَنتاجُ مابينهما؛ فلا تَنْطوِ على مايسوءُك أن تَنِمَّ بهِ ألسنةُ الغيب وإنما الحوادثُ من هذه الألسنة؛ ولا تعقُدْ هوَى ضميرك على ما تحسبه أملاً من حيث لا يكون إلا حسداً للناس ولا يُعْقِبُ إلا نكَداً لنفسك؛ وما تظنه عزماً منك وهو طمعٌ في الله ومخادعةٌ للقدَر

وَحَسْبُكَ من المتاجَرة مع السَّماء بضاعةٌ صالحةٌ من الايمان الذي لا غِشَّ فيه؛ ومن المتاجرة مع الأرض بضاعةٌ طيبةٌ من النيَّة التي لا دَنَسَ فيها، فإن ربحك من هذه البضاعة التي لا تَكسَدُ في أسواق السماء والأرض أن يُلْقِيَ الله عليك

محبةَ منه وتأييداً وسَكينةَ ؛ وإن رأى النـاس أنك خسرتَ شيئاً من الغنى أو الجاه أو متاع الدُّنيا فإنما تعلم أنتَ يقيناً أنك لم تخسر إلا الهمَّ والشقاءَ والتعبَ بالدُّنيا وأهلِها .

ويومئذ يكونُ لك من حسن الإيمـان ، وحُسنِ النيـّة ، وحسنِ الأخلاق ، ماتعرف منه كيف يكون « حسنُ الحظ »



الفصل التاسع

﴿الحرب﴾ (١)

رُقْعةٌ من الأرض كأَن فيها شيئاً من الطِّينة التي خُلِق منها الانسان ، فهي تُمْطَرُ من دِمائه ؛ وكأنما عرفته في سماء الله فلا يكادُ يَنْزلُ بها الجَيْشان ، حتى تُعيد أرواحَ أكثرهم الى سمائه ؛ ينجذب اليها الجندىُّ لأَن فيها تُرابَه بل لأَن فيه من تُرابِها ، وينطرحُ عليها لأَن اقترابَ مَنيَّته في اقترابها ؛ ولاتزالُ تصرعُهُ وكأَنهامن شوقها تَضمُّه ، وتُلقيه على صدرها ميِّتاً أو جريحاً كأَنها تُعْلِمُه بذلك أن الأَرضَ أمُّه . وهى مَزْرَعةُ الموت نَباتُها الرءوسُ فمنها قائمٌ وحَصيد ، وثمراتُها النفوسُ فمنها داني القِطافِ ومنها بَعيد ؛ وقدرواهابالدمِ الحيِّ فنَبتَ فيها العظمُ وأثمر فيها الحديد .

بل هي ساحةُ الحربِ تَرفعُ عليها القوةُ رايةً وتُنْزل راية، ويُحْشَر الى مَسْرَحها الناسُ ليُمثِّل لهم الموتُ كلَّ يوم

---

(١) هي الحرب العظمى التى ارتكس فيها العالم سنة ١٩١٤ للميلاد وبلغ ما أنفقته الدول عليها مائه الف مليار ذهباً وهلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة فكانت حصادا للأرض وأهلها عمل فيه الموت والفقر والخراب جميعا ؛ وقد كتب (المساكين) في سنة ١٩١٦ قبل الهدنة بسنتين

رواية ؛ وقد اضطربتْ فيها الآجالُ فكأنها أمواجٌ فى بحرِ القدَرِ زاخرة ، وتناثر فيها الرجالُ فكأنهم عِظامٌ فى بعض المقابر ناخِرَة ، وظهرتْ تلك الساحةُ وقد كَشَرَتْ عن أنيابٍ من السيوف وأسنانٍ من الأسِنَّة كأنها لأهل الدنيا فَمُ الآخرة .

أما الجنودُ فاذا رأيتَهم يلتحمون قلتَ زَلازِلُ الأرضِ قد خُلِقَتْ على ظهرها ، واذا شهدتهم يقتحمون خِلْتَ نفوسَ الكرام قد حَمَلَتْ على دهرها ؛ وقد أيقنوا أنهم إن لم يكونوا للموت كانوا للأَسْر ، ومن لم يُبْنَ منهم على « الفَتْح » بُنِيَ على « الكَسْر » ؛ وما منهم الا من يحملُ رأساً كأنه لا يَمْلِكه ، على عُنُقٍ لا يدري كيف يُمسِكُه ، فى بَدَنٍ لا يعرفُ أيأخذُه الموتُ أم يتركه ؛ فهو لا يبالى أظلَّته الشمس ، أم أظلَم عليه الرَّمْس ، ونَهَضَ للتاريخ مع الغَدِ أم ذَهبَ فى التاريخ مع الأمس .

واذا كان من صِفَةِ الميتِ أنه اسمٌ فى الحياة بغير جسم ، فمن صِفَةِ هذا الحيّ أنه جسمٌ يعيش بغير اسم ؛ وما الجنديُّ الا عَدَدٌ فى حسابِ الحرب ، فسيَّان قطعه « الطَّرح » أم أخذه « الضرب » ؛ وانما هو حيثُ يتهيَّأُ له انتظارُ الأقدار ؛ فليس الا الصبر ، ولو فى بَطْنِ القبر ؛ وحيث يُطبَخُ له النصرُ على « النار » ؛ فثَمَّ المكان ، ولو فى جَوْفِ البُركان ؛ وآيةُ عقله أن يكون كالآلة المتقَنةِ تعملُ بلا عقلٍ فلا يخشى الحَيْف ، ولا يسأل لماذا ولا

كَيف؛ ومن ذكائه أن يكونَ من صحّة الذهن.... بحيث لا يَفرِقُ في الموت بين الجمر والتمر، وأن يكون من « خِفّة الروح » بحيث تحملُه اللفظةُ الخفيفةُ على جَناح الأمر

وما الحربُ الا أن يتنازَعَ الناسُ على الحياة فيقيموا الموتَ قاضيا، ويطلبوا من الشريعة المدوَّنة في صفائح السيوفِ حُكمًا على الحياة ماضيا؛ فكِلا الفريقين يُقَدّمُ الحُجَج، من المُهَج؛ ويتكلم بألسنةِ الروح، من أفواه الجُروح؛ ويأتي من بلاغة الموت في خِصامه بكل « ضَرْب »، ويُجرى الحياةَ مَجرَى « الاستعارة » في « بيان » الحرب .

وقد تواقفَ الرجالُ في يومٍ أطولَ من يوم العَرْض، وتقاذفوا بالآجالِ حتى أوشكَت السماءُ لكثرة ما ينزلُ منها أن تقعَ على الأرض؛ فالخيلُ مُنقَضّةٌ كأنها صواعِقُ أرسلها الموتُ في أعِنّه، أو نوازِعُ من السّحاب بُروقُها الصوارِمُ والأسِنّه؛ مسرِعةٌ كأنها تُسابِقُ تلك المنايا التي جرَتْ بها الأقدار، جائلةٌ كأنما تحيَّرَتْ كيف تفرُّ من ساحةِ الموتِ بما حمَلت من الأعمار؛ وعلى ظهورها كلُّ فارسٍ كأنه بين الرماح أسَدٌ في غاب، وكأن الموتَ من سيفه سَمٌّ خُلِقَ في ناب، وكأن العنانَ في يده سَوْطٌ ولكنه سوطُ عذاب؛ لم يُعَدَّ في الفُرسان، حتى لم يَعُدْ من الإنسان؛ فاذا صاح بقِرْنِهِ عرَفت الوحوشُ ذلك الصوت، واذا

هاجته الحربُ لم يَفُتْه من ضروب النقمةِ فَوْت ، واذا نظر الى مَقْتَلِ عدوِّه حَسِبتَ عينيه نقطتين على تاء الموت.

وقد ثار الغُبارُ كأنه طريقٌ يُمَدُّ من الأرض الى السماء ، أو كأنما أراد أن يُمثِّلَ السحابَ وقد رأى المطرَ تمثّله الدماء ، أو كأنه أرضٌ ثامنةٌ بدأتْ تتخلَّقُ مُبَعْثَرَةً فى الفضاء ؛ أو كأنه لما رأى الحربَ تتوقَّدُ هبَّ مستجيرا بالهواء من الرَّمْضاء ، أو هو قد فرَّ من الأرض لما خشيَ أن تتفلَّقَ الأرضُ من حَوَافِرِ الخيلِ ، أو كأنه أنِفَ أن يأتيَ الناسُ أعمالَ اللُّصوص فى نور الشمسِ فضَرب عليهم قُبَّةً من الليل ، أو حَسِبَ عقولَ الجندِ فى أيديهم وأرجلهم .... (١) فطار ينظرُ اينَ تلك الهام ، أو هو لمَّا رأى المطرَ أحمرَ خَشِيَ على الأرض فثارَ الى السماء ينظر ماذا دهى الغَمام ،

وقد رمَتِ الأَرضَ تلك المدافعُ بزِلْزَالها ، وألقت على الجنود صُوَراً من شر أفعالِها ، فتركتهم كالغابة الملتفَّةِ إذا استَطار فيها الحريق ، وانحطَّ فريقٌ من أشجارها على فريق ، وكأنما انقضَّ عليهم قَنَابلها جدارٌ من الجحيم ، وكأن كلَّ مدْفعٍ فى صَيْحةِ الحرب إنما هو عُنُقُ شيطانٍ رَجيم .

تحْمِلُ فى بطونها أجِنَّةً من النار ترتعدُ الحصونُ لِهَوْل

---

(١) لأن أعمالهم كلها من البطش والفتك بالأيدى والأرجل

ميلادِها ،وتنحنى القِلاعُ مخافة منها على أولادها [١] ولها صوتٌ بعيدٌ كأنما تنادى به السماءَ لترْسل المَنَايا الطَّارِقة ، أولتستقبلَ الأَرواحَ المفارِقة ، أو كانه نَشيدٌ فَخْمٌ تفتخر به الأرض على الرَّعْدِ والصاعقة .

وهي « القارِعَةُ وما أَدراك ما القارعة » ، أما يومُها فيومَ يكونُ النَّاسُ كالفَراش المبثُوثِ وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش [٢]؛ وهو إن لم يكن يومَ النفخِ في الصُّور ، فانه يومُ تحصيلِ ما في الصدور [٣] ، وإن لم يكن يوم يُبَعْثَرُ من في القبور فانه يومُ يبعثَرُ الناسُ في القبور .

وهو المدفعُ حَسْبُهُ قوةً أَنه من الحديد ، وحَسْبُ ما يَحْويه قولُ الله عزَّ وجلَّ « فيه بأسٌ شَديد » ، وحسبُهُ رُعْباً أنه شكلٌ « عصرىٌّ » من عذاب الخَسْف القديم أعدَّه الله لهذا الانسانِ الجديد ...؛ فكم من حصْنٍ مَنيعٍ اعتزَّ به أهلُه اعتصاماً ، فتركهم فيه تراباً وعِظاما ، وكم من قلعةٍ شامخة اغترَّ الجندُ بقُواها ، فدَمْدَمَ عليهم بذَنْبِهم فسوَّاها [٤]

---

(١) هم الجند (٢) العهن الصوف وهذه الكلمات اقتباس من القرآن الكريم (٣) المراد هنا تحصيل الأرواح والكلمات أيضا اقتباس

(٤) دمدم عليهم طحنهم فأهلكهم والجملة اقتباس من قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)

وأما الرَّصاصُ فهو من سماءِ الموتِ حبٌّ غمامه، وله صفيرٌ كأنه ترنُّم الشيطان ببعض أنغامه، ولو أن عاصفةً كنستْ أرضَ الجحيم لما شوّت الوجوه بأشدَّ من ناره، ولا حملتْ من هناك الا ما تَحسبُ هذا الرصاصَ من حصاه وغُباره، يثُورُ كما تثورُ الأعاصير، ويندفع كما تندفع القادير، ويقعُ على الأجسام بالأجَلِ أو يطير، ويتناثر فكأنَّ فى السماء نجماً تفتّتَ فتساقط، أو كأن قطعةً ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه النُّقَط، أو هو فَوْجٌ(١) من ذُباب النار، هبط الى هذه الدار؛ فلا هَمَّ له الا الجُلودُ وإنْضاجُها بلَذْعه، والعيونُ وإخراجُها بنَزْعه، والعُروق واستخلاصُها، والدماءُ وامتِصاصُها، والأرواحُ بعد ذلك واقتناصُها.

وكأنه زَفَرَاتٌ غيرَ أنَّها لا تَخرجُ من الصدر بل تنزِلُ فيه، ولولا أنها تشويه ولا تشفيه، وهو أوقعُ فى الرءوس من الأوهام، وأنفذُ فى الأغراض من مكائِد الأفهام، وأحرُّ على الأكبادِ من كل ما يُضْرِمُ غَضَبَ الجبَّار المَغِيظ، وما هو الا العذابُ الرفيعُ إن كان المِدْفعُ هو العذابُ الغليظ....

* * *

وهناكَ من الرَّوع مالا يُحصيه الوصفُ ولا يحصّلهُ، وإن

(١) الطائفة أو الجماعة

عرفت آلةُ التصوير كيف تُجْمِلُه فليس يعرفُ القلمُ كيف يفصِّلُه ؛ ولَعمرى لو كان البحرُ الأَسودُ فى المحْبَرة ، لما بلغ فى وصف هذه المقْبرَة ؛ غيرَ أَنها الحربُ التى ابتدعَها العلم لهلاك الانسان ، والقوةُ التى رُزقها العقلُ فكانت بلاءًا على الأبدان.

قوةُ المعجزات التى أركبت هذه الذبابةَ الانسانيةَ على مَتْن الغَمام ، وطوت لها من السماء بين جَناحَى النور والظلام ؛ فاذا سمَت « الطيَّارةُ » خَفَضَ لها السحابُ جَناحَ الذُّل ، وأقبلت الملائكةُ تسأل ربَّها ماهذا الجزءُ من العالَم بل ماهذا الكُل ؛ وما هذه الجرادةُ التى رأسُها فى ظهرها[1] ، وسرُّها فى جَهرِها ، بل ماهذه الحياةُ الأَرضيةُ التى عرَجت فى السماء فخرجت من حدود دهرها ، وماهذا العقلُ الانسانىُّ الذى لا يُوَزَّع جاشُه[2] ، والذى يرفعُهُ الى السماء ارتعاشُه ، وهو مع ذلك يندفعُ على أهله بالوَيْلِ اندفاعَ السَّيل ، ويطلع نصفُه كالنور على الأرض[3] ليطلعَ نصفُه الآخر كالليل ؟

وهي الحربُ العامَّةُ كأَنها ثَوْرةُ الدهرِ وقد ضَجِرَ من هذا العلم وطُغيانِه ، وملَّ من سماجة إنسانه ، واشتاق الى عصر

---

(١) المراد برأسها الطيار الذى يركبها لانه يكون في ظهر الطيارة

(٢) كناية عن عدم الاضطراب والخوف (٣) كناية عن المخترعات والاعمال النافعة مما به قوام العمران ومنه قولهم « العلم نور »

حيوانه؛ فزفر زفرةً أيقظت الموتَ وكان نائما، وتركت هذا الانسانَ من الفزع لجنبه أو قاعداً أو قائما؛ واستنزلت من القضاءِ ما كان فى علم الله غَيْبا، واشتعلَ من هولها رأسُ الأرض ببياضِ السيوف شَيْبا؛ وجعلت من البيوت قبوراً لأهلها، وساوت فى معايشِ الناس بين صَعْبها وسَهْلها، وأظهرت لعقول العلماء أن أكثرَ علمها من فنون جهلها ....

فالأرضُ فى بلاء منتشرٍ لا يُعْرَفُ له حجْم، والشعوبُ فى ظلام من اليأس مُلتهبِ النجم، والدُّوَلُ فى عصر كليلِ الشياطين كلُّه رَجْم ..!

***

قال « الشيخ علي » تلك هي الحربُ القائمةُ اليومَ ولكن كما ترى خيالَ النارفى الماء؛ أما الحقيقةُ فكلُّ حرف منها جيش وكلُّ كلمةٍ أمَّةٌ ووراء ذلك معنًى رائعٌ هو استجماعُ الحياةِ الأرضية لمقابلة الموت. ولو أن لهذا الكون مرضاً يعتريه كما تعترى الناسَ أمراضُهم لقامتُ إن شِقَّ الأرض قد ضُرِبَ بالفالِج (١) فأصبحَ شقُّها الآخر لا يكاد يجرُّ ظلَّه حول الشمس لأن الحركةَ مقسومةٌ بينه وبين ذلك النصف الميت؛ فقد اشتبكت العلائقُ بين دُوَلِ الأرض جميعاً إذ لا تُعرف دولةٌ بين الناس

---

(١) هو المرض المعروف وهو استرخاء لاحد شقي البدن

ترعى شعباً من البهائم ، ولما بدأ الانسانُ يعرف نفسَه فى عصر العلم والمدنية عرف أخاه لأن أكثر حقيقته الانسانية فيه ، ومن ثَمَّ اتصل به اتصالَ اليدِ بأختها فى المعاونة على ما يُسِّرَتْ له كلتاهما؛ وجمَعَ العلم بين هذه الأمم لأنه لا ينتسبُ لواحدة منها وليس له فى الأرض خالٌ ولا عمٌّ ، ولا يُعرفُ شىء يقول للعلم « يابنىَّ » ويقول له العلم « يا أَبتِ » إلا التاريخَ الانسانى.

ولهذا سَفَرَ بين أمم الأرض كلُّ ما يخرج من رأس الانسان وما ينتجُ من يده ، واتصل ذلك واستَفاض حتى كأنما دارت الأرضُ دورةً جديدةً من داخلها فما إن يقع الاضطرابُ فى ناحية منها إلا دخلَها من الأثر فى سائر نواحيها من هَزَّةٍ تَرْجُفُ الى زلزلةٍ تَهدمُ الى الخَسْفِ الذى يجعل عالِيَها سافِلَها .

وانى باسطٌ لك شيئاً من الرأى فى كلمات قليلة ولكنها كالمعركة الأخيرة التى يحقُّ بها النصرُ فتكون هى تاريخَ الحياة ولا يكون ما سبقها الا تاريخاً للموت .

ألاَ فلتعلم أنه لو كان لحوادث الدهر منذ نشأ الدهرُ تاريخٌ صحيحٌ يصف لنا ما كان سبباً فى كلّ حادثة وما صارت كلُّ حادثة سبباً فيه لأَثبتَ يقيناً أَنْ ليس فى الأرض شىء من خيرٍ أو شر غيرَ ما يلزم لبناء هذا التاريخ الأَرضىِّ على الوجه الذى يتفق مع بناء الانسان ؛ والتاريخُ يطَّرِدُ حيناً ثم يَعطِفُ هَهنا وهَهنا فى

مجراه من الغيب فلا يتحوّل الا انشقّت له ناحيةٌ من العالَم.

فان خَرِبت دولةٌ أو سقطت أمةٌ فهي بصاحبة الدهرِ كلّه وقد كان لها قِسمُها منه ثم عاد الدهرُ يطلب قِسْمَتَهُ منها. ولن يُجَدَّدَ البناءُ القديمُ حتى يكونَ الهدمُ أولَ العمل فى تجديده.

فالحربُ شرٌّ لابدمنه لأَنها من عوامل التحليل والتركيب فى تاريخ الانسانية وهي بذلك سببٌ من أسباب استمراره، وكلُّ شر لابد منه فهو خيرٌ لاغنى عنه. وهل يبتغي الانسانُ أن تُضربَ العصورُ والدولُ كما تُضْرَبُ الدنانيرُ والدراهمُ من مَعدِنٍ معروفٍ على وجهٍ معروفٍ ولغاية معروفة؟ واذا لم يكن لنا مستقبلُ التاريخ وكنا فى عمر محدود فما نحن والرأىَ فى بناء هذا المستقبل؛ وكيف نتقدّم لله آلاتِ البناء ثم نُحْكِمُ الشرطَ أن لايكونَ فى هذه الآلات ما يَحْتَفِرُ أو يكْسرُ أو يَرُضّ

إنما يَجعلُ للحرب ذلك الوصفَ الذى يُطيرُ لها فى كل أرض صوتاً (١) بالذم والسوء أَنها لا تأتى الا بَغتةً ولا تُطبق إلا فى غَفَلاتِ العيش، وأنها تثورُ فى بياض الأَمْن حمراءَ من لون الموت، وتطلعُ في خِصْبِ النعمة سوداءَ من لون القَحْط، وتَنْبَشِقُ بالشرّ من حيث يكون الشرُّ مأموناً وتَصُبُّ المِحْنَةَ على من لا يُطيقُها ثم لاتُصيبُ الذين ظلموا خاصَّةً بل تَلِفُّ من

---

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بذمها

جانبي الحياة لفاً ؛ وهي في كل ذلك البلية المكشوفة التي تشتهرها الأحاديث (١) وتضرب فيها الألسنة وتسيل عليها الأوهام بما في طباع الناس من طبقات الأخلاق ضعفاً وشدة وخوفاً وطمعاً وبخلاً وكرما وحذرا واندفاعا بحيث تصبح وكأنما ترتمي على رأس كل انسان بالموت أو بالخوف من الموت أو بالخبر عن الموت أو بما يشبه الموت أو بما يكون الموت خيراً منه.

وإلا فكم يترضرض الناس (٢) كل يوم وكم يجدون من صنوف الدمار ، في الأعمار ، ومن ضروب الارزاء ، في الأرزاق ؛ مالو جمع بعضه الى بعض في نسق واحد لطم على هذه الحروب كلها ولأظهر لك أن في السلم ماهو شر من الحرب وان لم يصرخ به صوت الموت .

وما البغي والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها مما يشمل أكثر وسائل الحياة الانسانية إلا ضروب من القتل الخفي وربما عد الموت في بعضها راحة من الموت. . . ولكن ذهب بأنها في اصطلاح الناس أنها خطط موضوعة للمغالبة على الحياة وأنها لاتنالهم إلا فرداً فرداً ، وكأن باطل الأمم غير باطل الأفراد لأن الاجتماع قضى منذ أول العهد به أن تكون الأمة مظهر الشرع وأن يكون الفرد مظهر العقاب . ولكن

(١) تذمها وتشهر بها (٢) يتكسرون يقال ترضرض الحجر اذا تكسر

ليت شعرى لِمَ يكون الفرد كذلك من الأُمة ولا تكون الأُمة كذلك من أمةٍ غيرها ؟

فالحربُ هى عقابُ الجماعات وهي كذلك ضرورةٌ اجتماعية ولن يخلو منها تاريخُ الانسان إلا اذا رجع الناسُ أمةً واحدة فى تركيب مستحيلٍ لايتهيأ معه أبدَ الدهر ما يَقْسِمُ هذه الأمةَ على نفسها ، ولَعَمْرى إن ذلك التركيبَ الاجتماعيَّ الذى يخلو من الحروب ليُزهِّد الناسَ فى جنّة الله ولا يَدَعُ للأديان محلاًّ على الأرض ؛ ويحسبون أنه صلاحٌ فى الطبيعة وهو يفسدُ الطبيعةَ كلَّها فما هو إلا خيالٌ شعريٌّ فى تاريخ الحقيقة الانسانية ، وما أرى الحربَ الا البرهانَ الذى تُقيمه الطبيعةُ أحياناً على فساد ذلك الخيال كلما أوشك الضعفُ الانساني أن يتوهمه حقيقة .

واذا كان الله لم يخلق انساناً من النور فلا تُظْلِم نفسُه ، ولا من الثلج فلا يَحمِى دَمُه ، ولا من الصخر فلا يهِنُ كاهِلُه ، ولا من الحق فلا يَحيفُ على غيره ، ولا من الرضا فلا يطمعُ فى سواه ، ولا من الكتمان فلا تَخرجُ أَضْغَانُه ، ولا من السكون فلا يتحركُ فى نزاع ؛ فكيف لَعَمرى يخلقُ بعضُ الكتّابِ والفلاسفة هذا الانسانَ الجديدَ من عناصر السِّلْم وحدها ؟

ألاَ إن الانسانَ لا يولد ساكناً ولا نظيفاً وإنما يخرج من بطن أمه فى ثورة دمويّةٍ تتفجّر من حوله هَهنا وهَهنا ؛ وما

أرى الحربَ أكثرَ ما تكون الا ولادةً للتاريخ على هـذا الاسلوب فكأن من التاريخ مايولد على أسلوب الحيوان فى ثورة من الدم ومنه مايوجَدَ على أسلوب النبات فى تحوّلٍ ساكنٍ غيرِ منظور .

قال « الشيخ علي » : والحركاتُ المجهولةُ فى نظام الارض كثيرةٌ، بعضُها يجرى على الطبيعة وبعضُها يجرى على الانسان ؛ فكما يُدَكُّ الجبلُ وتُخْسَفُ الارضُ ويطغَى الماءُ وتثورُ العواصفُ وتنفجرُ البراكينُ ، يجرى على الانسان من مثل ذلك فى القَحْطِ والوباءِ والحروبِ وغيرِها ؛ لأن الانسان فى الحقيقة هو الطبيعةُ الرفيعة وما القوةُ المركَّبةُ فيه التى تَخرجُ من مجموع غرائزه الاتهيئةٌ حربيةفىنفسه ؛ (١)

فلولا أن هذا الانسانَ مهيَّأ للحروب بأدواتها الطبيعيةوأن هذه الأدواتِ هي كذلك من أسباب بقائه اللازمة له لما قامت فى الارض حربٌ قط . ولو أبعدنا فى مَطارِح الفكر ونظرنا من وراء النفوس الانسانية الى ميادين القتال لرأينا أن الحرب التى تقوم بين الاحياء انما هي حربٌ قائمة بين مذاهب الحياة .

وكما يجتمعُ العلماءُ وأهلُ السياسة لتنقيح الأنْظِمَةِ والقوانين تجتمع الأمم المتحاربة لتنقيح الطباع والعادات ، وما

---

(١) لو لبست الغرائز الانسانيةمادة لما لبست إلا الاسلحة ...

أعجبَ أن يكون القتلُ تنقيحاً فى قانون الحياة (١) .... فلا تنظرْ من الحروب الى هؤلاء المساكين والمتوجعين والمحزونين فذلك كله الى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء قلَّ أو كثُر ؛ ولا أَحمقَ ممن ينظر ساعةَ الهَدْمِ الى آثار الهَدْمِ ولا يعلمُ أن ذلك سببٌ لما بعده وأَنه اذا لم يهلك يومٌ فى سبيل الغدِ هلكَ المستقبل كله .

---

(١) من تمام هذا المعنى ماذكرناه فى كتابنا «تحت راية القرآن — المعركة بين القديم والجديد» في كلامنا عن فساد الحضارة الغربية ننقله توفية للفائدة:

الروح الانسانية متى اصبحت موتورة ساخطة متبرمة باسباب مختلفة كاسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية ، لم تكن روح الحياة ولكن روح القتل وما فى حكمه ومن ثم فلا بد فى هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة ولا بد لها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده .واذا تحاجزت الدول وتتاركت زمنا فانما يسمن بعضها بعضا فى مراعى السلم والعيش وكل امة عينها على شحم الاخرى ....

ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحا الهياً عنيفاً لهذه الحضارة الزائغة فوضع الله يده عليها فمحت اكثر حسناتها ورقائقها وطرفها البديعة ، وأميتت طباع الترف لتنبعث طباع القوة ، وقر في الرجل معنى الرجل وفى المرأة معنى المرأة وكانا قبل ذلك وإن الرجل نصف امرأة .... وإن المرأة ضعف نفسها .فكأن الحرب كانت مصفاة للحضارة تقو بها الخرائب والخنادق والقبور ،ومتى جمت الأوساخ بعد زمن فالمصفاة باقية ....

ولكن متى تكونُ الحربُ حقًّا ومتى تكون باطلاً ، فهذا مالا سبيلَ الى وجه الرأى فيه وربما كان الجوابُ عليه سؤالاً آخر ؛ وهو متى تَعرِضُ فى حياة الناس تلك المسائلُ التى لا يَصلُحون هم أنفسُهم لحلّها ؛ ومتى تكونُ الحركةُ العنيفةُ التى يتحولُ بها التاريخُ الانسانىّ كلما وَجبَ أن يتحرف ليتّبعَ مجراه من الغيب ؟

أليس ذلك هو السبب فى أن العقلَ أحيانا يكون أولَ من ينهزمُ فى الحرب كما تراه اليوم (١) فيصبحُ الفلاسفةُ والعلماء والمتفننون ولاهمّ لهم إلا ادارةُ حركةِ الموت هجوماً ودفاعاً، وترى الصلَوات والأدعيةَ والتسابيحَ تتصاعدُ الى الله وفيها رِيحُ الدم والنارِ والغازاتِ كأنها قنابلُ صُنِعَتْ من العواطف ؟

وقد يقول بعضُهم إن فى الحرب إسرافًا اجتماعيًّا بما تأخذُ من الموتى وماتتركُ من المرْضى؛ ولكن كم من الإسراف الطبيعيّ والأخلاقيّ فى بقاء الناس مَوْفُورين بعلومهم وفنونِهم وشَهَواتِهم ونِعَمِهم ومصائِبهم ونحوِها مما يؤدّي الى انطواء هذا المجتمع الانسانىّ فى الأدمغة والقلوب بما تبعثُ عليه تكاليفُ الحياة الاجتماعية الساميةِ التى تحاولُ أن تجعلَ الانسانَ حيوانًا على

---

(١) كانت الحرب العظمى حرب مخترعات فاتكة جهنمية لم يعرفها تاريخ الانسانية من قبل كأنما كانوا يجربون أن يخترعوا جهنم ...

شكلٍ مُخْتَرَع ..؟ فلا تُرَينّ يابنىّ هذه الوحشيةَ التى تعترى الناسَ فى حروبهم إلا سبباً فى رجوعهم بعد ذلك الى الانسانية الخالصة التى أفسدوها بحضارتهم وضربوا عليها الحدودَ من مصطلحاتِ التمدن ومن أصولِ المعاملة فأصبح الانسانُ منهم يَقضى العمرَ وهو يتعلم كيف يصير انسانا ..!

وأنا يابنىّ فى خاصَّةِ نفسى أكره الحربَ لأني أراها تُصوِّر بكل ألوان الهلاك والخرابِ فكرةَ العدَم المبهمَةِ على قطعةٍ من أديم الأرض ؛ وأمقتها لأنها تلوّثُ الحياةَ بدماء الرجال ثم لاتغسلها الا بدموع النساء والأطفال ؛ وأبغضها لأنها تَدفِنُ تاريخَها الصحيحَ للمستقبل ولاتتركُ للحاضر الا تاريخَها المُشوَّه في أعضاء الجرحى ؛ ولكن البغضَ يابنىّ لاينفي الحكمةَ مما تُبغضُه ، وماسرورُ نصفِ الناس الا بما يكره النصفُ الآخر.

وأكبرُ شخصٍ اجتماعيّ وهو الأمةُ كأصغر شخص اجتماعيّ وهو الطفلُ كلاهما يبكي ويتألم حين يُضربُ لتأديبه .

« قال « الشيخ علي » : وهذا آخر قول الشيخ علي . . . »

على الكوكب الهاوى

﴿ حسناء أفقرتها الحرب ، وكيف تتلقاها الحقيقة ؟ ﴾

طريدةُ بُؤْسٍ ملَّ من بؤسها الصبرُ
وطالتْ على الغَبْراءِ أيامُها الغُبْرُ

تنكَّرتِ الدنيا لها وَرَمَتْ بها
على الكوكب الهاوى حواه فضاً قَفْرُ

وكانت كما شاءَتْ وشاءَ جمالُها
كما اشتهتِ العَلْيا، كما وَصَفَ الشِّعْرُ

تلألأُ فى صَدْرِ المكارم دُرَّةً
يُحيطُ بها من عِقْدِ انسابها دُرُّ

وما بَرِحتْ تَرقى السِّنينَ وتعتلي
وكلُّ المعالى فى طفولتها حِجْرُ

فكانت كزَهْرٍ نضَّرَ الفجرُ حُسْنَه
ولما عَلَتْ كالنجم أطفأَها الفجرُ

* * *

رمى الدهرُ أهليها بحربٍ ولم يُردْ
بها الشرَّ لكنَّ الحروبَ هي الشرُّ

ومن يَحْطِمِ الكأسَ الرَّوِيةَ وحدَها
فقد ذَهَبَ اثنانِ الزجاجةُ والخمرُ

تَقاسمتِ الحسنَ الالهيَّ واثنى
يُقاسِمُها ، فالأَمرُ بينهما أَمرُ

فللشمسِ منها طلعةُ الحسن مُشْرقاً
وفيها من الشمس التَّوَقُّدُ والجمرُ

وللزهرِ منها نفْحةُ الحسنِ عاطراً
وفيها ذُبُولٌ مثلما ذَبلَ الزَّهرُ

وللظَّبْيِ منها مُقلتاها وجِيدُها
وفيها من الظبيِ التلَفُّتُ والذُّعْرُ

وما قيمةُ الحسناءِ يَقْبُحُ حظُّها
وتَذْوِى بروض الحبِّ أيامُها الخُضْرُ

من الحسنِ معنًى يَهْلكُ الحسنُ عنده
كما أهلكَ الأَزهارَ أن يُؤْخَذَ العِطْرُ

فما الحسنُ فخرٌ للحِسانِ وإنما
لخالِقِه فيما يُريد به سِرٌّ

***

ضعيفة أنفاسِ المُنَى بعدما غَدَتْ
رِقابُ أمانيها يُغلِّلُها الفقرُ

وبين خُطَى أيامِها كلُّ عثْرَةٍ
يُزَلزِلُ أقدامَ الحياةِ بها العُسْرُ
وزجَّت بها الأحزانُ فى بحرِ دمعِها
وليس لبحرِ الدمع فى أرضنا بَرُّ
يُقاذِفُها مَوْجُ الليالي وما لَها
سِوى زَوْرق واهٍ يُقالُ له العُمْرُ
وما التمستْ رأسَ الرَّجا عند صخْرةٍ
فكان سِوى رأس الرَّدى ذلك الصخرُ
اذا استَنْبَئُوها أرسلت من دموعها
لآلِىءَ حُزنٍ كلُّ لُؤْلؤةٍ فِكْرُ
وإن سألوها لَجْلَجَتْ فكأنما
عرَا اللفظَ لمَّا مرَّ من فَمِها سُكْرُ
مُشَرَّدَةٌ حَيْرَى تنازَعَ نفسَها
فريقانِ ذُلٌّ لم تَعوَّده والكِبْرُ

وما قتلَ الذلُّ امرأً من عبيده
وكم من فتًى يَرمِى بهامتهِ الفخرُ
ولو أنصفَ الانسانُ فى قَدْر نفسه
رأى قدْرَها أن لا يهونَ لها قَدْرُ

فلا تَتَساءَلْ كيف تَقْعُدُ وادِعاً
ولكن تساءَلْ كيف يسعَى بك الذِّكرُ
وكن رجُلاً كالضِّرْسِ يَرْسو مكانَه
ليَطحَن لا يَعنيه حُلوٌ ولا مُرٌّ
ولا تتوقَّع أيُّ جنبيك واقعٌ
اذا انطبَقتْ يوماً حوادثُها النُّكْرُ
ولكن تَلقَّ الدهرَ غيرَ مُفزَّعٍ
بصدرِكَ ولْتعْرُ الخُطوبُ كما تعرُو
فعِزُّ الحُسامِ الهُنْدُ وانّى صدْرُهُ
وذُلُّ العَصا أن العَصَا كلُّها ظَهْرُ
ولنْ يَهِنَ الحُرُّ انْتضَى عزَماتِه
وصالَ بها من صبرِه الخُلُقُ الحُرُّ
وإن تُغلَبِ الأبطالُ فى كل حَوْمة
فما عُرِفتْ حربٌ بها غُلِبَ الصبرُ

*
* *

وليلةِ همٍّ ما يَطيرُ غُرابُها
ولا انحطَّ من وَكْرِ الصَّباحِ له نَسْر
تُطِلُّ عليها الشُّهْبُ أعْيُنَ نِقمة
تَطايرَ فيما بينها النَّظَرُ الشَّزْرُ

وَيَزْفِرُ فيها الليلُ زَفْرَةَ مارِدٍ
تطيرُ لها من بَرقِه الشُّعَلُ الحُمْرُ
ويَخفُقُ فى أَحنائها كلُّ عاصِفٍ
خُفوقَ فؤادٍ باتَ يُسلِمُه الصَّدْرُ
ويَغضَبُ من آثامِها الموتُ غَضبةً
يُرَجُّ لها فى كل ناحيةٍ قَبْرُ
دُخانيَّةٌ هَوْجاءُ لو مُدَّ نَقْعُها
لقامَ على وادى الجحيمِ بها جِسْرُ
وأهونُ ما فى أرضِها وسمائِها
على الناسِ هاتيكَ الحزينةُ والبدرُ (١)
ثَوَتْ تحتها تلك الفتاةُ عليلةً
تَئِزُّ كما أَزَّتْ على نارِها القِدْرُ
وفى غرْفةٍ مما بَنَى اللهُ لا الورى
فليس على مَنْ حَلَّ ساحتَها أجْرُ
جوانِبُها شرقُ الظلامِ وغربُه
وفى سَقْفِها ضاءَتْ كواكبُه الزُّهرُ

---

(١) حتى البدر لا بهجة له الا فى ليالى الصفاء وفي غيرها يتصعلك فى سمائه . . . .

مُمَدَّدَةً كالسَّطْرِ فى صفحة المُنَى
وأَطيارُها تبدو كما «نُسْطِبَ»(١) السَّطرُ
فان يكُ أهلُ الأَرضِ أرقامَ حاسبٍ
فتلك وراءَ العالَمينَ هى الصِّفْرُ

***

رَمَتْ عينَها يُمنى ويُسرى فلم تجدْ
على الأَرضِ خَلْقاً فى جَنْبه غدْرُ
رأَتْ كلَّ مَخْزاةٍ من الشر تلتوى
ويهرَبُ ذُعْراً من جناياتها العُذْرُ
رأتْ أثَراً تدْمِى به الأرضُ والسما
وليس سوى الانسانِ فى جُرْحه ظُفرُ
رأَتْ ذلك الانسانَ يطغَى بعلمه
ويجهلُ أن العلمَ عن جهله زَجْرُ .
أليس يرَى الانسانُ فى القردِ شِبْهَه
فهل ذاكَ الا من تكبُّره سُخْرُ ؟
كما عاقَبَ اللهُ الأُسودَ لكِبْرِها
فجاءَ لنا فى صُورةِ الأَسدِ الهِرُّ

(١) هذه الكلمة مما استعمله المولدون وفصيحها الترميج وهو إفساد الاسطر بعد كتابتها وفي معناها الفاظ أخرى

رأت هذه الحربَ الضَّروسَ كأنها
مراحلُ يطويها من الزَّمنِ الحشْرُ
وما حمِدَ الشيطانُ للناس مثلَها
ولا كان للشيطانِ في مثلِها شُكرُ
وما الحربُ إلا رَجْفةُ الأرضِ رَجْفَةً
يموتُ بها عصرٌ ليحيا بها عصرُ
وما الحربُ إلا مطرْةٌ دَمَويَّةٌ
إذا دَنستْ رُوحُ الورى فهي الطُّهرُ
وما الحربُ إلا غضْبةُ اللهِ لا مَستْ
مخازيَ هذا الدهرِ فانفجر الدهرُ
فيا ربِّ جلَّتْ هذه الحربُ مِحْنةً
على الناس، لا الإيمانُ منها ولا الكفرُ
ففي كل نفسٍ غُصَّةٌ ما تُسيغُها
وفي كل قلبٍ كَسرَةٌ مالها جَبْرُ
وبين شِفاهِ الناسِ للناسِ لعنةٌ
إذا لم يُشِرْها الحقُّ ثارَ بها الخُسْرُ
وما لَوَتِ الأسيافُ في الأرضِ عُرْوَةً
من البُغْضِ الا والرءوسُ لها زِرٌّ

فلا تَخْدَعُوا الانسانَ عن نَزَعَاتِه
فما الناسُ إلا ما أساؤُا وما سَرُّوا
وكم قيلَ « إنسانيةٌ ومحبـــةٌ
وعلم وتَمدينٌ » وأشباهُها الكُثْرُ
فيا قدَراً يَجرِى دِماءً ويلتظِي
سعيراً أذاكَ الحبُ أنتَ أم الهَجْرُ؟
ويا هذه لاتَجْحَدى إنما الورَى
كما خُلِقُوا والمكرُ بعدُهو المكْرُ
وأين من الناس الكمالُ ولم نَزَلْ
نَرَى السُّودَسُوداً ليس يَغسلُهم بحرُ
ولا بدَّ من ضِدَّيْنِ فى كلّ حالةٍ
وبينهما إمَّا النَّجاةُ أو الأَسْرُ
بذلك يَجرِى الغيثُ إن طار أو هوَى
فإنَّ جَناحيه النافِعُ والضُّرُّ
فلا تطمعي أن تُغْفِلَ الأَرضُ أهلَها
ولا مَدَّ فوقَ الأَرضِ إلا له جَزْرُ
ولا تطمعي أن « يرفع » المالُ أنفساً
يُحَرِّكها من ذُلِّ مَطْمَعِها(الجر)

ولا تأمُلي الأيامَ خُضْراً على المدَى
ففي كلِ حينٍ يَسْقُطُ الورقُ النَّضْرُ
ولا تسألي الزِّلزالَ ترقيصَ طِفْلةٍ
وأصغرُ ما في كفِّه الجَبلُ الوَعْرُ

* * *

ألا إنما الدُّنيا سَلاليمُ يَرْتَقي
بها الناسُ تُغرِيهم أَواخرُها الغُرُّ
تَذَرَّوْا عُلاها للكمالِ وعندهمْ
من العِلمِ أسبابٌ يُقَصِّرُ لها السِّحْرُ
فما بَرِحوا يرْقَوْنَ كلَّ بَعيدةٍ
ولم يعلموا أينَ الكمالُ ولم يَدْرُوا
فلما علَوْا واستَحْمقُوا وتَتابعُوا
وغَرَّهمُ باللهِ ذلك فاغترُّوا
تَهاوَوْا على أعناقِهم وتحطَّمتْ
بهم دَرَجاتٌ كان من فوقها النَّسرُ
كذاكَ سَلاليمُ الحياةِ فكلُّنا
طَموحٌ لأعلاها وفي الوسَطِ الكَسْرُ

مصطفى صادق الرافعي

الفصل العاشر (١)

﴿ الجمال والحب ﴾

وكأنما أنظرُ الآن في قلب رجل لا في وجهه إذ تهلّل على السحاب وجهُ « الشيخ علي » شيخ المساكين

أراه كما كنتُ أعرفُه ضاحكاً غيرَ الضحك الذي يَلبَسُ وجوهَ الناس ، فلا يضحكُ لشيء إنسانيّ بل ما هو الا أن تراه قد تهلّل فرفع وجهَهُ الى السماء وأرسل من فمه مثلَ نورِ التسبيح في إشراق جميل ؛ حتى لقدكان يخيَّلُ اليَّ حينَاً أُبصره على تلك الهيئة أنه لايضحكُ ولكن قلبه يرتعشُ بعضَلات وجهه .

لو أراد الله بالناس خيرا لوضع في أبصارهم أشعةً تَنْبَثُّ في أطواءِ القلوبِ فتعرفُ ألوانَ العواطف وتُميِّزُها لوناً من لون ، ولكنه جعل الوجهَ غِطاءً على معاني القلب ثم سلّط الفكرَ على معاني الوجه ومَعارِفه يصوِّرُ فيها ما شاء مما له أصلٌ في الحِسّ وما لاأصل له حتى ليختبيءُ الإنسانُ عن الانسان

---

(١) هذا هو الفصل الذي أشرنا اليه في تعليق صفحة ٣٤ ننقله عن كتابنا « السحاب الاحمر » وقد وضع هناك « المساكين » الحب وهو رأي من آراء كثيرة استوفيناها في ذلك الكتاب وفي صنوه « الرسائل »

وهو مكشوفٌ لعينيه .... واذا كان الله سبحانه قد أوجد الخيرَ والشرَّ صريحين فقد أوجد الانسانُ ثالثاً لهما وهو تَلْبيسُ احدهما بالآخر ؛ وأراد الخالقُ ذلك ويسَّره للانسان فجعل فيه آلةً واحدةً للصدق وهي القلبُ وآلتين للكذب : وجهُهُ ولسانَه

*

* *

كان « الشيخ علي » يُشبه إنسانيةً قائمةً بغير إنسانها على حين ترى أكثرَ الناس كأنه إنسانٌ قائم بغير إنسانيته (١) وكانت الدنيا كأنما نَسيت أنه فيها فتركت له روحَه صافيةً منطلقةً تتطعَّمُ الحياةَ غيرَ مُستَقِرَّة في شيء كما يتطعَّم النسيمُ رائحتَه من ورق الزهر فهو يتسحَّبُ عليه ولا يستقرُّ فيه ولو أنه ورقُ الزهر .

وما زالت روحُ هذا الرجل مني منذُ عرفتُهُ كأنها نَضَّاحَة عطرٍ (٢) تَمُجُّ رَشاشَها على حياتي رَوْحاً وعَبيرا وندًى ، وكأن الرجلَ طفلٌ عزيزٌ من أطفال قلبي يملأُ ما حوله ابتساماً وطفولةً ورقَّةً ؛ ولو أن أحداً خُلق من عينَي الطفلِ الضاحكتين

---

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ الانسان ولا انسانية فيهم والشيخ علي لم يكن له من حظ الانسان الا الجرعة واللقمة وغمضة العين

(٢) رشاشه العطر وهي ترجمة وضعناها لكلمة Vaporisateur ويسميها العامة « بخيخة العطر » .

لـكان هو (الشيخ على) رحمه الله ؛ على أنه كان رجلاً من سُوسِه القوةُ معصوباً مُتَكَدِّساً[١] يملأُ جِلدَه كأنه جِذْلٌ من أجذالِ الشجر[٢]

* * *

وانقبضتْ نفسي انقباضةً شديدةً إذ تغير الرجلُ فى خيالى[٣] فنظر الىّ نظرةً ينقدحُ منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرتْ عيناك طائراً ضعيفاً أراغه نسرٌ فاستطْرَدَه فى نواحى الجوّ هكذا وهكذا[٤] ثم أهوى له بمخالبه ثم سدَّد اليه نظرةً غرزتْ هذه المخالبَ وانفجرتْ بآلام لحمه ودمه ، فاعلمْ ان تلك هى كنظرة (الشيخ) الىّ

ولقد تبعثرتْ لها شياطينُ نفسي فانطلقتْ تحاول كل شيطان منها مهرباً وكانت توسوسُ فى صدرى أنْ أستمد من روح (الشيخ) قولةً فى الحب ، هذا الحب الذى مهما اعتبرته لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها . ثم ما لبثَ أن

«١» المتكدس الممتلىء عضلا والمعصوب الشديد طى الجسم بعضه على بعض ومن سوسه أى من أصله وطبيعته أو كما يقول العامة «من عوده»

«٢» ما عظم من أصولها

«٣» أى هنا وهناك فرارا من الضعيف وطرادا من القوي

«٤» أي حين ظهر على السحاب الأحمر . وكنا نستوحى ذلك الكتاب من ارواح تتخيلها في شعاع احمر كما وصفناه فى أوله

استضحك وأطلق لي نفسي وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة فقلتُ ويحك يانفس ، إن عينَ (الشيخ) ترى من الجمال غيرَ ما نرى ، ثم تعلم علمَها ما نظرت فيه ، ثم تُقدّره على حساب ما تعلم منه؛ فما يُدريك لعلّ هذا الرجلَ الروحانيّ لايرى إلا ما وراء تلك البَشَرَة الجميلةِ التي تكسو وجوهَ النساء الجميلات كما نُبصر نحن من وجوه الموتى وقد تأكّلَ جلدُها وتناثرَ لحمُها وبرزتْ عظاماً كسائر العظم من كل حيوان ؛ فلا موضعُ قُبلةٍ ولا سحرُ نظرةٍ ولا إشراق بَسْمةٍ ، وماهو الا تركيبٌ من العظم صُنِعَ هذهالصنعةَ تيسيراً لما خُلق له . ولعله يانفسُ لو حَشَرَ الله لعينيك أجملَ الجميلاتِ في صعيدٍ واحدٍ وحَشَرَ معهن إناثَ البهائم صِنْفاً صنفاً ثم نزع عن تلك الوجوه كلّهاذلك الطّرازَ من الجلد وماوراءه من اللحم مُزْعةً بعد مُزعة [1] حتى لايبقى إلا الوضعُ في بناءِ العظام وهندستِها ؛ فما يُدْريك لعلّ أجملَ الجمالِ عندنا هنالايكونُ حينئذٍ إلا أقبَح القبح هناك ؟ .

أفمن جِلْدةٍ على وجه امرأة يجيء الشّعرُ والجنونُ معاً ويجتمعان في هذا الخيال الذي يسمّى الحبّ ويستنزلان معانيَ التقديسِ من أعلى السمواتِ الى عينٍ تَلْحظُ لحظةً وشَفَةٍ تبسمُ بَسمة ؟ [2]

---

(١) هي القطعة من اللحم (٢) لرسائل الاحزان والسحاب الاحمر

إنه القلم الالهيُّ المبدعُ الحكيمُ هو الذى صوَّرَ ولوَّنَ وافتنَّ ماشاء ؛ فان رزقتْ امرأةٌ جلدةً جميلةً مشرقةً كأنما تجرى فيها الشمسُ ، وألبستْ أخرى جلدة قبيحة سفعاء (١) تجولُ فيها رهبةُ الظلمة ؛ فكلتاهما صورةٌ من صنْع الله ، وكلتاهما تظهرُ لوناً من ألوان الحكمة ، وكلتاهما جاءت لمعنًى ، وكلتاهما بعدُ غشاءٌ زائلٌ على وضع ثابتٍ لايختلفُ فى هذه ولا فى تلك ؛ وَضْع الحقيقةِ الجسمية التى تحملُ الحياةَ بأدواتها الكثيرة . والحياةُ لاتعرف البشرةَ الاغطاءً على ماوراءها اسوَدَّ أو ابيضّ ، وكان من لون المرمرِ أو من هيئة الطين

ولو أن كلَّ وجه فى نساء الدنيا خُلِقَ دَميماً نافراً على أبشع ما نتصورُه من القبح لكان كلُّ نساء الدنيا جميلاتٍ إذ يألفُ الطبعُ الانسانيُّ تلك الصورةَ الواحدة ويتقررُ بها الذوقُ فى الجمال وتستمرُّ بها العادةُ فلا يَستبينُ وجهٌ من وجهٍ آخرَ فى صفة ولا

فى فلسفة الجمال والحب ، كتاب ثالث متمم لهما واسمه « أوراق الورد — رسائلها ورسائله » وسنستوفى به مابقي مما لم نثبته فى الكتابين وسنصدره ان شاء الله بعد هذه الطبعة « المساكين » بقليل . وفى هذا الكتاب رسالة مفردة « لوهم الجمال » وأنه أسلوب من أساليب الطبيعة لخداع صورة بشريه بصورة بشرية مثلها (١) السفع سواد مشرب بحمرة والمراد بههنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

يخالفُ مذهبٌ مذهباً فى حالة

ولكنّ هذا الانسانَ كُتب عليه الشقاء ؛ خُلق وخُلق معه ما يُطغيه وما يَستَفِزُّه وما يُخرجُه عن طَوْقه ؛ كما خُلق له ما يزهِّده وما يطمئنُّ به وما يَحصره فى انسانيته . فالجميلاتُ والقبيحاتُ كلُّهن سواءٌ فى أنهن نساءُ هذه الانسانية، لا تُقصِّرُ فى ذلك واحدةٌ عن واحدة وإنما يتفَاوتْن فى أسباب الشقاء الانسانيّ الذى يَبتلى الرجلَ بالمرأة ويمتحنُ المرأةَ بالرجل

ولو سما عقلُ الرجل الى الغاية العليا من كماله لرأى المرأةَ الجميلةَ الفاتنةَ فى نصف جمال بالمرأة القبيحة ، ولبانت الواحدةُ عنده من الأخرى بأن الدميمة مُهيَّأةٌ فى نفسها لمعالي الأخلاق والجميلةَ مهيأةٌ لسَفْسافِها (١) ؛ ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونَزَغاتها شرّاً مما تقدّم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قصَّر بها من حسن صورتها .

بَيْدَ أنّ من شقوة الطبع الانسانيّ أنه سَخِط القبحَ فأحاله فسادا وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر ، اذ كان فى نفرته وحبه لا يعتبر المنافعَ والحقائقَ ولكن الأهواءَ والشهوات ؛ والمنفعةُ والحقيقةُ كلتاهما لا تكونُ الا فى قيودها ، أما الأهواءُ والشهواتُ

(١) السفساف الدنىء وأصله ما يتطاير من الغبار اذا أثير ومن الدقيق اذا نخل لانه أهونهما ولا فائدة منه

فهي دائماً لا تقع إلا متخطية حدود العقل إما الى النقص وإما الى الزيادة ولا تغري بشيء إلا أوقعت به السوء إذ لا يستوي في القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو مقيد بالحقيقة

*
* *

كان هذا وحي «الشيخ علي» في نفسي غير أني رددته عليه وأزلني شيطان الحب مرة أخرى فقلت : أفترى الشوهاء على ما بها مما ركع للدهر وسجد (١) ، ثم تلك المرأة التي سمج تركيبها فتحامتها العيون ، ثم الأخرى التي قمعت في بيتها تختبيء فيه من القبح (٢) فصارت سراً في صدر الحيطان ، ثم تلك التي تلوح في النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولة التي أدبر جسمها (٣) وتقبضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشي وتتكلم . أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة في ألوان الثياب كأنما تلبس بدنها الجميل بدناً معنوياً يدل على معانيه، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتان عاطلة من كل حلية ومع ذلك ترف على حسنها روح الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد اذا كان فقيراً ساقطا ليس وراء مابه من الذل (٢) هي القمعة «بوزن ملكة» وجمعها قمعات «كملكات» من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة (٣) كاد يفنيها الهزال وتسمي المدصوصة

البَريقِ والشعاع أو المطويَّة المشوقة المُسْتَرْسِلَةِ كأنها في قَوامها ووجهِها غصنُ الجمالَ وزهرتُه، أو الحسناءِ اللَّعُوبِ المزَّاحةِ كأنما اجتمعت طباعُها من نور القمر أَطلَّ في ليلةٍ من ليالي الربيع يُداعِبُ أوراقَ الورد النائمة، أو . . . أو تلكَ (١) (ياشيخ علي) . . . ؟

(قال الشيخ علي) فياويلَكَ، إني والله بكَ من رجلٍ لخبير (٢) أفمن أَجلِ واحدة ، . ؟ أَما إنه لعل الذي جعلها حقاً عندكَ هو الذي يجعلها باطلاً عندسواك ولعله ما حسَّنَها في عينك إلا أن طبعاً من الجِدِّ فيك استملح طبعاً من الهزل فيها كما ترى معنىً مَكْدُوداً في إنسان يستروحُ الى نقيضه في إنسانٍ آخر .

ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهموم أن يتصوَّرَ في همه من يعرفُهُ طروباً فَرِحاً وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشْرَة الآخر لو تعاشرا واختلطا . وهذه القلوبُ لاتُؤْتَى من مَأْتىً هو أَدقُّ وأخفى من توهُّم مافيه اللذةُ فان النفسَ تَرجع عند ذلك بكل حقائقها الى نوعٍ واحد من الوهم ينصرفُ بها الى تمثُّلِ هذه اللذةِ التي استشرفَتْ لها وطمعتْ فيها ؛ فاذا طعمُها

«١» اشارة الى فتاة « رسائل الاحزان » فانظر وصفها هناك

«٢» أي خبير بك وبما تبطن وتخفى

فى الدم يهيجُ لها سُعَارَ (١) الجوع العصبى . وماهى السرقة مثلاً إلا أن يضعَ اللص عينَه على المال أو المتاع ويتذوَّقَ طعمَ اليُسْر والفائدة فتُجنَّ أعصابه جنونَ الحاجة فلا يَرْعَوِى الى شىء من الرأى يَزْجُرُه أو يمنعه أو يَكُفُّه، ويكونُ فى الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق . وكذلك يكونُ الفاسقُ متى نظر الى المرأة واشتهاها ونَبَّه معانيَها فى معانيه ، وقُل مثلَ هذا فى كل من طار قلبُه أو طار صوابُه

أُلْهُ عن وَهْمِك يابُنَىَّ وضَع الأمرَ على قاعدته وسَدِّدْ نظرَك الى حقيقته ودعنى من حَبْل الباطل الذى تجرُّ فيه شيطانَ هواك أو يجرك هو فيه . وما نتكلم عن اثنين من الخليقة أنتَ وهى ، ولو أن الامرَ قد انحصر فيكما وفَنيتَ بالحب فيها لكانت هى الكونَ كلَّه ولو فنيتْ هى فيك لكنتَ أنت ذلك الكون . وهذا حرسك الله موضعُ النقص فى النفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من العالَم الى نفسها الأخرى. وهو نقص أشبهُ بجنون المجانين بل هو متمِّم له ، فانما ذَهابُ العقل فى المجنون المُخْتَبَل هو نصفُ الجنون الانسانى أما النصفُ الآخر فهو تجرد العقل فى العاشق المتَدَلِّه .

---

(١) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون وحالة الاعصاب متى اهتاجت لأمر لا تكون الا هكذا وبخاصة إن كان هذا الامر من الحب

نصف الجنون في العاشق الذى يتجرد من الناس إلا مَن أَحَبَّ ، ونصفه في المَعْتوه الذى يتجردُ من الزمن الا الحاضر . إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبلٌ اذ لايأملُ هذا ولايَذكُرذاك ، وكلُّ سعادة نفسهِ فيهذا النسيان الذى طمَسَ عليها وتركها كأنَّما تعيشُ في غير عمرها ، بل في كل أعمار الانسانية ، بل بغير عُمر ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخر ممن مضى وممن يأتى مادام الحبُّ قائماً ، فالحبيبُ هو الحبيبُ وكلُّ الناس بعده أَدَوَات . وشخصٌ واحدٌ هو الألفُ واللامُ والحاء والباء ، والناسُ جميعاً نقطةٌ صغيرة مُلقاة تَحت الباء فقط . . . . .

قال «الشيخ علي» ثم يبْرَأُ المجنون ويَثُوبُ اليه عقلُه فيعرفُ أنه كان مجنوناً ، ويبْغضُ المحبُّ أو يسلو ويبرأ من وهمه في تلك المرأة فلا يرى الا أَنه كان بها مجنونا . أفلايكفى هذا ويحك في الدّلالة على أن الحب والجنونَ من أُمٍّ واحدةٍ وان اختلف أَبواهما . . . . وأَن رأْيَ العاشقِ في كل النساء كرأْى المجنون في كل الناس ، لايجوز أن نأخذ بواحد منهما الا اذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل اذ كلاهما حاصلٌ من حالة متى هي تغيرتْ فانقلبتْ اعترَفَ صاحبُها عليها بالجنون وان كانت احدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غيرَ الأخرى؟ وَيْلُمِّهِ وَصْفاً

من العاشق لو كان مع صاحبه رأى (١) ، وويلمّه رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل

« قال الشيخ علي » . سئل الحلاّج (٢) وهو مصلوب يُعَانى

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الامر ، تشعر الذم ولا يريدونه وأصلها ويل أمه ولكنهم يسقطون الهمزة ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين اذا أمن الخطأ فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير اختلف العلماء فيه اختلافا كبيرا ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما اقرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة نفسها هي موضع المعرفة وموضع الجهل معا : ومن أبدع ماقرأناه فى ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوما : مالك لاتحدثنا بشيء من الحقائق . فسألهم كم اصحابى اليوم : قالوا ستمائة فقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم فقال اختاروا من هؤلاء عشرين فاختاروهم فقال استخلصوا من العشرين أربعة فكان الاربعة أئمة الجماعة ابن القسطلانى وابا الطاهر وابن الصابونى وأبا عبدالله القرطبى. قالوا فلما انتهى الامر على ذلك قال الشيخ رحمه الله: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على روس الاشهاد لكان أول من يفتى بقتلي هؤلاء الاربعة .قلنا فتأمل غور هذا البحر. فما أبعده غورا ، وتوفي القرشى سنة ٥٦٤

غُصَّةَ الموت : ما التصوف ؟ فقال لسائله أَهونُهُ ما ترى .. فهذا رجلٌ يموتُ في سبيلِ حقيقة تقتلُهُ بغموضها السماويِّ العجيب؛ وعلى أنها قد دقّت المساميرَ في أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلَّها ، وأنبتتْ في كَبِده من وخَزَاتِ الجوعِ شَجَرةَ من الشوك ، وأطلقت في عروقه من لَذَعَاتِ العطش لهيباً مَن النار ، وتركته على عُوده ممدوداً تَتَساَقطُ نفسُهُ كما يَنْتَشِرُ الثوبُ الذي بَلِيَ وانسحقَ فهو يتمزَّقُ من كل نواحيه — على هذا البلاء كلّه لم تتغير الحقيقةُ في رأي الرجل ولا فسد موضعها في نفسه ؛ ولا رأى ما يكرهه الناسُ من الألم مكروهاً في ذاته فيميلَ عنه ولا مايحبونه من اللذة محبوباً فيميلَ اليه ، ولا تَسَحَّبَ قلبُه حركةً واحدةً في السخط على الحكمة الالهية فانتقَضَها برأي أو اغْتَمَزَ فيها بكلمة ؛ بل نظر نظرةَ الحكيم من وراء الحدّ الانسانيّ المنتهي فيه ؛ الى ما يبدأ عنده الحدُّ الإلهيُّ الذى لا ينتهى ، ورجع آخرُهُ الى أوله فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نَزَلَ به : اللهمَّ إنك بدأتني طفلا غرًّا جعله فقدانُ العقل لا يملك مع أحدٍ إلا صياحَه نخذني اليك طفلاً عاقلاً جعله العقلُ لا يملك مع أحد ولا صُياحَه

واذكر الطفلَ يابنيّ فرُبَّ مُعْضلةٍ من أمور هذه الدنيا يَحَار الناسُ في آخرها وهي محلولة من أولها ، وماهؤلاء الأطفالُ

إلا الأَساتذةُ الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلُح ويأخذون عنا فيَفْسدُون. أفرأيتَ ولدَ الشوهاء تعرفُ عيناهُ فى كل ماطلعت عليه الشمس أُجملَ من وجه أمه أو يرى طائلاً فى وجه سواها أو يحِنّ الى غير طلعتها أو يسكُن الى صدرٍ غيرِ صدرها حتى كأن الله لم يخلق وجهَ حبيبٍ لقُبُلات محبه الا وجهَها هى لقبلاته ؟

إنه فى ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحيةُ صفاته هو فإن القلب اذا لم يكن بهيميًّا منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى الاخيراً ، ولَبِست المرْئىّ صفةُ الرائى فلا ينظر إلا اجمالا، واتصل الشعورُ الطيِّبُ الرقيقُ الجميلُ بين نظرِ النفس وبين ذاتِ النفس كما يصل الشعاعُ الذى يلقَى على حائط من المصباح — بين هذا الحائط وبين المصباح فيُغَشِّيه النورَ وان كان الحائط نفسه من الطين . فاذا كان القلبُ بهيميًّا زائغاً عن الانسانية الى حيوانيته، استفاضت ظلمتُه وشهواته على ما حوله فلن يشهدَ من صفات الجمال شيئاً بل يرى فى كل شىء من صفات نفسه هو ، حتى ليكون الوجودُ كلّه فى عين بعض الناس كما يكونُ الطعامُ كلّه فى فم بعض المرضى . ومثل هذا يعشق أجملَ النساء فلا يرى فيها جمالاً ألْبَتَّة وإن هو خدع نفسَه فى ذلك واختدعَ الناسَ ، وانما يرى فيها شهواتٍ ؛ شهواتٍ جميلةً ليس غير

أما القلبُ البهيمىُّ غير المنعكس وهو ذاك الذى تحمله البهائم — فلا يحتفل فيه عقلٌ ولا يحتشد فيه خيالٌ وماهو الا أن ينصبّ الحيوانُ به على محض المنفعة لأنه عاملٌ فى الطبيعة يُعَدُّ من عمّالها لامن شعرائها ... فليس عنده جمالٌ يقع فى ظاهر الروح وآخرُ يقع فى باطنها وثالثٌ متوهَّمٌ لايقع ولايمتنع أن يقع (١) ؛ وليس يعرف من معنى القبح الا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرضُ فما تستقلُّ إعياءً وضعفا . وبذلك سلمتْ إناثُ البهائم من شر كثير يملأُ لغةَ الحياة النسائية بمعانيه وبجمعه كلمتان : الجمالُ والقبح

والناحيةُ الأخرى التى ينظر منها الطفلُ لأمه الدّميمةِ الشوهاء ناحيةُ الصفات الالهية ، فان الحب الصحيحَ الذى يمكن أن يُسمى حبًّا لايكون فيما ترى من لونٍ وشكلٍ وتركيبٍ وتناسقٍ وغيرِها مما يظهر البشريةَ على أتمّها وأحسنها فى الشخص المحبوبِ كما يظن الناس خطأً ؛ بل هو فى عكس ذلك أى فيما يُخفى البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعاً ويُظهر فى أمكنتها خصائصَ الروح المحبوبة وحدَها . فمن ثَمّ يبدو لك شخصُ المحبوب على أىّ أشكاله

«١» رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهى : ان الجمال اذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة واذا وقع فى باطنها كان فصاحة . فزدنا عليها ماهو فوقهما مما لا يعرف الا بالتخيل ولا حقيقة له فى الواقع

وهيآته كأنه تمثالٌ سماوىٌّ وُضِعَ لروحك خاصَّةً فهو مجبول من مادة واحدة هى مادةُ الفتنة ، ولو كان فى أعين الناس كافَّةً تمثالَ الأرضِ السُّفلى يُصوِّر كلَّ ما تشتّتَ فيها من القبح . . . .

فاذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهوراً يستفيضُ على وجهها وجسمِها ويجعلُ كلَّ شيء فيها ذا معنىً منه وكلَّ معنىً منه ذا معنىً فيك ، فما أنتَ من حبها فى شيء ولو ذَهَبَتْ من جمالها بعقول الناس ولا هى عندك من الجمال فى شيء ولو كانت فى النساء كلَيلةِ البدر فى الليالى . ومن أجل ذلك لايخلو الحبُّ من بعض معانى الوحي ولاتخلو الحبيبةُ من بعض المادة الملائكية (١) فى النفس التي تعشقها ؛ وهل مَلَكُ الوحيِ الا قوةُ المزج السماوىِّ فى نفوس الأنبياء ، وهل روحُ الحبيبة إلا على قدرٍ من مثل هذه القوة فى نفس محبها ؟ ولعل هـذا يفسر لك سرًّا من أسرار الاحتراق فى بعض الأرواح العاشقة التى تيّمها الحبُّ فان تلك القوةَ المزجيَّةَ متى أفرطتْ على نفس رقيقةٍ حسّاسةٍ أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكلَ النار للهشيم وتركتها تحترقُ أسرعَ ما تحترق لتنطفىء أسرعَ ماتنطفىء

« قال الشيخ علي » تلك هي الحقيقةُ يابنىَّ فلن يأبىَ لكائن

---

(١) نسبنا الى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة الى الملك « بكسر اللام » فانها ملكية « بفتح اللام »

مَن كان أن يقسمَ النساءَ الى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى فى ذلك معنى القسمة الى شهوات جميلةٍ وشهواتٍ قبيحة ؛ ومتى انتهينا الى هذا فقد خرجنا الى المخاطبة بلغة لا هي من لغة البهائم ولا هي من لغة الانسانية .

أفرأيتَ قطُّ ألفاظَ الجمال والقبح تَشيع فى أمة من الأمم وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتدّ (١) بها وتنقبض إلا ان تكون أمةً ضعيفةَ القوة قد اختلت أجسامُها ، أو ضعيفةَ الدين قد اختلت أرواحها (٢)

انكشف القمرُ ذاتَ ليلة لرجلٍ اسمُهُ « من عباد الله المقرَّبين (٣) » فاذا البدرُ أسودُ كالحبر واذاهو مكتوبٌ فى وسطه بالنور « أنا وحدى » ؛ فالقمرُ نفسُهُ لم يمنعه كلُّ ضياء الشمس عليه أن يَسْوَدَّ فى عين الرجل الذى ينظر لروحه ،

---

(١) يقال علت العين عن كذا اى نبت منه نفورا فلم تلتصق به فاستعملنا منها نزلت كما ترى (٢) شرحنا هذا الرأي في بعض فصول السحاب الاحمر

(٣) هذا تهكم من «الشيخ على» يريد به طاشة فتياننا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئا قديما فى لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم . فليهنئهم البلاء الجديد الذى حل من أنفسهم محل الدين فجعل الرجل بلاءً على المرأة إن تزوج بها أو اهملها والمرأة بلاءً على الرجل ان كانت له او لنفسها ....

فما الذى يمنع من ينظر لروحه وخصائصها ان تصير المرأةُ القبيحة فى عينه كالقمر الازهر ؟

* * *

فى البدر ظهرت كلمةُ الألوهيةِ « أنا وحدى » .

وفى وجه الحسناءِ تقرأُ كلمةَ الألوهيةِ « أنا وحدى » .

فهل يمكن أن تقعَ الدميمةُ من الحسناء أقبحَ مايقعُ ظلامُ القمر من نوره فلا تكون فى وجهها هي أيضاً كلمةُ الألوهية « أنا وحدى » ؟

لم يبق فى البدر مع الحكمة العُليا شيء يُسمَّى الجمال.

ولا المرأةُ الحسناءُ يكونُ فيها شيء أجملُ من القمر ؛ فهى مثلُـهُ ليس فيها مع تلك الحكمة شيءٌ اسمه الجمال

أفيمكنُ أن يكونَ مع الحكمةِ نفسِها فى وجه القبيحة شيءٌ اسمُهُ القبح ؟

* * *

القمرُ طالعٌ مُشْرِقٌ كما كان

والجميلةُ الحسناءُ لا تزالُ فاتنة .

والدَّميمةُ ظاهرةٌ كما هى.

لم يَنْقُصِ الكونَ من ثلاثتها شىء .

ولكن أَين عينُ الرجلِ الكامِل ؟

الفصل الاخير

﴿ الدينُ ولادةٌ ثانية[1] ﴾

« قال صاحب المساكين » :—

عرفتُ فيمن عرفتُ من أصناف الناس أربعةَ تجرى أُمورُهم في نفسى على غير مَجَاريها فى أنفسهم ؛ وأرى من طبيعتهم موضعَ الغفلة والحمق فيما يرونهُ أو يحسبونهُ موضعَ السَّداد والحكمة

« فالأول » رجلٌ مُلْحِد أديب مَعْنيٌّ بجمع الكتب يتعلّق بكل نفيسٍ منها ، وهو يزعمُ أنهُ تأمّل الأديانَ فلم يجد طائلاً فى شئ وأن له فى كل دين ظِنَّةً على ريبة وتقدّ على مسئلة وثانيةً على أوّلة [2] ، وأنّهُ تبدّلَ الدينَ بالخُلُق فما خسر شيئاً وربح الحقيقة ، ثم يَحْذو بعدُ على هذا الحَذْوِ يفعل الملحدون فى صفة أنفسهم وهم دائماً لا يأخذون من الكلام ا بملء اليدين إذ من العجيب أن لا تقع لهم الكلمةُ الصحيحةُ المفرد؛

هذا الذى خرج من الأديان ومن نَهيها وأمرها الى الأخلا وعُهْدَتِها وأدبِها ؛ قال لى ذات يوم وقد خُضْنا فى أمر الكتب إنى لأمقُتُ السرقةَ والغَصْبَ والخديعةَ ولا أبيحُ منها ش

« ١ » هذا الفصل من زيادات هذه الطبعة الثانية « ٢ » كناية التعدد وانه لا يكتفى بواحدة (٣) بمعنى التغيير لا الاستبدال .

ولا أُمرّها لأحد ، غير أني إذا وجدتُ كتاباً نفيساً وعجزتُ عنهُ أو ضاقتْ به ذاتُ يدي ثم أمكنتني فرصةٌ من الغفلات لم أتورَّع أن أسرقهُ . . . . ولو غصبتُ ولو خدعتُ

قال هذا فلم أفهم من كلمته شيئاً الا أن لقبَ « اللص » يكون من الشرف أحياناً بحيث يسمو كثيراً على الرجل الملحد....

(والثاني) رجلٌ ، متفلسف انقلبت عقيدتهُ الى زيغٍ فلهُ رأيان في أمور الحياة : واحد ينزعُ فيه الى طبيعته فيستمتع ما وَجدَ متاعاً في حرام أوحلال وفي معروف أومنكر. والآخرُ يرجع به الى ضميره الانسانيّ وماهو الأشبهُ بعلمه وعقله وفلسفته فيألم ويتململ إذ يرى انهُ لا يزن من لذاته لا بمقادير الخير ولا بمقادير الشر وأنهُ يبيح لنفسه ويحرّم على غيره ؛ فإنما الرأيُ والحقُّ والعدلُ أن لاينطلق في كل انسان تاريخهُ الوحشيُّ كما يفعل هو ليقومَ النظامُ على أصوله وتتحققَ الانسانيةُ في أهلها ، ولو فعل الناسُ ذلك فوسعتْهم الفلسفةُ لما وسعتهم الطبيعةُ بل هي تسرعُ حينئذٍ فتطلقُ لكل حيوان مع أكيلته التي يغتذي بها آكلهُ الذي يغتذي به

لم أفهم من فلسفة الرجل أنهُ فيلسوف ، بل عرفتُ من علمه أن الرجل من الناس قد يكون سافلا حتى من الجهة العاليه فيه وقد يكون فاسداً حتى من بعض جهاته الصالحة . . . .

(والثالثُ) رجلٌ يزعم عند نفسه أنهُ مُصلح ويتولى أمورَ الناس فيُداوِرُها ويلتمسُ لكل شىء ماَ تأتّىَ يتسببُ منه الى إصلاح فيهم حتى اذا وثق الناسُ به واستكانوا اليه وصاروا فى حال الغِرّةِ وفى قِيادِ الأمن،صدعهم فى أديانهم وأخلاقهم ورَكِبَهُم بمزاعمه وخُرافاته وبثَّ أوهامَهُ فى مذاهب أقدارهم وتصاريف مورهم وظنَّ أنَّ كلمةَ يضعُ فى موضعها كلمةً غيرَها وحسبَ اليومَ من أيامه فى عمر الدهر كاليوم من أيام الله فى خلق السموات . . . . فهو يَطْرُدُ الأزمنةَ ويمحو العاداتِ ويغيِّر الطباعَ ويَسِنُّ لفروع الشجرة سُنَّةَ جذورها فلا يذهبُ الفرعُ طالعاً بل يغورُ نازلاً ، ثم يريد أن يقيم على طريق التاريخ مجازةً أو قنطرةً ليمشىَ بالناس فوق التاريخ فيقطعَ بهم الف سنة فى الف يوم وكأنه زاد فى الطبيعة ناموسَ نَهيهِ وأمرِه . . . .

أنا لا أقول فى مثل هذا إنهُ مصلح بل أقول يا عجباً اسخرية الأقدار من القوة ، ألا يرتفع النسرُ فى الجوّ الا ليبحثَ أين تكون الجيفة . . . . .

(والرابعُ) ذاك الذى جعلتهُ الكتبُ عالماً وقسمتْ له ما شاء ولكن الله تعالى لم يقسم لهُ شيئا من كَرَمِ الضَّريبة وشرفِ العِرق ولا ألقى معانىَ الذهب فى سلسلة آبائهِ[1] فهو

(١) فى الاثر : لا تعلموا أولاد السفلة العلم « أولاد السفلة » فقط.

رِثَّةٌ(١) لا يجيء فى معانى الناس بطباعه وأخلاقه الاّ كالثوب الخَلَق من فُتوق ورُقَع ، ويغطي عليه العلم كما تغطّى القشرةُ النَّضِرَةُ على الثمرة المرة ، فاذا كَتَبَ للناس ارتطم فى طباعه ونَزَعَ الى مأخذه وتجاذبَ داخلُ نفسه وخارجُها فيذهبُ يُنكر ويعترضُ ويُسَفِّهُ ما عليه الناسُ من دينٍ وخُلُق وينزو بهم فى نَوازيه ودَواهيه ، ويردُّ كلَّ مافى الطبيعة من الجمال وكلَّ مافى النفس من الحق الى تأويلٍ ماديٍّ بَحْت ، كأنَّ الزهرةَ الخارجةَ من الطين هي طينٌ مثلهُ ؛ ويَسقطُ عنده كلُّ ما عَمِلَ الشعاعُ والماءُ فى الذَّرة الأزلية التى انبثقت منها النبتةُ فخرجت تُوحي عن السماء وحيَ النور واللون

أنا لاأفهم أن مثل هذا عالم ولكنهُ فى الناس كبعض النباتِ فى النبات يُرْزَقُ من النموِّ قوةً يفسِدُ بها ما حوله ، فاذا هي ظهرت فيه لم تُنَبِّه على قيمته بأكثرَ مماتنبهُ الناسَ الى وجوب اقتلاعه واستئصاله ....

* * *

لا ثقةَ لي بمتخلِّق لا دينَ له فان الخُلُقَ يصلهُ بحظّ نفسه أكثرَ مما يصله بواجبات الناس ؛ ولا بفيلسوفٍ ملحدٍ لأن الفلسفة تمزجهُ بالمادة أكثر مما تمزجهُ بالانسانية ؛ ولا بمصلح

(١) أى من البقايا التى لاخير فيها

ينسلخُ من الدين لأن إصلاحهُ صُوَرٌ من غروره ؛ ولا بعالم جاحد لأن علمه كهندسة الشوكة كلُّها من أجل آخرها . . . أولئك لا يدرون أنهم من هذا العالم فى حدود أغراضهم الصغيرةِ الفانية إذ كان كلٌّ منهم يتناولُ الكونَ من حيث يحبُّ هو لا من حيث يجبُ عليهِ ، ثم يفسر الاشياء فى جزء منها لا فى مجموعها ، ويعتبر الزمنَ عمراً كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموتُ ، وينظُر الى الغاية من الوجود كأنها داخلةٌ فى الحدّ مع أنها لو حُدِّدت لبطلت أن تكون غاية

كلٌّ منهم صحيحٌ فى ذاته لكنه فاسدٌ بموضعهِ من أغراضهِ أو من أغراضنا ؛ وما أشْبَهَهم بالأشجار فى المقابِر لا تجدُ لها فى المقبرة ما تجدُ لها فى الحديقة ، كأنها لما قامت فى موضع الموت قامتَ حية ولكن ماتت روحُ الحديقة فيها

لا تسمو حياةُ الفرد الاّ اذا كان جزءًا من كلٍّ ، ولا يجتمع الكلُّ الاّ اذا كان تامًّا فيما هو كلٌّ بهِ ؛ فالسبيلُ أن يُدفعَ الفردُ أبداً الى خارج حدوده الذاتية الصغيرة . وفكرةُ الكل هذه لا يصوّرها ولا يستوفي معانيَها الاّ الدينُ الصحيحُ إذ هو خروجٌ بالفرد من شهواته التى تفصلُه من غيره الى واجباته التى تصلُه بغيره ، وانتزاعٌ لهُ من ذاتيتهِ الى إنسانيته ودَفْعٌ بالانسانية نفسِها الى الكلّ الذى هو أسمَى . فكأنه

الايمانَ في حقيقته إن هو الاَّ دُرْبةٌ لهذا الانسان على الدخول في اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضى على الفرد أن يتسعَ ويمتدَّ في انسانيته لا في شخصيته فيتخلَّقَ بالاخلاق التي تعمُّ دون التي تخص؛ وهذه صورة صغيرة من جعل المحدود في ذاته أعظمَ من ذاته ودفْع ماينتهي في سبيل مالاينتهي .

فاذا عمل الفردُ على أَن يُقفلَ حدودَهُ عليه ويستغلقَ بها ويمتنعَ من ورائها ، صار كالقلعة المحصَّنةِ لاتصلح الاَّ حرباً لما حولها ودفاعاً عما فيها فلن يضعَ هو أَمرَهُ الاَّ على هذا المعنى ، ومن ثَمَّ فلن يكون لهُ ممن يصادمونهُ الا حكم واحدٌ وهو تخريبهُ وهدمهُ واقتحامهُ .فاذا كانت الحياة غيرَ باقية على فرد من الناس فمن الحمق أن تكون هذه هي صورةَ الانسانية فيها، واذا كان ذلك حمقاً فالحمقُ ولا جرَمَ بعضُ المعاني التي يقوم الإلحادُ عليها

***

ليس في الأرض انسانٌ لا أَجداد لهُ فمن ثَمَّ ليس على الأرض إنسانٌ في نفسه بل انسانيةٌ فقط ، انسانيةٌ متصلةٌ مفرَغَةٌ إفراغاً ليس للفرد بينها موضعٌ لذاته بل موضعهُ لاتصاله بسائرها كمنزلة الخليَّة الواحدة بين الملايين من الخلايا المتلازَّةِ في جسم واحد قائم من جميعها صالح للوجود بصلاحها وفسادها معاً

أَما إنها لعجيبةٌ أن تلقىَ بسؤالين متناقضين لايلتئمان ثم لا تجد

ولن تجد عليهما الا جواباً واحداً لا يختلف، سَلِ الحكمةَ: لِمَ صَلُح هذا؟ فالجوابُ ليكونَ شيئاً ضرورياً في الوجود. وسَلْها لِمَ فسد ذاك؟ فالجوابُ كذلك ليكونَ شيئاً ضرورياً في الوجود. هي الحَلَقةُ المفرغةُ لما غاب طَرَفاها صار كلُّ موضع فيها طَرَفاً وعَلَتْ كلها ونزلت كلُّها.

فليس الا النوعُ لا الفردُ، والكلُّ لا الجزء، والانسانية لا الانسان. وانما يقعُ كلُّ شيء في الحياة — بل في الوجود كله — تدريجاً لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينفصمَ أحدٌ منها، فهي ابداً ذاهبةٌ بالجسم والعقل والمعرفة والعمر من جزء الى جزء؛ من الأصغر الى الصغير، الى الكبير الى الأكبر؛ الى الأوسع الى الأسمى، لأن تلك هي علامتُها في حركتها وتَسَحُّبِها؛ وهي طريقةُ برهانِها بالنهاية على أنها لا نهاية

بَيْدَ أن خطأ الغريزة في الانسان يظهرُ في اعتبار الفرد نفسَه كلاً تاماً وشيئاً متميزاً فلا يريدُ لنفسه الا أمراً تاماً ووجوداً يتميز فيه، وبذلك يقتحم سِواه ويستبيحُ وجودَهُ فيقعُ النزاعُ والعُدْوانُ وكأنه يضيق بمقدار ما لا يستطيع أن يتّسع لان دفعَهُ لكل ما حولهُ مردودٌ عليهِ بدفع مثلِه مما حولهُ، فتتبدَّلُ صورةُ الانسانية في شكل دَخَلَهُ الغلطُ من كل جهاتِه. وههنا موضعُ الدين الصحيح فما هو الا الناموسُ القائم من كل انسان على الواقع

فى ذاته والواقع فى غيره ليصل بين الواقعين المختلفين بنظام مختلف متحد يكون له فى النفس ما يكون لنظام المد والجزر

وبهذا كان واجباً حتماً أن تكون العقوبة جزءاً من نعيم الدين ، وأن يكون القيد شقاً من حرية العقيدة ، وإلا بطلت فى الايمان قوتا الجذب والدفع معاً ببطلان إحداهما ، لأن مداً بلا جزر هو أخش الغرق من ناحية وجزرا بلا مد هو أخش الغرق من الناحية الاخرى

تعجبنى كلمة فى الانجيل لا أعرف أحداً أحسن تأويلها وبلغ حقيقتها . قال « يجب أن تولدوا ثانية » ، ووضعها فى هذا المقال هو تفسيرها فان الفرد يولد من الفرد ولكنه لا يصلح على ذلك بل يجب أن يولد فى صفاته وأخلاقه من المجموع الانسانى لتقع الملاءمة . ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن يفلح بها إنساناً فيجب أن يولد مرة أخرى من جنسه الاجتماعى بغرائز مكتسبة. ثم إنه يولد مهيأ للإقرار بنفسه وحدها فيجب أن يولد الثانية مهيأ لإنكارها وحدها

على هذه الأرض ، إما الإقرار بالنفس وإيثارها والاعتداد بها ومع كل ذلك الحيوانية والشيطان ، وإما إنكارها والإيثار عليها والمهاونة بها ومع كل هذه الانسانية والله

لن تطاق الحياة الا اذا تبدلت فاتخذت لها أسلوباً غير

أسلوبها الآتى من تركيب المادة ، وانما صراعُ الأرض كلّه حول إقامة هذا الأسلوب الجديد أو هدمِه أو ترميمِه . أسلوبِ الأَخلاق والطباع الشديدة التى لا تطيقُها الحيوانية فتسميها انسانية، وتُكبِرُها الانسانية فتسميها الايمان . بالأسلوب الاول تكونون بالحياة فى موضعها ، وبالثانى تَسْمُون بالحياة عن موضعها « فيجب أَن تولدوا ثانية »

* * *

كلُّ ما يراد بِه أن يسدّ فى الانسانية مَسدّ الدين ويُغنِى عنه فانما هو فى رأيى كطعام أهل الجحيم ، لا يُطعَمون فيها كما يطعمون فى (نُزُلٍ) لِشَبعٍ وسِمَنٍ بل طعاماً كما جاء فى القرآن الكريم « لا يُسمِنُ ولا يغنِى من جُوع » أى لإحداث الجوع وكَلَبِهِ واستمرارِه (١)

والطبيعةُ نفسُها تهيء الانسانَ للدين بأسلوب غريب هو

(١) انظر اعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصفِ طعام أهل الجحيم وماهى بدار طعام بل دار عذاب، فقال « لا يسمن » فينخدع الحس بالكلمة فيظن ان هذا الطعام ان لم يسمن فربما ذهب بالجوع وإن لم يذهب به فربما اغنى منه ولوشيئا . فقال « ولايغنى من جوع » فيصدم الحس هذه الصدمة و ينعكس عليه التأثير الذى توهمه قبل. ثم يشتد هذا التأثير و يبلغ مبلغه حين يتامل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له الا ان طعام هؤلاء اذا كان لايحدث نتيجة البتة مما هومن خصائص الاطعمة لافي سمن ولا شبع ولاالغناء

هذا الحبُّ الذي يُخلَق فطرةً على أنواع مختلفة متعددة حتى لا يخلوَ منهُ أحد فلا مَعْدِلَ عنهُ ولا مَحِيص. وانما هو في مظاهرهِ — أيّها كان — دُرْبةٌ للنفس الانسانية تَصعدُ بهِ درجاتٍ من الفضائل كالاخلاص والايثار والاتصال الفكريّ والانبعاث الروحيّ والشوق الخياليّ ونحوِها مما هو في الحقيقة ايجادٌ للحياة النفسية في أعمالنا وفَيضٌ بالقوة الروحية على مظاهر المادة لاحداث الملامسة بين الأرواح والاشياء والترابط بين الجاذب والمنجذب؛ وكلُّ ذلك تهيئة للدين وعمله في النفس ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة. فالحب دينٌ على أسلوب خاصّ ضيّق ولذلك يشتد فيه التعصبُ كما يقع في الدين من المؤمن بهِ على وتيرةٍ واحدة إذ لا يرضى القلبُ في هذا ولا هذا غيرَ رأي واحد. فكيفما قلَّبنا الحياةَ رأينا في كل جهة منها وجهاً من وجوه الايمان وباعثاً من بواعثه وحكمةً من فلسفته ، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصُوَرٍ ملوّنةٍ من الغرائز تَطمِسُ على الدين ، هم الذين يرجعون بهذه الأمم في عاقبة الأمر الى الحيوانية لأنه ليس في طبيعة النفس الا شيئان : هوىً هي دائماً أعظمُ منه وإيمانٌ هو دائماً أعظمُ منها

من جوعٍ ، فما هو الا طعام منعكس لايجاد الجوع واستمراره، ثم وتسميته على ذلك «طعاماً» مع ان لهذه الكلمة في النفس عكس ذلك العمل يكون اشد على النفس في العذاب وفي التهكم فتأمل كيف يكون الاعجاز

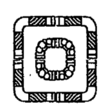
خطأ وصوابه

وقعت فى الكتاب بعض أغلاط مطبعية ينبه أكثرها بنفسه الى نفسه وقد رأينا أن نصحح منها مالا يحسن إغفاله

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
بكاءسه	٦٥	٨	بكأسه
وقا	٨١	١٨	وقد
السدء	»	١٩	السماء
ق	٨٧	٤	فى
تهرأ	٩٣	٩	تهزأ
وباليت	٩٤	٢	وياليت
ولكنه يقع	١١٦	١٩	ولكنه لايقع
واختيار	١٢٧	٤	واختبار
طفت	١٤٠	١٤	طغت
فَضُوح	١٤٣	٣	فُضُوح
قُتْلَة	»	٤	قِتْلَة
ربّ كلمةٌ	١٥٩	٥	ربّ كلمةٍ
صَرَفِ الكلام	١٦٠	٣	صَرْفِ الكلام

وأفثى	١٦٤	١١	وأفشى
فكان	١٦٩	١٨	فكأن
لطعت	١٧٥	١٠	لطمعت
بلغ ظلالها	١٨٩	١١	بلغ ظلّها
ياماً	١٩١	١٠	أياماً
قنابلها	٢٣٧	١٦	من قنابلها
نفخة	٢٥١	٧	نفحة
فى جنبه	٢٥٥	٦	ليس فى جنبه

ورقم (١) فى شرح الصفحة ١٧٤ محله رقم (٢) وهذا في محل ذلك




Bibliotheca Alexandrina
04409196